الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

تعريف السيرة النبوية .

- إن السيرة في الأصل تطلق ويراد بها الطريقة التي يسير عليها الشخص، سواء كانت محمودةً أو مذمومةً ، هذا من حيث التعريف اللغوي.
- أما في ما يتعلق بنبينا -عليه الصلاة والسلام-، وهذه المادة، فالمقصود بها: معرفة أحوال النبي -صلى الله عليه وسلم- على التفصيل، من الولادة إلى الوفاة، فإذا قيل: السيرة النبوية، فهي تشمل هذه المدة الزمنية، التي عاشها -عليه الصلاة والسلام-، وهي على الراجح من أقوال العلماء، تمتد ثلاثًا وستين سنةً.

العلاقة بين السنة وبين السيرة النبوية.

- العلاقة التي نريد أن نوضحها هنا الآن حينما تُطلق السيرة، أو تطلق السنة، في أمرين رئيسيين:
  - ❖ **الأمر الأول:** أن السيرة أشمل من السنة، فالسيرة تشمل كل شيءٍ، من ولادته -عليه الصلاة والسلام-، بمعنى ما قبل نزول الرسالة، أو نزول الوحي عليه، إلى وفاته -عليه الصلاة والسلام-، أما السنة التي هي موضع الاحتجاج، وموضع الاستشهاد، فهي ما بعد نبوءته -عليه الصلاة والسلام-، أو نزول الوحي عليه، إلى وفاته -صلى الله عليه وسلم-، فهذه هي القضية ، أو هذه المدة الزمنية التي يُطلق عليها السنة بالمعنى الخاص، وهي التي يُحتج بها في إثبات العقائد، يُحتج بها في إثبات السنن، يُحتج بها في إثبات الآداب وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالتشريع الإسلامي، الذي السنة النبوية مصدره الثاني بإجماع المسلمين.
  - ❖ **الأمر الثاني:** هناك طريقةٌ في ما يتعلق برواية السنة، وما يتعلق برواية السيرة، العلماء -رحمة الله عليهم- وهم أئمة الحديث، الذين قعَّدوا وأصَّلوا رواية السنة، كان لهم نظرٌ في ما يتعلق بالأسانيد التي تُروى بها السيرة، والأسانيد التي تُروى بها أحاديث الأحكام، سواءً كانت الأحكام العلمية التي هي العقائد، أو الأحكام العملية التي تتعلق بالحلال والحرام.

- فقرر أئمة السنة أنه في ما يتصل بالحلال والحرام، وما يتصل بالعقائد، هناك يشددون ويدققون في الأسانيد وفي الرواة، فيشترطون لمن يروي الأحاديث التي فيها إثبات الصفات مثلًا، الكلام على اليوم الآخر، ونحو ذلك، أو الكلام في الحلال والحرام، في العبادات، في المعاملات، في الأنكحة، في غيرها، يشترطون شروطًا أعلى، فلا يقبلون إلا من ثقةٍ، لا يقبلون إلا بسندٍ متصلٍ، سالمٍ من الشذوذ والعلة، لكن في السير لا يشددون هذا التشديد لسببٍ، ولا يقال إن هذا تناقضٌ، كلا، لأنهم هم الذين وضعوا قواعد علم الرواية، لماذا أيها الإخوة؟ لأن السيرة منها ما هو موضع احتجاجٍ، يتعلق بالحلال والحرام، ومنها ما هو موضع سردٍ، تأريخيٍّ، بحيث يقال في تلك السنة، أرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- عدة سرايا، هذا الإرسال لا يتعلق به حلالٌ وحرامٌ، لأن أصل هذا الإرسال ثابتٌ في السنة بالأسانيد، وهو أن الإمام الأكبر الذي يتولى مسئولية الدولة، له أن يجيّش الجيوش، له أن يرسل الرسل والبعوث إلى آخره، هذا أصله ثابتٌ، لكن أن تقع سريةٌ في سنة كذا، أو في شهر كذا، هذا لا يُشدد في أسانيدها، لكن لو تضمنت هذه السرايا والبعوث، أو حتى بعض تفاصيل السيرة أحكامًا شرعيةً، هنا ننتقل من رواية السيرة إلى رواية السنة والحديث، فنضبط لها الأسانيد.
- باختصارٍ نقول: العلاقة بين السنة والسيرة أن السيرة أشمل، بينما السنة أخص، أيضًا الأمر الآخر: أننا عند رواية السير لا نشدد في أسانيدها، كما نشدد في أسانيد السنة، التي يترتب عليها الحلال والحرام.

فوائد دراسة السيرة النبوية.

- السيرة النبوية لها فوائد في دراستها جدًّا عظيمة، يجدها الإنسان في نفسه، حينما يتذاكر مع أهل بيته، مع أصحابه، مع طلابه، في تدريسها في المساجد، أو في مثل هذا الموضع -إن شاء الله تعالى.

❖ **الفائدة الأولى:** من أعظم الفوائد تحقيق التأسي به -صلى الله عليه وسلم-.

- والله -عزَّ وجلَّ- قال في سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

❖ **الفائدة الثانية:** زيادة محبته -صلى الله عليه وسلم-، فمن كان به أعرف، كان في الأعم الأغلب أكثر حبًّا، وشوقًا، واتباعًا.

❖ **الفائدة الثالثة:** فهم القرآن، خاصةً ما له صلةٌ بالسيرة النبوية.

- مثل: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: 43]، هذه يفسره لك قراءة حديث كعب بن مالك في قصة توبته حينما جاء يعتذر للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وجاءه المنافقون، إلى غير ذلك، وهكذا.

❖ **الفائدة الرابعة:** هو تنزيل السيرة على الواقع، والإفادة منها في علاج مشاكلنا.

نحن أيها الإخوة والأخوات إذا درسنا السيرة النبوية، ورأينا أن النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يمر بحال الحرب والسلم، يمر بحال الفرح والحزن، يمر بحال العبادة والمعاملة، يمر بالتعامل مع الأصدقاء والأعداء، يمر ويتعامل مع الموافقين والمخالفين، هذه أمورٌ لا يمكن أن ينفك عنها الإنسان في حياته، فإذا قرأ السيرة، ثم مرَّ به موقفٌ يُشبه ما مرَّ بالنبي -عليه الصلاة والسلام- طبَّقه على واقعه، فعالج مشكلته.

❖ **الفائدة الخامسة:** معرفة أسرار التشريع وحكمه، ومن ذلك أسباب نزول الآيات، وأسباب ورود الحديث.

- فمثلًا من الآيات التي لها سبب نزولٍ: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- عرض الإسلام على عمه أبي طالب، في آخر لحظات عمره، حاول، حاول، فلم يكتب الله -عزَّ وجلَّ- له أن يُسلم، فوقع النبي -صلى الله عليه وسلم- في حزن، فسلَّاه الله -عزَّ وجلَّ- بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: 56]، هذه آيةٌ، فإذا قرأتها وعرفت سبب النزول، لم يحزن قلبك على إنسانٍ قد يكون من أقاربك غير مسلمٍ، أو ضل ضلالًا عظيمًا، أو قد يكون فيه نفاقٌ وعداءٌ للدين، دعوته، واجتهد في دعوته، ولكن لم تُفلح، فلست وحدك، رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مرَّ بمثل هذا الموقف، فهذا يخفف عنك.
- في أسباب ورود الحديث، تقابل أسباب النزول في الآيات القرآنية، بمعنى أنه أحيانًا يأتيك حديثٌ مُجملٌ، فتجد فيه بعض الإشكال، فترجع إلى كتب السيرة، أو كتب السنة النبوية، فتجد فيها فكًّا لهذا الإشكال، حينما تعرف ما سبب قوله -عليه الصلاة والسلام- لهذا الحديث، فيزول عنك الإشكال.
- مثال ذلك: مع أن الحديث فيه ضعفٌ، لكن المقصود المثال، وهو أن في حديث عمر عند أبي داود، أن رجلًا جاء يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن حكم القُبلة للصائم، فنهاه، جاءه رجلٌ آخر، فسأله نفس السؤال فأذن له، قال الراوي: فإذا الذي سأله في الأول شابٌّ، وإذا الذي سأله في الثاني شيخٌ، يعني بعيدٌ عن الشهوة، لا يغلب على الظن أن مثله لا تتحرك شهوته تحركًا يُفسد الصوم، بينما الشاب لا.

❖ **الفائدة السادسة:** معرفة كيفية التعامل مع الأعداء والمخطئين وغيرهم من المخالفين.

- النبي -عليه الصلاة والسلام- في مكة تعامل مع المشركين، في المدينة تعامل مع المشركين والمنافقين، ومع اليهود أيضًا، واليوم نحن لسنا بمعزلٍ عن هذا العالم، نحن كما يقال العالم أصبح اليوم قريةً واحدةً، يعني إلى وقتٍ قريبٍ كان الإنسان في بلده يتعامل مع المخطئين في المحيط القريب، أنت اليوم من خلال مواقع التواصل، ومن خلال الصفحات الموجودة على الإنترنت، ومن خلال أيضًا الأجهزة الكفية هذه التي صارت تجعل العالم بين يديك، صرت محتاجًا أكثر من أي وقتٍ مضى لدراسة السيرة، لتتعرف على كيفية التعامل مع المخالفين.
- المخالفون أصنافٌ، منهم الكفار الأصليون، ومنهم المنافقون، ومنهم من هم من إخوانك المسلمين، لكنهم يخطئون عليك، وكل هؤلاء السيرة حافلةٌ جدًّا بكيفية التعامل معهم، فدراستنا للسيرة تقرِّب لنا الوجه الصحيح والأقرب والأسلم في التعامل مع هؤلاء، لأن غياب السيرة في تعاملاتنا، وجعل طبائعنا مثلًا أو عاداتنا، أو تقاليدنا هي التي تحكم، هذا لا شك أنه سيزيد المشاكل، ويعقِّد الأمور، بل ويبعد الصورة البهية للإسلام، والأخلاق الزكية لأهل الإسلام، التي زرعها وبثَّها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، في أصحابه، وفي أمته.
- يعني مثلًا على سبيل المثال، إذا تأملت في السيرة، وفي تعامله -عليه الصلاة والسلام- مع المنافقين، تجد أنه كان بأبي وأمي -صلى الله عليه وسلم- يحيِّدهم ما استطاع، بمعنى أنه لم يكن يصادمهم، ولم يكن -عليه الصلاة والسلام- يحرص على أن يستكثر من الأعداء، بل ما استطاع إلى تهميشهم، وتقليل دورهم، وتحجيمهم فعل، اليوم للأسف بعض الناس باسم الدين، تجده يجلب مزيدًا من الخصومات، ومزيدًا من الأعداء،

ومزيدًا من الشر والمشاكل، بل أعجب من هذا أنك تجد شخصًا يدعي اتباع السنة، وقد يكون مسلمًا ضمن أقليةٍ مسلمةٍ في بلدٍ أغلبها كفارٌ، ومع ذلك كما يقال يظهر مخالبه، ويتكلم بلغةٍ، وكأنه الأقوى، وكأن مقاليد الحكم بيده، وهو في تصرفاته قد يجلب أعداء الإسلام الذين يضايقون المسلمين جميعًا بسببه هو، أو بسبب تصرفاته وطيشه، وعدم تقديره للظروف التي هو فيها، ولو درس مثلًا على سبيل المثال المرحلة المكية، التي عاش فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم كان المسلمون أقليةً، وفقه المرحلة التي هو فيها، لعرف أنه ينبغي له أن يكون كما قال الله: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: 77]، لست في مقام القوة، ولست في مقام مناكفةٍ دول بأكملها، هي على دينٍ غير دينك، بل تكره دينك، وتحارب دينك.

مصادر السيرة النبوية.

- الواقع أن السيرة النبوية يمكن تلقيها من عدة مصادر، يمكن اختصارها في تسعة مصادر:
- **المصدر الأول:** هو القرآن الكريم، وهو أعظم مصدرٍ عندنا، ومن قرأ مثلًا سورة آل عمران وسورة التوبة، وسورة الأحزاب، وسورة الفتح مثلًا، كل هذه سورٌ مدنيةٌ، يجد فيها مجالًا واسعًا لدراسة السيرة، سورة الأنفال كان ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول: هي سورة بدر، أو هي سورة غزوة بدرٍ، في سورة آل عمران جاء الحديث بقرابة خمسين أو ستين آية عن غزوة أحدٍ، في سورة التوبة عشرات الآيات تحدثت عن غزوة تبوك، في سورة الأحزاب باسمها، سورةٌ كاملةٌ تحدثت عن سورة الأحزاب.
- **المصدر الثاني:** كتب السنة المسندة، البخاري، مسلم، أبو داود، الترمذي، النسائي، ابن ماجة، أحمد، وموطأ مالك على قلةٍ فيه، وغير ذلك من الكتب.
- **المصدر الثالث:** هي كتب الشمائل النبوية، ومن أشهر كتب الشمائل، كتاب الإمام الترمذي، وهو كتابٌ مطبوعٌ ومشهورٌ جدًّا للإمام صاحب الجامع، وكذلك أيضًا كتاب الشمائل النبوية للبغوي -رحمه الله- صاحب التفسير المشهور، أبو الحسين البغوي، أو أبو مسعود، وغيرها من الكتب.
- **المصدر الرابع:** كتب الدلائل النبوية، ومن أشهرها كتاب دلائل النبوية، لأبي نعيم، ودلائل النبوة للبيهقي، والمقصود بدلائل النبوة: جمع دليلٍ، يعني الأدلة التي تدل على نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويكثر في هذه الكتب الإشارة إلى الآيات التي آتاها الله -عزَّ وجلَّ- نبينا -صلى الله عليه وسلم-، التي تدل على صدق نبوته -صلوات ربي وسلامه عليه-وبعض الناس يسميها المعجزات، لكن نبَّه ابن تيمية -رحمه الله- إلى أن هذا الاستعمال حادثٌ، وأن الصواب أن يسمى ما أوتي الأنبياء آياتٍ، كما سماها الله في القرآن.
- **المصدر الخامس:** كتب المغازي والسير، ومن أشهرها مغازي ابن إسحاق، التي هذَّبها ابن هشام، ومغازي ابن إسحاق غير موجودةٍ، لكن هذَّبها ابن هشام -رحمه الله-، فحفظ لنا بهذا التهذيب الكتاب الأصل، وكذلك عندنا مغازي الواقدي، وهي مطبوعةٌ، وغيرها من الكتب.
- **المصدر السادس:** كتب الخصائص النبوية، ومن أشهرها نهاية السول لابن دحية الكلبي -رحمه الله-، ومنها غاية السول لابن الملقن -رحمه الله-، أحد شيوخ الحافظ ابن حجر.

المقصود بكتب الخصائص النبوية، أي الكتب التي صُنِّفت لبيان ما اختص به رسولنا -صلى الله عليه وسلم- من خصائص ، مثاله: أنه -عليه الصلاة والسلام- لا يجوز أن تُنكح أزواجه من بعده، ومن خصائصه: أنه يجوز أن يتزوج أكثر من أربع وهكذا من هذه الخصائص، ومنها مثلًا أنه تنام عيناه ولا ينام قلبه، وهكذا.

- **المصدر السابع:** كتب التاريخ العامة ، ككتاب الإمام ابن جرير الطبري، المعروف بتاريخ الأمم والملوك، وكذلك كتاب الحافظ ابن كثير البداية والنهاية.

هذه كتب تواريخ عامة، ابتدأت منذ بدء الخليقة، إلى عصر المؤلف، ولكن تكون السيرة ذُكرت فيها عَرَضًا، لا قصدًا، وهذا الفرق بين الكتب المصنفة استقلالًا، وبين السيرة التي دخلت في كتب التاريخ عَرَضًا.

- **المصدر الثامن:** كتب معرفة الصحابة، والمقصود بكتب معرفة الصحابة أي الكتب التي جمعت الأسانيد التي أثبتت فيها صحبة الصحابي، وسماعه من النبي -عليه الصلاة والسلام-. ففي الغالب أنه يُذكر فيها شيءٌ من موقفٍ، أو موقفين وقع بين هذا الصحابي وبين النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن أشهر هذه الكتب، كتاب معرفة الصحابة للإمام أبي عبد الله ابن منده، وقد طُبع منه مجلدان، الباقي مفقودٌ، والباقي معرفة الصحابة لأبي نُعيم الأصبهاني -رحمه الله-، والأصفهاني الذي توفي سنة أربعمائة اثنين وثلاثين، ابن منده توفي سنة ثلاثمائة وخمس وتسعين، وغيرها من الكتب.
- **المصدر التاسع:** هي كتب الطبقات، والمقصود بالطبقات، أي التي صُنِّفت على طبقات الأشخاص، على السنوات التي مروا بها، فتجدهم يتحدثون عن مثلًا السنة العاشرة، السنة الحادية عشر، السنة الثانية عشر، وهكذا، أو على طبقات الأشخاص من جهة الأعمار، ومن أشهرها كتابان: الطبقات لخليفة بن خياط، وهو أحد شيوخ البخاري، وكذلك أيضًا الطبقات للإمام محمد بن سعد، تلميذ الواقدي، وكتابه مطبوعٌ في عشر مجلدات.

المؤلفات في السيرة النبوية، وما المرشح منها لطالب العلم.

- لا يمكن أن نقول في دراستنا للسيرة إن هذا الكتاب يُغني عن ذاك الكتاب، أو ذاك الكتاب هو الذي لا قبله ولا بعده كتابٌ؛ لأن هذا عائدٌ إلى الزاوية إن صحت العبارة، أو النظارة التي اتجه أو ركَّبها هذا العالم، ليقرأ من خلالها السيرة النبوية، ومع هذا فلا مانع أن نشير في هذا السياق إلى جملةٍ من الكتب، نبدأ بالمختصرات، ثم المتوسطة، ثم الطويلة من الكتب المعاصرة، أما الكتب القديمة فقد أشرنا إلى سيرة ابن إسحاق، وأشرنا إلى سيرة الواقدي، وأشرنا إلى الطبقات، وغيرها من الكتب، لكن هذه الكتب نظرًا لأن المؤلفين لها عاشوا في عصر الرواية، كان غرضهم الجمع المحض، حتى لا يفوت عليهم شيءٌ، فيبقى التمحيص وبيان الصحيح من غير الصحيح، كذلك بيان مواضع العبرة وغيرها، هذه تبقى للذين يأتون من بعدهم، فهم -جزاهم الله عنا خيرًا- تعبوا جدًّا في الجمع، فيبقى دور التمحيص والتنقيح، ودور أخذ الدروس والعبر يأتي لمن بعدهم، وهكذا كما صنع بعض أئمة الحديث في جمعه للسنة، فهو يقول: أنا ما عندي وقتٌ الآن أمحِّص وأنقِّح، فسأجمع لكم السنة، وأسانيدها، ويأتي من بعدها فيمحِّص هذه الأسانيد ويرويها، وهذا بالمناسبة هو العذر الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، والخطيب البغدادي، لمن صنَّفوا بعض المصنفات، ووجد فيها أحاديث واهيةً جدًّا، بل بعضها موضوعٌ، فهو يقول: أنا إذا رويت بإسنادي، فقد برئتُ من العهدة، أنا لم أرو الحديث

وأسكت، أنا رويته وذكرت لكم إسناده، كما أيضًا يفعل ابن جرير في كتابه تاريخ الأمم والملوك، حشد كمًّا كبيرًا جدًّا من الروايات بإسناده، ولم يتمكن، أو ربما ضاق الوقت، أو لغير ذلك من الأعذار، تركها وجعل التمحيص لمن يأتي بعده، فسنذكر نحن الكتب المتأخرة، التي اعتنت بالتأليف في السيرة النبوية.

- من هذه الكتب كتابنا، الذي اخترناه في هذه الدراسة، وهو كتاب "الفصول في سيرة الرسول" -صلى الله عليه وسلم-، هذا الكتاب وهو مرفوعٌ بالمناسبة على الشبكة، ومرفوعٌ لطلاب الأكاديمية، هذا الكتاب من الكتب المختصرة، الشاملة إلى حدٍّ كبيرٍ، وسنتحدث عنه -بإذن الله تعالى- بعد قليلٍ.
- ومن الكتب أيضًا التي تحدثت عن السيرة النبوية: هي مقدمة كتاب تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي -رحمه الله-، الإمام النووي -رحمه الله- في مقدمة كتابه تهذيب الأسماء واللغات.
- قبل هؤلاء الحافظ ابن حبان في كتابه الثقات، أفرد المجلد الأول والثاني للحديث عن السيرة النبوية.
- إذا انتقلنا إلى عصرنا الحاضر، من الكتب المختصرة التي أنصح المبتدئ بقراءتها كتاب السيرة النبوية دروسٌ وعبر للدكتور مصطفى السباعي -رحمه الله-.
- ثمة كتبٌ أخرى تعتبر متوسطةً من كتب المعاصرين، وهي كتبٌ جيدةٌ، وفيها تركيزٌ على الدروس والعبر، منها فقه السيرة للغزالي، محمد الغزالي المعاصر ، وميزة هذا الكتاب أنه كُتب الحقيقة بروحٍ وشوقٍ كبيرٍ جدًّا للسيرة، لم يكن يكتب التعليقات على الكتاب، أو يعلق على المواقف تعليقًا جامدًا، بل كان يعلق تعليقات فيها تألقٌ في العبارة، وجمالٌ في الألفاظ، والكتاب الملاحظات التي توجد عليه من جهة الاستدلال ببعض القصص، يمكن استدراكها من تعليق العلامة الألباني على الكتاب، فإنه علَّق على الكتاب، وخرَّج أحاديثه، فأنت إذا قرأت كتاب الغزالي، ضم معه كتاب تخريج أحاديث فقه السيرة للغزالي، من تخريجات العلامة الألباني -رحمه الله تعالى-، ليكون عندك توازنٌ في قراءة الأحاديث.
- كتاب فقه السيرة للدكتور زيد بن عبد الكريم الزيد ، ويقع في مجلدٍ كبيرٍ، وهو مطبوعٌ، كتابٌ مفيدٌ، العبارة فيه سهلةٌ، وقريبةٌ، وفيه أيضًا إبرازٌ للدروس والعبر من السيرة، وهو كتاب يكاد يكون شاملًا.
- من الكتب المعاصرة، التي كُتبت بعبارةٍ جميلةٍ جدًّا ومُشرقةٍ: قصصٌ نبويةٌ، للدكتور عبد الوهاب الطريري ، هذه الثلاثة تناسب الفئة المتوسطة، كُتبت ورُكِّز فيها على الدروس والعبر، كتاب الدكتور عبد الوهاب الذي ذكرته قبل قليلٍ هو أقصر هذه الكتب الثلاث، ولكن فيه لفتاتٌ متميزةٌ جدًّا، لا تكاد تجدها في الكتب التي سبقتها؛ لأنه يركِّز على جوانب مُشرقةٍ، جوانب التأسي، جوانب العظمة في سيرته -عليه الصلاة والسلام.
- ننتقل للكتب التي أوسع وأكبر، من أفضلها لمن أراد التوسع: كتاب الدكتور مهدي رزق الله، السيرة النبوية، للدكتور مهدي رزق الله، وهذا مُطوَّلٌ، مطبوعٌ في مجلدين كبيرين، طُبع مؤخرًا بكتابٍ مختصرٍ، فمن عجز عن الأصل، فيمكنه أن يقرأ المختصر.

  أيضًا الدكتور تميز في هذا الكتاب بحرصه على تحقيق كثيرٍ من قصص السيرة التي أوردها في كتابه.
- الكتاب الثالث من الكتب المتوسعة نوعًا ما، وقد كُتب بعبارةٍ أدبيةٍ عاليةٍ ورشيقةٍ، هو كتاب محمد الصوياني، السيرة النبوية، وهو مطبوعٌ في مجلدين ضخام، طبعها أيضًا هو متأخرًا في كتابٍ مختصرٍ، يمكن أن يُقرأ هذا المختصر أيضًا في البيت، أو الكتب التي سبقته أيضًا.

- لو قيل لنا: ما الكتب التي ترشحها لطالب العلم؟

نقول: لا يوجد كتابٌ محددٌ يقال هذا كافٍ في بابه، لكن يمكن الإنسان أن ينتقل من كتابٍ صغيرٍ، إلى كتابٍ متوسطٍ، إلى كتابٍ أكبر.

كيف نقرأ السيرة قراءة نافعة؟

❖ **أولاً:** من أهم النقاط، هي أنك تقرأ في أحوال العرب قبل الإسلام، من لم يعرف الجاهلية أيها الإخوة لم يعرف الإسلام حقًّا، كما قال عمر -رضي الله عنه-، ومن قرأ في أخبار الجاهلية، وما كانوا عليه، من تخلفٍ، وما كانوا عليه من عبادة الأصنام، ووأد البنات، شرب للخمور، ظلم القوي للضعيف وهكذا، عرف نعمة الله -عزَّ وجلَّ- ببعثة هذا النبي -صلى الله عليه وسلم-، ووجد حلاوةً في قلبه حينما يقرأ قول الله -تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]، إي والله، ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ، هذا الضلال المبين كيف تتعرف عليه؟ اقرأ في تاريخ العرب قبل الجاهلية، واقرأ في تاريخ العالم عمومًا.

ومن الكتب التي أنصح بها للاضطلاع على هذا، كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ للندوي -رحمه الله-، فإنه أتى بتواريخ مختصرةٍ للأمة الرومانية، الأمة الهندية، والأمة الفارسية، كيف كانت قبل الإسلام، ثم ماذا صنع الله بها بعد أن جاء الإسلام، فهذه كتبٌ مفيدةٌ جدًّا في استكشاف هذه النقطة.

❖ **ثانياً:** أن ندخل على السيرة ونقرأها للاعتبار، لا نقرأها كما نقرأ جريدةً، أو نقرأ سيرة واحدٍ عاديٍّ، لا، نقرأها ونحن نقصد الاعتبار، وأمام أعيننا قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: 21].

❖ **ثالثًا:** لنستفيد من السيرة: أقترح أن تكون قراءة السيرة خاصةً للمبتدئ مع أحدٍ يفوقه في المعلومات، أو في العلم، قد يكون الوالد أو الوالدة، وهذا من أفضل ما يكون، وهي دعوةٌ للإخوة والأخوات في بيوتهم، أن يقيموا درسًا في البيت، ولو لمدة نصف ساعةٍ في الأسبوع، علِّموهم سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، اجعلوا قلوبهم تتعلق بهذا النبي العظيم الكريم، ليكون هو القدوة لهم في الحياة، قبل أن تتفتح أعينهم على نجومٍ موهومين، يوصفون بأنهم أبطالٌ، ويوصفون بأنهم نجومٌ، وهم تافهون حُقراء، لا يستحقون أصلًا من أن يضيع الإنسان وقته في متابعة أخبارهم، اجعلوهم يحبون هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- ليسهل عليهم التأسي به، اجعلوهم يعرفون ما معنى أن الله بعث هذا النبي الذي لقي ما لقي، وتعب -عليه الصلاة والسلام-، وبذل ما بذل، وأوذي -عليه الصلاة والسلام- حتى بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

لماذا تم اختيار كتاب ابن كثير -رحمه الله- في السِّيرة النَّبويَّة، وهو الفصول في سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم؟

اخترناه لأسباب:

☑ **أولًا:** لجلالة مؤلفه -رحمه الله- وهو الحافظ ابن كثير، وهو العلم المشهور صاحب التفسير المشهور، الذي طبَّقت شهرته الآفاق، وهو من علماء القرن الثامن، توفي سنة أربعة وسبعين وسبعمائة -رحمة الله عليه- وهو من مشاهير تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمة الله تعالى عليه.

ولأنه -رحمه الله- عالم محقق، فهو لا يسرد الأحداث، ولا يذكرها دون أن يعلق عليها في كثير من الأحيان، وهذه هي الميزة بين العلماء المحققين وبين غيرهم.

☑ **ثانياً:** من مزايا الكتاب الذي معنا، أنه مختصر نسبيًا، لا هو بالطويل الممل، ولا هو بالمختصر والقصير الذي أشبه ما يكون بالعناوين الرئيسية.

☑ **ثالثاً:** كثرة الفوائد التي فيه، وتتميز هذه الفوائد بالتحقيق الذي أشرنا إليه، وبيان رأيه في عدد من المسائل بعبارات مختصرة.

☑ **رابعاً:** أنه خصص الثلث الأخير من الكتاب تقريبًا لبيان الخصائص النَّبويَّة، والشمائل المصطفويَّة، وهذا الباب صِلته بالشمائل وصِلته بالسِّيرة ظاهرة؛ لكن أيضًا الفقهاء -رحمهم الله تعالى- يُدخلون بحث الخصائص هنا في الدرس الفقهي؛ لأنه يترتب عليه أحكام فقهيَّة.

✔ فمثلًا: في الطَّهارة العلماء الذين تكلموا في الخصائص، النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- لما رأته عائشة قام مرة بعد أن كان نائمًا، فاستغربت أنه لم يتوضأ، قال: **«يا عائشة، إنه تنام عيناي ولا ينام قلبي»**، وأيضًا في رواية عنده أنه خاطب أم سلمة. إذن من خصائصه أنه لا يجب عليه الوضوء من النوم.

✔ مثال: في مثلًا الصَّلاة، قال النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- كما في الصحيح: **«إني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي»**، وفي كتاب النكاح مثلًا اختص -عليه الصَّلاة والسَّلام- بعدد من المزايا، فهو يحق له أن يتزوج أكثر من أربع، ولا يحل لأحد أن يتزوج نساءه من بعده.

- المؤلف -رحمه الله- كعادته -أو كعادة غيره من المصنفين- يبدأ بالحمد لله، والصَّلاة على النَّبيِّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- ثم يشير إلى أهمية السِّيرة النَّبويَّة، وأهمية معرفتها لطالب العلم، وقد بيَّن أن سبب تأليفه أنه أحب أن يُعلِّق على السِّيرة النَّبويَّة، وقال: **"إنه لا يجمل بأولي العلم إهمال معرفة الأيام النَّبويَّة، والتَّواريخ الإسلاميَّة، وهي مشتملة على علوم جمَّة، وفوائد مهمَّة، لا يستغنِ عنها عالم، ولا يُعذر في العروِّ منها -يعني أن يكون خاليًا منها- وقد أحببت أن أعلق تذكرة في ذلك، لتكون مدخلًا إليه -مدخلًا إلى الأيام النَّبويَّة- ونموذجًا وعونًا له عليه".**
- ثم سرد -رحمه الله- النسب الشريف، والعلماء -رحمهم الله- يعتنون بذكر النسب، لأن الله -عز وجل- اقتضت حكمته أن يكون الأنبياء الذين يُبعثون في أقوامهم في أعلى درجات النسب في أقوامهم، وهذا له حكمة، فإن النفوس جُبلت على تقدير من كانوا عِليَة في أقوامهم، بينما لو كانوا مثلًا من السوقة من الناس، أو من الناس الذين ليس لهم نسب معروف، لربما أول ما يُبدأ فيه بالطعن بالرسالة، يقولون: أصلًا من أنت؟! ثم يبدأ الذين هم أفضل منه في النسب يعارضونه ويقولون: من أنت؟! ونحن نعرف تاريخ أسرتك وهكذا.
- فإذا كان الأنبياء بُعثوا في أقوامهم، في أشرف الأنساب في أقوامهم، قُطع الطريق من هذه الجهة، فيبدأ الحجاج العلمي والعقلي في قبول الرسالة، حتى لا ينشغل الناس بأمور جاهلية، ولهذا مثلًا قريش لما بُعث النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- فيهم ما أحد تكلم في نسبه، وهو من أصولهم، وقد قام النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- كما في حديث واثلة بن الأصقع في صحيح مسلم: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»** -صلوات الله وسلامه عليه- فهو انتقل من اصطفاء إلى اصطفاء.

قال -رحمه الله-: "هو سيد ولد آدم، أبو القاسم محمد، وأحمد".

- وهذه ثبت اسمه في سورة الصف، ﴿يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6].

قال: **"والماحي، الذي يُمحى به الكفر، والحاشر الذي يحشر الناس، والعاقب الذي ليس بعده نبي، والمقفي، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة".**

هذه أسماء له صلوات الله وسلامه عليه، أخبر بها عن نفسه.

إذن ما ذكر أولًا كلها أسماء، والشئ إذا عظم وشرف كثرت أسماؤه، ولهذا مثلًا تجد السيف لما كان آلة من أهم الآلات عند العرب، كانت له أسماء كثيرة، السيف، والمهند، والحسام، واليماني إلى غيرها. الأسد نظرًا لكونه أقوى الحيوانات، له عدة أسماء، يقولون أنها بلغت مائة، وهكذا الإنسان الشريف تجد له عدة ألقاب وأسماء.

- قال: **"ابن عبد الله، وهو أخو الحارث، والزبير، وحمزة والعباس، ويُكنى أبا الفضل -أبا الفضل كنية أبا العباس- وأبي طالب -يعني أخ لأبي طالب- واسمه عبد مناف، وأبي لهب -يعني هو أخو أبو لهب الذي نزلت فيه السورة المشهورة- واسمه عبد العزى -اسم أبي لهب- وعبد الكعبة، وهو المقوم، وقيل: هما اثنان، وحجل، واسمه المغيرة، وغيداق".** ثم سرد إخوانه، صلوات الله وسلامه عليه.

- ثم ذكر بعد هذا: "وصفية وعاتكة -هذه أخواته من النساء- وأروى، وأميمة، وبرة، وأم حكيم، وهي البيضاء، هؤلاء كلهم أولاد عبد المطلب، ولم يؤمن به من أعمامه به إلا العباس وحمزة". أما البقية فمنهم من مات قبل أن يُدرك النبوة، وهم الأكثر، ومنهم من أدركها ولم يؤمن، وعلى رأسهم أبو لهب وأبو طالب.
- هؤلاء كلهم أولاده، ثم بدأ يسرد أسماء وألقاب النَّسبِ الشريف، فبدأ بعبد المطلب، قال: "عبد المطلب، واسمه شيبة الحمد"، إذن عبد المطلب هذا صار اسمًا أو لقب؟ لقب.
- على كل حال قال: "اسمه شيبة الحمد، على الصحيح، ابن هاشم وهو أخو المطلب، وإليهما نسب ذوي القربى".
- ماذا يقصد ابن كثير إليهما نسب ذوي القربى؟ يقصد في باب الزكاة، أو في باب قسمة الأنفال، ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ [الأنفال: 41].

يقول ابن كثير هنا: "إن ذوي القربى يلتقون عند هاشم، فكل من انتسب إلى هاشم فهو من ذوي القربى، ومَن فوق هاشم، من بني نوفل، أو عبد شمس، أو غيرهم، فإنهم لا يدخلون في ذوي القربى".

وهذا له بحث آخر في الزكاة، مَن هو الذي يحرم عليه من آل البيت أخذ الزكاة؟ هم الذين ينتسبون إلى بني هاشم.

- قال: "ابن هشام وهو أخو المطلب، وإليهما -أي إلى عبد المطلب- وإلى هاشم يُنسب ذوي القربى، وعبد شمس ونوفل، أربعتهم أبناء عبد مناف، أخي عبد العزى، وعبد الدار، وعبدٍ، أبناء قصي -واسمه زيد- وهو أخو زهرة ابنا كلاب، أخي تيم، ويقظة أبي مخزون، ثلاثتهم أبناء مرة، أخي عدي، وهصيص أيضًا، وهم أبناء كعب، أخي عامر، وسامة، وخزيمة، وسعد، والحارث، وعوف، كل هؤلاء السبعة أبناء لؤي أخي تيم".
- ثم قال: "تيم الأدرم ابني غالب أخي الحارث، ومحارب بني فهر أخي الحارث، ابني مالك، أخي الصلت، ومخلد بني النضر أخي مالك، وملكان، وعبد مناة، وغيرهم بني كنانة، أسد وأسدة والهون، بني خزيمة، أخي هذيل ابن مدركة".
- ثم سرد إخوانه، ابن إلياس، ثم سرد إخوانه، ابن مضر، ثم سرد إخوانه، ابن نزار، بن معد، بن عدنان.

فلو أردنا أن نسرد النسب الشريف، لقلنا: هو محمد بن عبد الله بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر.

فهر هذا هو الذي عليه اللقب المشهور قريش، كما سيذكره المؤلف بعد قليل، فكل قبائل قريش تلتقي عند فهر هذا، ابن مالك، ابن النضر، ابن كنانة، ابن خزيمة، ابن مدركة، ابن إلياس بن مضر، ابن نزار، ابن معد، ابن عدنان.

- يقول ابن كثير -رحمه الله: "فجميع قبائل العرب ينتسبون إلى مَن ذكرت من أبناء عدنان، وقد بيَّن ذلك الحافظ أبو عمر النمري في كتاب الإنباه بمعرفة قبائل الرواة بيانًا شافيًا".
- ثم قال -هذا الشاهد: "وقريش على قول أكثر أهل النسب هم الذين ينتسبون إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وأنشدوا في ذلك البيت المشهور...".

- ثم ذكر استطرادًا: "إلى أين يلتقي الناس عند قريش".

ولكن أشهر الأقوال هو الذي ذكره أولًا، وهو أن قريشًا عند أكثر أهل النسب ينتسبون إلى فهر.

هذه المعلومة التي أود من الإخوة أن يستحضروها، أما باقي الخلافات تجاوزوها.

- ثم قال -رحمه الله- بعد هذا: "فصل في ذكر نسبه -صلى الله عليه وسلم-. بعد عدنان".
- العلماء كابن حزم وغيره يحكون الإجماع على أن نسبه إلى عدنان متفق عليه، الذي ذكره ابن كثير هذا مُجمع عليه لا خلاف فيه، لكن يقع الخلاف بين أهل السِّيَر فيمن بعد عدنان، وأيضًا هذا من المباحث التي لا ينبغي أن ننشغل بها كثيرًا، ولهذا ابن كثير قال: "فهذا النسب الذي سقناه إلى عدنان، لا مرية فيه ولا نزاع، وهو ثابت بالتواتر والإجماع، وإنما الشأن فيما بعد ذلك، ولكن لا خلاف بين أهل النسب وغيرهم من علماء أهل الكتاب، أن عدنان من ولد إسماعيل"، هذه المعلومة التي انتقل إليها ابن كثير، ولذلك ما انشغل ابن كثير في ما بعد عدنان؛ لأنه لا أثر له يُذكر.
- إذن المعلومة التي نقلنا إليها ابن كثير ما هي؟ أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله، قال: وهو الذبيح على الصحيح من قول الصحابة والأئمة.
- لماذا قال: وهو الصحيح؟

لأن العلماء مختلفون من الذبيح، هل هو إسماعيل -عليه الصَّلاة والسَّلام- أم هو إسحاق -عليه الصَّلاة والسَّلام- وأكثر الصحابة كما ذكر ابن تيمية، وابن القيم في أول زاد المعاد، وها هو ابن كثير يذكره، بل قطع به ابن حزم، وقال: "ولا شك في هذا أنه هو الذبيح، بدليل قوله -تبارك وتعالى- في سورة الصافات، لما جاءت قصة الذبح ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 103] إلى آخره، قال الله -عز وجل- بعدها: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 112]، فالبشارة هذه جاءت بعد قصة الذبيح، مما يدل على أن قصة إسماعيل متقدمة.

- ثم قال: "وقد اختلف في كم أب بينهما، على أقوال"، يعني كم بين النَّبيِّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- وبين إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليه الصَّلاة والسَّلام.

يقول: فأكثر ما قيل أربعون، وأقل ما قيل سبعة آباء، وقيل وقيل وقيل، ثم اختلف في أسمائهم، ثم استطرد في هذا كثيرًا، وهذا من الأمثلة التي نمثِّل بها على أنها من المسائل التي لا يضر طالب العلم ألا يحررها تمامًا؛ لأنه لا أثر لها في ما يتعلق بالسُّنَّة أو بالسِّيرة.

- الشاهد أن ابن كثير خلص بعد هذا السرد للخلاف، قال: "فجميع قبائل العرب مجتمعون معه في عدنان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23]".

نستفيد فائدة، أن جميع قبائل العرب التي كانت موجودة في الجزيرة العربية عند بعثته -عليه الصَّلاة والسَّلام- تجتمع معه في عدنان.

- ولهذا قال: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23]، أنا حينما أدعوكم إلى الله لا أطلب منكم أجرًا، ولا أطلب منكم أن تدفعوا مال، ولا شئ، فقط أنا أدعوكم وأقول لكم إني لكم نذير، إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

- قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "لم يكن بطن من قريش، إلا ولرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيهم قرابة"، وهذا صحيح، لكن القرابة درجات، كما هو معلوم، فكل ما نزل الجد، صارت القرابة أكثر.
- ثم قال -رحمه الله-: **"وهو صفوة الله منهم"**. أي من قريش، ثم ساق حديث واثلة بن الأصقع الذي ذكرته قبل قليل، **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»**.
- ثم نظَّر بمسألة أخرى، قال: **"وكذلك بنو إسرائيل أنبيائهم وغيرهم يجتمعون معهم في إبراهيم الخليل -عليه السَّلام-"**.
- إذن العرب يلتقون عند عدنان، وعدنان من ولد إسماعيل، وبنو إسرائيل أنبيائهم وغير أنبيائهم يلتقون عند إسرائيل الذي هو يعقوب -عليه السَّلام- إسحاق بن إبراهيم -عليه السَّلام.

إذن نستطيع أن نقول إن العرب وبنو إسرائيل يلتقون عند الخليل -عليه السَّلام- فهو أبو الأمتين جميعًا، وهذا ما يعبِّر عنه بعض الناس بـ (أبناء العم)، من هذه الجهة، بين العرب وبين الروم، وبنو إسرائيل الذين ينتسب إليهم كثير من النصارى المعاصرين.

- قال: إبراهيم الخليل الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهكذا أمر الله تعالى بني إسرائيل على لسان موسى -عليه السَّلام- وهو في التوراة، كما ذكره غير واحد من العلماء ممن جمع بشارات الأنبياء به -صلى الله عليه وسلم- أن الله قال لهم ما معناه: "سأقيم لكم من أولاد أخيكم -من هو أخوهم؟ إسماعيل- نبيًا كلكم يسمع له، وأجعله عظيمًا جدًّا".
- وسبحان الله انظر ماذا ابن كثير! قال: **"ولم يُولد من بني إسماعيل أعظم من محمد -صلى الله عليه وسلم- بل لم يولد من بني آدم أحد ولا يولد إلى قيام الساعة أعظم منه -صلى الله عليه وسلم- فقد صح عنه أنه قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم فمن دونه من الأنبياء تحت لوائي»، وصح عنه أنه قال: «سأقوم مقامًا يرغب إليَّ الخلق كلهم، حتى إبراهيم»"**.
- **ما هذا المقام ؟** المقام المحمود، الذي وعده الله، وهو الشفاعة العظمى، الذي يشفع في الخلائق كلهم ليريحهم الله بالفصل بينهم من مقام المحشر.
- والشاهد من أن الخلق إذا بلغ بهم الكرب المبلغ العظيم، جاءوا إلى آدم، يقولون: يا آدم، أنت أبونا، أبو البشر، اشفع لنا عند ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: نفسي نفسي، إني أكلت من شجرة نهيت عنها، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوح، فيقولون: يا نوح، أنت أول رسل الله لأهل الأرض، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إني قد دعوت دعوة لم أأمر بها، قال: اذهبوا إلى إبراهيم الخليل، -خليل الله، اصطفاه الله عز وجل وذكر شيئًا من مناقبه- ثم جاءوا إلى إبراهيم، فقال: إني كذبت ثلاث كذبات، وهن كلهن في ذات الله -عز وجل-، كما قال النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم.
- فيقول: اذهبوا إلى موسى، نبي كلَّمه الله ؛ يعني ابتداءً، يقصد أن أول ما نزل عليه الوحي ليس عن طريق جبريل كغيره من الأنبياء، بل الله كلمه مباشرة، وهذا معنى قولهم: إن موسى كليم الرحمن، وإلا الله كلم محمد -عليه الصَّلاة والسَّلام-، لكن لم يكلم الله نبينا -صلى الله عليه وسلم- إلا بعد أن نزل عليه الوحي عن

طريق جبريل، بخلاف موسى -هذه سبب تسميته كليم الرحمن- أنه هو النَّبيُّ الوحيد الذي ابتدأت نبوته بكلام الله له مباشرة، ثم بعد ذلك نزل جبريل، فهذه ميزته -عليه الصَّلاة والسَّلام.

- موسى يقول: إني قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فلا يذكر ذنبًا، لكنه يقول: نفسي نفسي، لكن اذهبوا إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- نبي ختم الله به الرسالات، وذكر شيئًا من مناقبه، قال: فآتي فأسجد تحت العرش، فأدعو الله -عز وجل- بمحامد لا أحصيها الآن -يعني لا أعبر عنها الآن لا أعرفها- الله يفتحها علي في ذلك المقام من الثناء على الله -جل وعلا-، ثم يُقال له: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع.
- فيأذن الله -عز وجل- بحساب الخلق، وينقسمون بعد ذلك فريق في الجنة وفريق في السعير، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يكون مآلهم إلى جنات النعيم.
- انتقل بعد ذلك المؤلف -رحمه الله- فقال: **"فصل، وهذا الفصل في ولادته ورضاعته، ونشأته صلوات الله وسلامه عليه".**
- سرد ابن كثير الأقوال في وقت ولاته صلى الله عليه وسلم وهنا في ولادته مواضع اتفاق واختلاف، فسأذكر مواضع الاتفاق، ثم أذكر مواضع الاختلاف.
- **فحصل الاتفاق في ثلاث نقاط:**

❖ **أولًا:** اتفق العلماء على أنه وُلِد عام الفيل.

❖ **ثانياً:** اتفق العلماء على أنه ولد يوم الاثنين، وهذا أخبر عنه -صلى الله عليه وسلم- بنفسه، قال لما سئل لماذا تصوم يوم الاثنين؟ قال: **«ذاك يوم ولدت فيه».**

❖ **ثالثًا:** أنه -صلى الله عليه وسلم- ولد في ربيع الأول، وهذا الموضع الثالث حُكي فيه الاتفاق، وحُكي فيه الاختلاف، لكن الخلاف فيه شاذ -وهو أنه ولد في غير ربيع الأول- هذا يكاد يكون شاذًا، ولهذا خليفة بن خياط وغيره من العلماء حكوا الاتفاق على ما ذكرت، أنه ولد أولًا عام الفيل، ويوم الاثنين، هذا ثابت في الصحيح، وكذلك ربيع الأول، هذه مواضع الاتفاق.

- **ما هي مواضع الاختلاف في ولادته؟**

يقول: **"قيل ولد -صلى الله عليه وسلم- يوم الاثنين لليلتين، هذا قول، يعني ولد في الليلة الثانية، وقيل: في ثمانية ربيع، وقيل في عشرة ربيع، وقيل اثنتي عشرة منه، قال الزبير بن بكار: ولد في رمضان، وهو شاذ، هذا الذي قلت لكم قبل قليل، شاذ، والصواب أنه ولد في ربيع الأول".**

- **ما هو أقرب الأقوال؟**

أقرب الأقوال أنه ولد ما بين التاسع إلى الثاني عشر من ربيع الأول، أما الجزم والقطع أنه يوم اثنا عشر ربيع، فهذا لا يسنده الدليل، بل هو إلى التاسع أقرب.

- لو قال قائل: هب أننا تأكدنا أن ولادته في يوم اثنا عشر، أو يوم تسعة، هل يدل هذا على صحة ما يفعله الذين يحتفلون بالمولد؟

الجواب: لا، هذا لا علاقة له بالتاريخ، لكن نحن نقول: إن من المؤاخذات العلمية على الذين يحتفلون بالمولد، أنهم استندوا على شئ غير مقطوع به وغير مجزوم به.

- ثم انتقل -رحمه الله- إلى معلومة أخرى تتعلق بنشأته -صلوات ربي وسلامه عليه- قال: **"مات أبوه وهو حَمل، وقيل بعد ولاته بأشهر، وقيل بسنة، وقيل بسنتين، قال: والمشهور الأول".**
- ما هو الأول؟ أنه مات وأمه حامل به، الله -عز وجل- قال له في كتابه: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ**﴾ [الضحى: 6]، ما الحكمة من نشأة نبينا -صلى الله عليه وسلم- على اليتم؟ مع أن الطفل الصغير في حاجة في أوائل حياته إلى من يكون له عضد وسند إلى آخره، فنقول: الله تعالى لا يقدِّر شيئًا إلا لحكمة، وفيما يتعلق بهؤلاء الأنبياء الذين اصطفاهم الله -عز وجل- منذ أن كانوا نُطَفًا؛ لأن الله يقول في أواخر سورة الحج: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج: 75]، فما الحكمة؟
- لذلك حِكَم، **لكن نشير إلى نقطتين أساسيتين:**
  - ❑ **الأولى:** حتى لا يتوهم أحد، أو يظن ظان، أن هذا الرجل يدعو إلى مجد لأبيه الذي أدركه، أو رباه، أو له نعمة عليه.
  - ❑ **الثانية:** حتى لا يؤثر أبوه عليه، أي حتى لا يُحرج النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- مما قد يقع من مصادمات بينه وبين أبيه، كما وقع بين إبراهيم وأبيه، فماذا سيقولون الناس؟ يقولون: هذا نبي خالف أباه، وهم قد سفهاء قريش ماذا قالوا؟ قالوا: جاء هذا النَّبيُّ فسفَّه آلهتنا، وفرَّق بين أقاربنا. طيب؛ لو كان أبوه حيًّا وخالف أباه، قالوا: لو كان فيه خير لأطاع أباه، ولصار على دين أبيه، أليس كذلك؟ فكان من الحكم أن يكون يتيمًا -عليه الصَّلاة والسَّلام.
  - ❑ **الثالثة:** أن يكون -صلى الله عليه وسلم- قدوة وسَلوة لكل يتيم مسلم في العالم، لنقول: إن العبرة ليست بنقص البدايات وإنما بكمال النهايات، كل يتيم يراني يسمع كلامي، أو يتيمة لا تحزن ولا تقلق، رسولك -صلى الله عليه وسلم- الرجل الأول في العالم، بل في التاريخ، كان يتيمًا، فما ضره ذلك.
- **متى يكون اليتيم متضررًا؟** إذا نُزِع عنه إيواء الله له، ولهذا الله تعالى امتن على نبيه فقال: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ**﴾ [الضحى: 6]، إذا آواك الله وليطردك كل الخلق لا تخاف، وإذا طردك الله من رحمته -نعوذ بالله من ذلك- فإنه والله لو آواه كل الخلق، فلا خير فيه، ولهذا تجد من الأيتام -وهذا شئ رأيناه في الواقع- من نشأ نشأة صالحة، ويكون بارًا بأبيه الذي لم يره، بالدعاء له، والتصدق عنه، والسِّيرة الحسنة، إلى غير ذلك، ويكون بارًا بأمه التي ربته مثلًا، ونجد أناس منعمين بين آباء وأمهات وخدم وحشم وأموال، فيخرجون سيئ الأخلاق.
- ثم انتقل -رحمه الله تعالى- إلى مسألة أخرى، تتعلق بنشأته فقال: **"واسترضع له في بني سعد، فأرضعته حليمة السعدية، كما روينا ذلك بإسناد صحيح، وأقام عندها في بني سعد نحوا من أربع سنين، وشُقَّ عن فؤاده هناك، فردته إلى أمه، فخرجت به أمه إلى المدينة تزور أخواله، فتوفيت بالأبواء، وهي راجعة إلى مكة، وله من العمر ست سنين، وثلاثة أشهر، وعشرة أيام، وقيل بل أربع، وقد روى مسلم في صحيحه، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما مرَّ بالأبواء وهو ذاهب إلى مكة عام الفتح استأذن ربه في زيارة قبر أمه، فأذن له، فبكى وأبكى من حوله، وكان معه ألف مقنَّع يعني بالحديد".**

- **من الحكم في الاسترضاع في البادية**
  - ✓ أولًا: قوة اللغة، وتنوع المفردات، صحيح أنَّ النَّبيَّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- عربي فصيح، وهو أفصح من تكلم، وهو في بيئة عربية فصيحة، لكن ينتقل من بيئة إلى بيئة، فيجمع محاسن القبائل، من جهة اللغة.
  - ✓ ثانيًا: بالتجربة، وهذا على مدار التاريخ، ويقرره علماء الاجتماع، أن أجواء البوادي أنفع من أجواء المدن، خصوصًا في الزمن السابق ، أما الآن على الأقل في بلادنا مثلًا البوادي كالمدن تقريبًا، المدن الصغيرة والبوادي متقاربة مع البنيان والسيارات وشئ من هذا القبيل، لكن سابقًا كان الهواء أطيب، والمرعى، والأكل، لم يكن مختلطًا بأي شئ من الأشياء المؤثرة.
  - ✓ ثالثًا: من الحكم -والله تعالى أعلم- أن يتدرب الطفل في صغره على الاعتماد على نفسه، بخلاف من يكون في المدن، في الغالب أنه يُخدم بإماء، يُخدم بجواري، يُخدم بخدم، وشئ من هذا القبيل، خاصة إذا كان من قوم ذوي مال وجاه، كما هو حال قريش، وأسرة النَّبيِّ -عليه الصَّلاة والسَّلام.
  - ✓ رابعًا: يستفيدون استقامة اللسان، والسَّلامة من اللحن، الذي قد يتأثر به بعض العرب من احتكاكهم بالأعاجم، فإنكم تعرفون أن قريشًا لها رحلتان في العام، رحلة الشتاء والصيف، وهذا يترتب عليه خصوصًا في الشام اللقاء بالروم، هذا التلاقي بلا شك أنه سيؤثر بعض الشئ، على الثقافة، على اللغة ونحو ذلك، وإن كان العرب بالمناسبة كما قرر ذلك العلامة ابن عاشور في كتابه "أليس الصبح بقريب"، كانوا من أحرص الناس على صيانة ألسنة أولادهم، قد يتأثرون ببعض الثقافات صحيح، لكن في مقام اللسان لا، يكونون صارمين في هذا الباب، ولهذا اللحن لم يطرأ في الأمة، إلا بعد دخول غير العرب في الإسلام.
- النقطة الثانية في ما يتعلق ببقائه هناك: هو قرابة أربع سنوات بقي، قال: فخرجت به أمه إلى المدينة، تزور أخواله هناك، أخواله من هم؟ بنو زهرة، وبنو زهرة من قريش، ولهذا في حديثه لسعد بن أبي وقاص، وهو من بني زهرة، كان يقول: **"يا خال رسول الله"**، وهذه على عادة العرب في ندائهم من كان من أسرة أمهم، أن يقول: هذا خالي، وإن لم يكن أخًا لأمه مباشرة، لكن باعتبار التقاء النسبة بين الأم وبين هذا الرجل.
- يقول: **"ومرَّ بالأبواء"**؛ ثم ذكر رواية مسلم.
- أود أن أنبيه فقط الإخوة والأخوات الذين يتابعوننا، أن الحديث في صحيح مسلم توقف عند قوله: **"استأذن ربه في زيارة قبر أمه فأذن له "**، فقط أما زيادة **"فبكى وأبكى من حوله، وكان معه ألف مقنَّع"** ، فهذه ليست في صحيح مسلم.
- وفي زيارته -صلى الله عليه وسلم- لقبر أمه ، دليل على عظمة هذا الدين، ما وجه العظمة؟ الذي في صحيح مسلم **"استأذن ربه أن يزور أمه فأذن، واستأذنه في أن يستغفر لها فلم يأذن له"**؛ لأنها ماتت على غير الإسلام، لاحظ العظمة في هذا الدين، ما هي العظمة؟
- الشرع لا يصادم الفِطر، هذه أمه، ولو كانت حية لأُمر ببرِّها ولو كانت مشركة، فالشرع لا ينهى عن زيارة قبر المشرك إذا كان قريبًا، لكن ينهى عن الاستغفار فقط. لماذا؟

- لأن الله قال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113]، وهذا من المعاني العظيمة التي في الحقيقة تدل على ملاقاة هذا الدين العظيم للفطرة، فالزيارة ليست ممنوعة ، لكن الدعاء ممنوع، لماذا؟ لأنك إذا دعوت بالرحمة، فقد اعتديت على حق الله -عز وجل- الذي قال: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: 72] إلى آخره، و ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ في الآية السابقة، وهذا معنى عظيم جدًّا.

والأبواء: هي قرية مازالت موجودة، ومعروفة بهذا الاسم على طريق المدينة، خصوصًا في الطريق القديم قبل الطريق السريع، هي أقرب إلى الطريق القديم.

- قال: "فلما ماتت أمه، حضنته أم أيمن، وهي مولاته". وهذا من التفسير العملي لقوله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: 6]، فهذا إذن من معاني قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾.
- يقول: "وهي مولاته، ورثها من أبيه". يعني هي في الأصل كانت عند عبد الله، تعرفون العبيد الذين يُباعون ويُشترون من جملة المال، فينتقل إرثه إلى الأولاد، فورثها من أبيه.
- يقول: "وكفله جده عبد المطلب". وهذا من أيضًا رعاية الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، أن يسَّر له حاضنة، فالطفل بحاجة في صغره إلى حنان، بحاجة إلى إرضاع وغير ذلك، لا يكفي فقط أن يُطعم ويُشرب، وهذا ينبغي أن ينتبه له من شرَّفهم الله -عز وجل- بكفالة الأيتام، أو من ابتلي من الأمهات بموت زوجها وولدها صغير، أن تنتبه لهذا؛ الولد له حاجة إلى الحنان وإلى الرحمة، وإلى الضَّم والتقبيل، والكلمة الطيبة، كما له حاجة في الطعام والشراب، فالطفل بشر بحاجة إلى أشياء حسية، وبحاجة إلى أشياء معنوية، وبهذا يتكامل نموه.
- قال: "وكفله، فلما بلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من العمر ثماني سنين، توفي جده". وهذا من البلاء بلا شك، إذ يتتابع عليه هذا العقد، أبوه، ثم أمه، ثم جده، فيكون هذا من البلاء، لكن كل هذا من صناعة الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- حتى يعتاد على المشاق والأهوال، ولهذا تجد الذين يتربون في محاضن مترفة، لا يريدون لولدهم أن تراه الشمس، ولا يضربه الهواء، يخرج مترفًا ناعمًا لا يمكن أن تُسند إليه أي عمل، ولهذا الترف لم يُذكر في القرآن إلا مذمومًا، ولا يصلح أن تُربى عليه الأجيال.
- ولهذا أقول للإخوة والأخوات من عندهم أبناء وبنات سواء كانوا أيتام أو غير أيتام: احذروا من التربية على الترف؛ لأنها تربية تؤثر سلبًا في المستقبل، فلا يستطيع الإنسان أن يتحمل المسئوليات، ولا يستطيع أن يقوم الإنسان أن يقوم بالأعباء التي تُنتظر من مثله.

ولهذا أقول: كان من صنع الله واختياره لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أن مر بهذه الشدائد بهذا التدرج.

- ثم قال: "وأوصى به -أي الجد عبد المطلب- إلى عمه أبي طالب، عم النَّبيِّ -عليه الصَّلاة والسَّلام-، لأنه كان شقيق عبد الله فكفله، وحاطه أتم حياطة، ونصره حين بعثه الله أعز نصر، مع أنه كان مستمرًا على الشرك إلى أن مات، فخفف الله بذلك من عذابه كما صح الحديث بذلك".
- وفي هذا المقطع فائدة وهي: توافق ما ذكره الله -عز وجل- في قصة شعيب ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: 91]، على القولين في الآية: شتمناك، أو رميناك بالحجارة. وهذا ذكره العلامة السعدي من فوائد قصة

شعيب أن الله -عز وجل- قد يهيئ للداعية الصالح المسلم قومًا ينصرونه ولو كانوا على غير منهجه، بل ولا على غير دينه، بسبب العصبة القبلية.

- إذن كما قال النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي في البخاري: **«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»**، وكذلك قد يؤيد بالرجل الكافر.
- لاحظوا النجاشي حينما آوى الصحابة كما سيأتينا في قصة الحبشة، نصرهم ودافع عنهم، ولم يكن حينها مسلمًا.
- إذن من الحكمة والعقل عند الداعية إلى الله -عز وجل- إذا كان في بيئة يغلب فيها الكفر، ألا يصادم ما استطاع وهو يستطيع أن يُبلّغ، فإن كان له أقارب ليسوا على دينه واستطاع أن يوظّفهم لخدمة الدعوة إلى الله -عز وجل- فليفعل.
- ثم قال: **"فخفف الله عنه بذلك"**. وأقول أيُّها الإخوة والأخوات، إذا كان الله -عز وجل- خفف عن أبي طالب العذاب لأنه دافع عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- ونصره، هل تظنون أن الله -عز وجل- يخذل مسلمًا دافع عن سنة النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أو نصرها؟!
- لا والله، حُسن الظن بالله -عز وجل- يقول: إن مثل هؤلاء منصورون، وسيدافع الله عنهم، فإذا كان أبو طالب يحامي وهو كافر، عصبة أو عصبية فما الظن بعالم، أو داعية، أو مسلم، يدافع عن السُّنَّة، ويحامي عن السُّنَّة، وينشر السُّنَّة! لا يخذله الله، هذا سيخفف الله عنه، ويُرجى أن يكون في الدرجات العالية من الجنة.
- ثم انتقل المؤلف -رحمه الله- إلى مسألة وقصة مشهورة، وهي قوله: **"فخرج به عمه إلى الشام في تجارة، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وذلك من تمام لطفه به -أي لطف العم، لأنه يريد أن يعوده على أمور الرجال وتحمل المشاق ونحو ذلك، لعدم من يقوم به إذا تركه بمكة، لأنه صغير مازال- فرأى هو وأصحابه -أي العم- ممن خرج معه إلى الشام من الآيات فيه -صلى الله عليه وسلم- ما زاد عمه في الوصاية به، والحرص عليه -يعني تنبأ له بمستقبل زاهر وعظيم- كما رواه الترمذي في جامعه بإسناد رجاله كلهم ثقات، من تظليل الغمامة له -يعني كان فوقه غمامة تظله من الشمس الحارة- وميل الشجرة عليه بظلها -لما جلسوا في ظل شجرة- وتبشير بحيرة الراهب به، بحيرة هذا ويقال جرجيس، أمره لعمه بالرجوع به لئلا يراه اليهود، فيرمونه بسوء".**
- قال ابن كثير، عن القصة؟ المؤرخون والكتاب في السير بين طرفي نقيض، بعضهم يقول: قصة بحيرة كلها منكرة ولا تصح أصلًا، وبعضهم يثبتها برُمتها، والوسط هو ما اختاره الحافظ ابن كثير، حيث قال:
- "هنا عبارة دقيقة: والحديث له أصل محفوظ، وفيه زيادات أُخر"، يعني يقول لك ابن كثير: أصل القصة ثابت، وهو ذهابه -صلى الله عليه وسلم- إلى الشام، لكن فيها زيادات أنه لقي أبا بكر وكان معه بلال، كل هذه لا أصل لها، وأنكرها الذهبي -رحمه الله- وغيره من أهل العلم، وهذا نموذج من نماذج تحقيقات الحافظ ابن كثير في هذا الكتاب -رحمه الله-، بهذه العبارة المختصرة.
- ثم ذكر خروجه مرة ثانية إلى الشام في التجارة، ليضارب بمال لخديجة، ثم بعد تزوجته -رضوان الله تعالى عليها.

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كان الحديث قد توقف بنا عند سفره -عليه الصلاة والسلام- إلى الشام مع عمه أبي طالب، حينما كفله بعد وفاة جده عبد المطلب، وتوقف الحديث بنا عند قول المصنف -رحمه الله تعالى-: وكان الله -عزَّ وجلَّ- قد صانه وحماه من صغره وطهره من دنس الجاهلية.

ثم قال -رحمه الله-: ومنحه كل خلقٍ جميلٍ، حتى لم يكن يُعرف بين قومه إلا بالأمين، لما شاهدوا من طهارته، وصدق حديثه وأمانته، حتى لما بنت قريش الكعبة في سنة خمسٍ وثلاثين من عمره، فوصلوا إلى موضع الحجر الأسود، اشتجروا في من يضع الحجر موضعه، فقالت كل قبيلةٍ نحن نضعه، ثم اتفقوا على أن يضعه أول داخلٍ عليهم، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، إلى آخر الحديث، حينما قالوا: جاء الأمين، جاء الأمين.

- **وهذه القطعة من السيرة، التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، فيها فوائد، وهي:**

☑ **أولًا:** أن الله -عزَّ وجلَّ- إذا أراد بعبدٍ خيرًا، هيأه منذ صغره، وما يتعلق بالنبوة، جانب اصطفاءٍ محضٍ، لا تدخل فيه مسألة الاجتهاد، مثل ما يقول ابن الجوزي -رحمه الله- معبرًا عن علو همته، يقول: والله لو أن النبوة تُدرك بالمجاهدة، لجاهدتُ نفسي حتى أكون نبيًّا، لكنها لا تُدرك بالمجاهدة.

لكن نحن نتحدث هنا عن جانبين.

- الجانب الأول: تهيئة الله -عزَّ وجلَّ-، كما قال الله في مِنته لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: 39]، فكل الأنبياء اصطفاهم الله -عزَّ وجلَّ-، وجعلهم مِن أشرف الأنساب، وحماهم في صغرهم مما يدنِّس سيرتهم، وهذا هو الموضع الثاني الذي أود أن أتوقف معه من هذه القطعة، وهي: أن الإنسان الموفق الذي عنده هدفٌ بعيدٌ في حياته، يريد أن يكون شخصًا مؤثرًا في الأمة، داعيةً، عالمًا، إنسانًا له موطئ قدمٍ في هذه الأمة، يريد أن يكون له بصمةٌ كما يقال، ينبغي أن ينتبه وأن يحافظ على سيرته في أول حياته، وهذا ليس تقنيطًا ولا تيئيسًا من أولئك الذين مروا بمرحلةٍ من الضياع أو الضلال، ثم هداهم الله، لا، هذه ليست تيئيسًا، ولكن أقول: من توفيق الله لعبده، أنك تراه مهيأً في أول أمره، فاجتنب الأمور التي تشين عرضه، يجتنب الأمور التي لا تليق بالإنسان الذي يحمل هم ونحو ذلك.

☑ **ثانياً:** وهذه فيها رسالةٌ للمربين، من الآباء والأمهات، احرصوا على ألا يلحق أبناءكم وبناتكم شيءٌ يدنس أعراضهم، ويدنس سيرتهم، فإن هذا ستكون ضريبته بعدٌ صعبةً، وقد يأتي الشيطان من هذا المدخل، فيقول: أنت ماذا تصنع؟ أنت تريد أن تكون مؤثرًا؟ ماذا تصنع بتاريخك السابق وقد فعلتَ وفعلتَ وفعلتَ؟ ومع هذا نقول: قد كان بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ممن سجد للصنم، وممن شرب الخمر، وممن وقع في بعض الموبقات في الجاهلية، فلم يمنعهم ذلك أن يُسلموا، ويؤثروا، لكننا نتحدث نحن في الجملة، في الإطار العام، أن يجتهد الإنسان قدر الإمكان في صيانة نفسه، وسؤال الله -عزَّ وجلَّ- التوفيق والهداية.

☑ **ثالثاً:** انظروا إلى أثر السيرة الحسنة للإنسان على سمعته وتأثيره في الآخرين، وإن كانوا مخالفين، يعني هؤلاء قريش، يعرفون أنه شابٌّ نشأ بعيدًا عن الخنى، بعيدًا عن الفجور، بعيدًا عن الزور، بعيدًا عن الكذب، عن كل ما يدنِّس عرضه، فلما جاء اتفقوا جميعًا على أنه الأمين، مع أنه لم يكن أسنهم، ولم يكن أكبر القوم، ولم يكن أغناهم، بل فيه في ذلك الوقت ممن هو في طبقة آبائه، وأعمامه، ومع ذلك صارت سيرته أقوى تأثيرًا من تأثير السن، وكان سببًا في جمع الكلمة.

ثم قال -رحمه الله-: فصل، ولما أراد الله تعالى رحمة العباد، وكرامته بإرساله إلى العالمين، حبب إليه الخلاء، فكان يتحنث في غراء حراء، كما يصنع ذلك متعبدوا ذلك الزمان، كما قال أبو طالب في قصدته المشهورة اللامية:

وثور ومن أرسى ثبيرًا مكانه ... وراق لبرٍ في حراءٍ ونازلِ

ففاجئه الحق وهو بغار حراء في رمضان، وله من العمر أربعون سنةً.

- **هذه القطعة فيها فائدتان:**

❑ **الأولى:** أن الإنسان الداعية الذي يريد أن يهيئ نفسه إلى الدعوة، يجب عليه أن يكون له رصيدٌ من العبادة، وهذا ما نستطيع أن نسميه بالسياج الرباني للداعية.

- ما لم يكن أيها الإخوة والأخوات عند الداعية إلى الله -عزَّ وجلَّ- والعالم وطالب العلم نصيبٌ من التعبد، سينقطع في وسط الطريق ويتعب، لماذا؟ لأن العبادة التي بين العبد وبين ربه -عزَّ وجلَّ-، بمثابة الوقود، البنزين، الذي تعبى به السيارة، لا تقل إني شابٌّ، ونشيطٌ، وأقدر أدعو إلى الله، وأفعل وأفعل، لا، ليست قوة الدعوة بقوة البدن فقط، لا، قوة الدعوة تجمع بين قوة القلب، وقوة البدن.

- إذن ثمرة العلم أن يكون عندك نصيبٌ من التعبد ، في أول البعثة قال الله لنبيه -عليه الصلاة والسلام-: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: 1، 2]، إذن أكثر الليل يُقام، وهكذا كان -عليه الصلاة والسلام- يقوم ليلًا طويلًا ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل: 2، 3]، يعني السدسين، وهو الثلث، ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4]، لم كل هذه الأوامر؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5]، هذا القول الثقيل، وهو القرآن والوحي، وأمانة الرسالة، وتبليغ الدعوة، لا يمكن أن يستطيع الإنسان أن يستمر في حمله، ما لم يكن له رصيدٌ من الصلة بالله -عزَّ وجلَّ-، في الليل، في التعبد بالصيام، بالقرآن، المهم يكون لك نصيبٌ من التعبد، وأشرف هذه العبادات عبادات الخفاء، وأشرفها نوافل الصلاة.

وأشرف نوافل الصلاة قيام الليل، وهذا شيءٌ معروفٌ ومقررٌ، بل الله -عزَّ وجلَّ- لما ذكر أهل العلم قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113].

❑ **الثانية:** هو دأب الصالحين من قبلنا، فليكن لنا يا معشر الإخوة والأخوات، ومن يريد أن يسلك طريق الدعوة، لنا نصيبٌ، ولو قلَّ، نعود أنفسنا، إذا لم ننشط للعبادة ونحن شبابٌ، ولو نشاطًا يسيرًا، متى ننشط لها؟ إلى أصبحت الرُّكب لا تحملنا؟ أو ثقلت أجسامنا؟ أو داهمتنا الأمراض؟ لا، لابد أن يكون لنا نصيبٌ، ونعود أنفسنا حتى إذا ما واجهتنا مصاعب الحياة، ومصاعب الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، وإذا معنا رصيدٌ وزادٌ رباني.

- انظروا إلى كبار علمائنا الذين أدركناهم، بل أقول: لا أعلم أحدًا من أئمة الإسلام، منذ عهد الصحابة إلى يومنا هذا، إمامٌ له تأثيرٌ في الأمة، إلا وله نصيبٌ في العبادة، وحينما نقول العبادة، لا نحصرها في قيام الليل، ولكنه أشرف العبادات، تجد له نصيبٌ من القرآن، نصيبٌ من الصلاة، نصيبٌ من قيام الليل، نصيبٌ من الصيام، ولو قلَّ، يعود نفسه شيئًا فشيئًا؛ لأنه بهذه التربية، يخرج إلى ميدان الحياة، وهو واثق الخطوة، وعظيم الثقة بالله -عزَّ وجلَّ-، وبتسديده؛ لأن من خلا بالله، وسأله بصدق التوفيق والسداد، فإن الله تعالى لا يخذله إذا نزل إلى الميدان، الميدان يحتاج إلى صبرٍ ومصابرةٍ، ولهذا ماذا يقول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 5، 6].
- إذن هذا القول الثقيل لا تستطيع أن تحمله إلا بقوةٍ مضاعفةٍ، هذه القوة ليست قوة البدن أيها الإخوة، إنما هي قوة القلب، ولهذا ستفهم بعد هذا جيدًا سبب الصبر، والتحمل العظيم، الذي وفق الله له الصحابة -رضي الله عنهم- وهم يواجهون أصناف العذاب، ما الذي يجعل بلال الذي جاء من الحبشة، وكان عبدًا يُباع ويُشترى، يجرجر على صخور مكة الحارة، فيُقال له: اترك دينك، فلا يجيب إلا بهذه الكلمة: أحدٌ، أحدٌ، ما الذي جعله يصبر؟ قيل في ما بعد: ما الذي جعلك تصبر على هذه الحرارة والصخور؟ قال: "مزجتُ مرارة الألم، بلذة الإيمان، فغلبتْ لذة الإيمان على مرارة الألم"، لكن هؤلاء الصحب يا إخوة، ربُّوا بالعبادة، ولهذا يقول العلماء: إن الله أنزل صدر سورة المزمل، الوجه كاملًا، وأبقى آخره سنةً كاملةً في السماء، كما في صحيح مسلم، ووجب قيام الليل سنةً كاملةً على الصحابة، ليتربوا على العبادة، ثم بعد سنةٍ، نُسخ وجوب قيام الليل على الصحابة، وبقي في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- واجبًا، ليتربى الجيل الأول على العبادة، ولهذا بعض الدعاة، أو بعض الناس تجد يسير في الدعوة سنةً سنتين، وثلاثًا، أربعةً، خمسًا، ثم يقف، وأشد من هذا -نسأل الله العافية- أن ينحرف يمينًا ويسارًا، هذا له أسبابٌ، منها لو فتشتَ، -ونحن لا نتهم أحدًا بعينه-، لوجدت أن هناك ضعف صلةٍ بالله -عزَّ وجلَّ- حال المسير، والإنسان ترى والله لو كان أعلم الناس، وأذكاهم، وأحفظهم، لا غنى له طرفة عينٍ عن توفيق الله -عزَّ وجلَّ-، ولهذا كان في الحديث: «ولا تكلْني إلى نفسي طرفة عينٍ».

قال: ففاجأه الحق وهو بغار حراء في رمضان، وله من العمر أربعون سنةً.

إذن نُبِّئ وعمره أربعون، وفي رمضان، ما الذي جعل ابن كثير يجزم أنه في رمضان؟

{الآيات التي وردت في هذا ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185]}.

- فهذا بالإجماع أن القرآن نزل في رمضان، ولا إشكال في ذلك، وهذا من بركة هذا القرآن، وكان رمضان تشرف بنزول القرآن فيه، هذه واحدةٌ، والثانية فيها أيضًا نقطة تتعلق بنزول الوحي عليه، وعمره أربعون سنةً، وكان قبل ذلك -عليه الصلاة والسلام- قد صنعه الله ورباه، مرت به شدائد، رعى الغنم، سافر في التجارة، خالط الناس، عرف صغارهم وكبارهم، عرف مداخلهم ومخارجهم، ثم لما تهيأ تحمل الرسالة تقدَّم.
- وهذا فيه درسٌ آخر للذين يستعجلون بعض الثمار وهم صغارٌ، في الدعوة إلى الله، لا، تأنَّ، استأنسْ برأي من هو أكبر منك، في العلم، في التجربة، في الدعوة، نحن لا نقول لا تمارسْ الدعوة إلا إذا بلغ عمرك أربعون، لكن نحن نقول: إن هناك مقاماتٍ عاليةً، مقام النبوة لا يعلوه شيءٌ، لكن مقاماتٌ عاليةٌ في الأمة، احذر أن تتصدر قبل أن تهيأ لذلك، يأتي واحدٌ قد يكون اهتدى قبل أمس، أو قبل سنةٍ وسنتين، تجربته في الدعوة ضعيفةٌ، تجربته في العلم ضعيفةٌ، ثم تأتي قضايا كبيرةٌ للأمة، فيريد أن يتصدر، لا يا حبيبي، الأمر ليس بهذه السهولة، أعطي القوس باريها، ارجع إلى أهل العلم، الذين شابت لحاهم في العلم، شابت لحاهم في الدعوة، عندهم تجربةٌ، عندهم بصيرةٌ، عندهم فقهٌ، عندهم ورعٌ، عندهم ديانةٌ.
- **قال: فجاءه الملك، فقال له: اقرأ**، وفي هذه، درسٌ آخر ، وهو: أن أصل كل دعوةٍ صحيحةٍ هي العلم، ما قال الله له أول آيةٍ نزلت عليه تعبد، ولا قال له: ادعُ، لماذا؟ لأن الدعوة التي تقوم على غير العلم، لا بركة فيها، بل ثمارها السيئة إن صحت العبارة، أو مفاسدها أعظم من مصالحها، ولهذا لو أردنا أن نصوغ عبارةً، أو نقول: إن الله -عزَّ وجلَّ- في بدايات نزول القرآن ربَّى نبيه -صلى الله عليه وسلم- على أربع قواعد، قامت عليها دعوته -صلى الله عليه وسلم-، وانطلق راسخ البنيان، أول قاعدةٍ: هي العلم، **لو أردنا أن نقول الرباعية التي ارتكزت عليها السيرة النبوية، هي كالتالي:**
  - **الركن الأول:** العلم.
  - **الركن الثاني:** العبادة، الذي هو ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1].
  - **الركن الثالث:** ركن الخلق، وشاهده: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. العبادة ما ركنها؟ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل: 2].
  - **الركن الرابع:** ركن الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، وهو ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 1، 2]، وهذه لاحظوا هذا الترتيب هو الذي سنقرؤه في السيرة -بإذن الله تعالى- وهو الذي نزلت به آيات القرآن.
- إنسانٌ يدعو بدون علم، سيفسد أكثر مما يُصلح، إنسانٌ يدعو مع تقصيرٍ في العبادة، قد يتوقف، إنسانٌ يدعو بدون خُلقٍ حسنٍ، لا يمكن أن يُستجاب له، وأنتم رأيتم كما تقدم قبل قليلٍ، جاء الأمين، يسمونه الصادق الأمين، ما رموه في أخلاقه -عليه الصلاة والسلام-، ولا في عرضه -صلى الله عليه وسلم-، كان طاهر الأردان.
- إذن أي داعيةٍ يريد أن ينطلق في الدعوة، فعليه بهذه الرباعية، هذه الرباعية هي التي ربَّى الله -عزَّ وجلَّ- عليها نبيه -صلى الله عليه وسلم-.
- إذن أول أصلٍ في الدعوة هو العلم، ثم قال: «لست بقارئٍ» ثلاثًا، ثم قرأ أول خمس آياتٍ، وهي أول ما نزل من القرآن بالإجماع: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5]، وتلاحظون ﴿ اقْرَأْ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَلَّمَ ﴾ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾، فكلها تدور حول العلم.

- وفي قوله هنا: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 3]، انظر ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق: 1- 4]، بعض العلماء هنا طرح تساؤلًا، ما الحكمة في الأمر بالقراءة، مع ذكر خلق الإنسان؟ ما علاقة خلق الإنسان بالقراءة؟ هذا سؤالٌ يرد، فبعض العلماء يقول: إن الإنسان كما جمَّل الله ظاهره بالخلق القدري، ﴿خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]، ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: 7، 8]، كما سواه، فيقولون: كما أن هذا جماله الظاهر، فجماله الباطن بالعلم، ولذلك قرن الله بينهما.

ثم قال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ، ليبين أنك أي خطوةٍ تخطوها في هذا الطريق، فستجد من ربك التوفيق والعون، إذا صدقتَ، فإنه أكرم، وهذا هو الموضع الوحيد الذي ورد فيه هذا الاسم.

- فأبشر بخيرٍ أيها الداعية، إذا صدقتَ، وسلكتَ الطريق الصحيح، العلم، العمل، الخلق، الدعوة، وهذه جُمعتْ في سورة العصر ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 1، 2] الرباعية السابقة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ علم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قوم الليل ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 3]، هذه من مظنات الطريق، الخلق الحسن مع الدعوة إلى الله.

- قال: فرجع بها، أي رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الآيات ترجف بوادره، فأخبر بذلك خديجة، وقال: قد خشيتُ على عقلي، لماذا؟ لأن الوحي له ثِقلٌ كما سمعتم في الآية قبل قليلٍ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 6]، وفي حديث عائشة -رضي الله عنها- في الصحيحين، أنها قالت -رضي الله عنها-: "كان الوحي" أو حديث زيد بن ثابت: "كان الوحي ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- في اليوم الشاتي، وإن جبينه ليتفصد عرقًا من ثِقله، حتى إنه مرةً" يقول زيد بن ثابت: "لما نزل الوحي علي وأنا بجانبه، كادت رجله أو ركبته، أو فخذه، تندق من ثِقل الوحي عليه"، صلوات ربي وسلامه عليه.

- وكذلك أيضًا في حديث يعلى بن أمية في الصحيحين، لما نزل عليه الوحي في صلح الحديبية، لما جاءه الرجل، يسأل عن العمرة والحج، وعن الصفرة، قال: وكنت أريد أن أرى النبي -صلى الله عليه وسلم- مرةً من المرات والوحي ينزل عليه، قال: فإذا له غطيط، يعني أخذه شيء يُشبه النُّعاس، من ثِقل الوحي عليه، فلما سُرِّيَ عنه، قال: «أين السائل عن العمرة».

- الحاصل، رجع، وخشيت على عقلي؛ لأنه شيءٌ جديدٌ، أن ينزل عليك ناموسٌ، أو وحيٌ من السماء، ومن ملك، هذا شيءٌ خارقٌ للعادة، أو غير معتادٍ للبشر، فثبتته وقالت، ويا ليت أخواتنا النساء يسمعن هذا الجواب العظيم، من هذه الزوجة الصالحة، أمُّنا خديجة -رضي الله عنها وأرضاها-. ماذا قالت؟ "أبشر" هذه أول كلمةٍ، ثم قالت: "كلا"، يعني جزمت بأنك لا يمكن أن تُخذل، "ومثلك لا يخاف". لماذا؟ قالت: "والله لا يخزيك الله أبدًا"، الله أكبر، والله يا إخوة إنني أتعجب كل ما مررت بهذا الحديث أتعجب ، لم؟ لم ينزل غير هذه الخمس آيات، يعني هو نزل عليه خمس آياتٍ وراجع خائفًا، فاستدلت -رضي الله عنها-، وهي المرأة العاقلة بسنن الله -عزَّ وجلَّ- في الرجال الصالحين، بأن الله لا يخزيهم، لماذا؟ ذكرت كم نقطةٍ لاحظوا "إنك لتصل الرحم" اربطوها يا إخوة بالركن الثالث، وهو ركن حسن الخلق ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، "إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". قالت: "وتقري الضيف" أيضًا في أحد الروايات، هذه خمس صفاتٍ، وهي رسالةٌ لنا يا معشر الدعاة، طلب العلم، كونوا

كذلك، فإن كنتم كذلك، والله لا يخزيكم الله أبدًا، هي ليست خاصةً بالنبي -عليه الصلاة والسلام-، لا يخزيكم الله أبدًا، في قضية حسن الخلق، ولهذا بعض الناس في دعوته، يُفسد أن يكون تأثيره السلبي أكثر، لماذا؟ لأنه قد يكون خشن العبارة، في التعامل مع الناس، قد يكون صلفًا، بل والعياذ بالله، قد يكون أقرب الناس إليه والداه هم أضعف الناس تأثرًا بدعوته، بل ربما انشغل بزعمه، بدعوته الناس، وترك البر بوالديه، ما هكذا تُفهم الدعوة.

- "إنك لتصل الرحم"، من وصلها وصله الله، "وإنك لتحمل الكَلَّ" العاجز، تعينه تساعده، "وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" إنسانٌ مكروبٌ تساعده.
- قال في أوصافٍ أخرى جميلةٍ عددها من أخلاقه، تصديقًا منها له، وتثبيتًا وإعادةً على الحق، فهي أول صدِّيقٍ له -رضي الله عنها وأكرمها.

ثم قال -رحمه الله-: ثم مكث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما شاء الله أن يمكث لا يرى شيئًا، وفتر عنه الوحي، فاغتم لذلك، وذهب مرارًا ليتردى من رءوس الجبال، وذلك من شوقه إلى ما رأى أول مرةٍ، من حلاوة ما شاهده من وحي الله إليه.

- فقيل: إن فترة الوحي كانت قريبًا من سنتين، أو أكثر، ثم تبدى له الملك بين السماء والأرض على كرسي، وثبته، وبشره أنه رسول الله حقًا، فلما رآه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فَرِقَ منه، يعني خاف.
- ثم ذهب إلى خديجة مرةً ثانيةً، وقال: «زملوني»، لاحظ هناك، قال: «خشيتُ على عقلي» ؛ لأنه أول مرةٍ، الثانية خاف، لكنه خوفٌ أقل من الأول، فقال: «زملوني، دثروني» ، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 1، 2]، ونزلت أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1] قبلها.
- قال: فكانت الحال الأولى التي انقطع فيها الوحي، حال نبوةٍ وإيحاءٍ، التي نزل عليه فيها بعد ما نزلت "اقرأ" انقطع الوحي، كانت هذه لتثبيت النبوة، ثم أمره الله بعد هذه الآية، أي بعد نزول ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ، بأن يُنذر قومه، ويدعوهم إلى الله -عزَّ وجلَّ-، وشمَّر -صلى الله عليه وسلم- عن ساق التكليف، وقام في طاعة الله أتم قيام يدعو إلى الله الكبير والصغير الحر والعبد، الرجال والنساء، الأسود والأحمر، فاستجاب له عباد الله من كل قبيلةٍ.
- **هذا المقطع لنا معه وقفتان:**

❖ **الأولى:** في تحرير أنواعٍ أو كم عدد فترات الوحي التي مرت به -صلى الله عليه وسلم-. فنقول: خلاصة كلام أهل العلم في هذا: أن الوحي فتر عنه مرتين فقط، الأولى: وهي بعد نزول الوحي أول مرةٍ -صلوات الله وسلامه عليه-، قبل أن تنزل عليه سورة المدثر، أو سورة المزمل، وهذه التي عناها المصنف: في أول أمره، حينما قال: وفتر عنه الوحي فاغتم لذلك.

- هذه الفترة هي التي أشار المؤلف بعد ذلك إلى الخلاف في مدتها، لكن الآن دعونا نحدد الفترة المرحلة الأولى، والمرحلة الثانية، إذن بعد نزول الوحي أول خمس آياتٍ، فتر الوحي عنه، سنأتي إلى مدته بعد قليلٍ.

❖ **الثانية**: الفترة الثانية: هي حينما نزل ثمان أو عشر سورٍ تقريبًا، التي نزلت بعد الفترة الأولى، وهذه مدتها ليلتان أو ثلاثةٌ، كما في حديث جندب بن سفيان في صحيح مسلم، قالت امرأةٌ: إني أرى شيطانك قد قلاك، قبَّحها الله، فأنزل الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3]، يعني ما هجرك.

- نرجع إلى الفترة الأولى، التي قررنا أنها وقعت قبل نزول المدثر أو المزمل، وهي التي عناها المصنف -رحمه الله-، يعني بعد نزول أوائل "اقرأ"، ونزول عددٍ من السور، لكن قبل أن تنزل سورة المدثر، وقبل أن تنزل سورة المزمل، كم مدتها؟
- المؤلف أشار إلى قولٍ، فقال: إن فترة الوحي كانت قريبةً من سنتين أو أكثر، وبعضهم قال: أربعون، وبعضهم قال أكثر وأقل من ذلك، لكن الذي جزم به ابن إسحاق، وهو أحد أئمة السير، ووافقه عليه الشعبي، وإليه يميل ابن كثيرٍ هنا، أنه قرابة ثلاث سنواتٍ، لأن ابن كثير قال: سنتين أو أكثر، كأنه يشير إلى الثالثة.
- فالذي جزم به ابن إسحاق أن المدة فترت ثلاث سنواتٍ، ولاشك أن هذه مدةٌ طويلةٌ جدًّا على النبي -صلى الله عليه وسلم-، حينما نزل عليه الوحي.

هذه مسألتان، مسألة أوقات الفترات، والثاني: مدد هذه الفترات.

- النقطة الثالثة التي أود أن أعلق عليها، وهي أنه قال: فاغتم لذلك، وذهب مرارًا ليتردى من رؤوس الجبال، هذه الجملة الصحيح أنها لا تثبت عنه -صلى الله عليه وسلم-..

ثم قال -رحمه الله-: أمره الله أن يُنذر قومه.

- بالفعل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 1، 2]، وفي سورة الشعراء: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، فقام -عليه الصلاة والسلام- ونوَّع في وسائل الدعوة، ومن ذلك أنه قام يومًا على الصفاة، «**يا صباحاه، يا صباحاه**» ، فاجتمع له قريشٌ، وقال: «**ماذا لو أخبرتكم عن خيلٍ بُهمٍ دُهمٍ**» ، أو: خيلٍ ستأتي عليكم من خلف الجبل، جبل أبي قبيس، قالوا: ما عهدنا عليك كذبًا، وكان قد نادى: «**يا معشر قريش، يا بني هامش، يا بني عبد المطلب، يا فاطمة بنت رسول الله، يا صفية، عمة رسول الله، لا أغني عنكم من الله شيئًا**»، فلما قال لهم: ما تظنون أني لو أخبرتكم يعني، قالوا: ما عهدنا عليك كذبًا، قال: «**إني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ**» ، فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1].

- فأوذي -عليه الصلاة والسلام- هو ومن معه، أوذي باللفظ القولي، أوذي باللفظ العملي، لما خرج إلى الطائف، كما سيأتي، خرج إلى الطائف، فرماه أهل الطائف حتى أدموا عقبيه الشريفتين -صلوات الله وسلامه عليه-، خرج مهمومًا مغمومًا، يمشي مسافة ثلاثين كيلو، من الهم والحزن، فلم يستفق إلا بقرن الثعالب، من شدة ما لاقى -عليه الصلاة والسلام-، وأرسلوا عليه الصبيان والسفهاء من أجل أن يؤذوه.
- هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أوذي، فكان الصحابة وهم ينظرون إلى قدوتهم -عليه الصلاة والسلام- يؤذى، كان هذا زادًا آخر، زاد الصبر، الذي تحلوا به، واستعانوا به على الصبر في طريق الدعوة.
- ثم انتقل المؤلف إلى بيانٍ من الذين أسلموا، سرد باختصارٍ، ولا نطيل في هذا كثيرًا، ذكر أول شيءٍ، أن أول من أسلم معه خديجة، فهي سابقة النساء على الإطلاق، ومن الرجال قال: أبو بكر، ثم استجاب لأبي بكر

عثمان، لاحظوا الآن، يقول هنا: فاستجاب له عباد الله من قبيلة، وكان حائز سبقهم أبو بكر -رضي الله عنه-، عبد الله بن عثمان التيمي، وآزره في دين الله، ودعا معه إلى الله على بصيرةٍ، قال: فاستجاب لأبي بكر عثمان بن عفان، وطلحة، وسعد بن أبي و قاص، كل هؤلاء الكبار، أربعةٌ من المبشرين بالجنة، كلهم في ميزان حسنات أبي بكر.

- وهذا نستفيد منه فائدةً: وهي أنك أيها الداعية، لا تحقر شيئًا، ولا شخصًا تدعوه إلى الله -عزَّ وجلَّ-، فقد ينفع الله به الإسلام، بل قد يكون أفضل منك، في الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-. فأنت لا تحقر، يعني مثلًا بعض الإخوة والأخوات في بيوتهم يقول: أنا ما عندي ذاك العلم الكبير، ولا عندي، نقول: بارك الله فيك، نشأ لنا ابنًا وبنتًا، يحملون هم الإسلام، يحملون الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، دعوهم يقومون بالدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، بما تستطيعون، حتى ولو ترتب على ذلك أن تدخلوهم في مدارس يتعلمون فيه هذا الأمر، وتدفعون لهم من أموالهم، فإن بناء الإنسان أعظم من بناء الأبدان.
- يقول: وأما عليٌّ، فأسلم صغيرًا، ابن ثمان سنين، وقيل أكثر من ذلك، فقيل: إنه أسلم قبل أبي بكر، لكن يقول ابن كثير، -لاحظوا هذا من التحقيق في عرضه للسيرة-، يقول: وقيل: لا، ليس قبل أبي بكر. ثم قال: وعلى كل حالٍ، فإسلامه ليس كإسلام الصديق، وهذا صحيحٌ؛ لأنه إسلام طفلٍ، ليس كإسلام الرجل البالغ، وهذا من العبارات الجيدة في التحقيق، لأنه كان في كفالة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أخذه من عمه إعانةً له على سنةٍ محلٍ، يعني سنةً أصابت الناس بالجوع والفقر، فأعانه على تحمل عليّ؛ لأن أبا طالب كان عنده أولادٌ كثيرون، فأخذه النبي -عليه الصلاة والسلام- لأنه كان أسن منه بكثيرٍ، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان عمره قرابة الأربعين، وعليٌّ عمره سبع أو ثمان أو تسع أو عشر، يبقى طفلًا صغيرًا، فأعان عمه الذي ناصره في أول أمره.

قال: وكذلك أسلمت خديجة، وزيد بن حارثة، وأسلم القس ورقة بن نوفل.

- إذن ابن كثير يفيدنا هنا، أن ورقة بن نوفل صحابيٌّ، وهذا مذهبٌ لبعض أهل العلم، وقد ترجم له بعضهم في كتب الصحابة، وقالوا: وصدَّق بما جاء من وحي من الله، وتمنى أن لو كان جذعًا.
- يعني لما جاءه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وذهبت به خديجة، يعني خديجة لما فاجئ الوحي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قلقٌ على نفسه، كما تعلمون، قالت خديجة: تعال نأتي إلى ورقة بن نوفل، فإنه رجلٌ يقرأ الكتاب، يعني كتاب التوراة والإنجيل. فلما جاءه النبي -عليه الصلاة والسلام-، أخبره ما الذي فاجأه من وحيٍ، قال: والذي نفسي بيده، هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ثم قال له: ليتني كنت فيها جذعًا، يعني ليتني أدركت هذا الأمر وأنا صغيرٌ، شابٌّ على الأقل حتى أنصرك، قال: وإن قومك سيخرجونك، وإن يدركني يومك، يوم إخراج قومك لك، لأنصرك نصرًا مؤزرًا، قال: «أومخرجيَّ هم»، هذا عيبٌ، كيف قبيلتك تطردك من البلد، قال: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذي.
- وهنا درسٌ، لا تظن أن طريق الدعوة مفروشٌ بالورود والرياحين، سيواجهك أقاربك، يعني المعادون للدعوة، لكن هنا تبقى الحكمة في التعامل، كيف أتعامل مع الوالدين إذا كانوا أعداء للدعوة أو مخالفين، كيف أتعامل مع الإخوة، كيف أتعامل مع الجيران، مع الأقارب، مع أبناء العم، مع العشيرة، مع أهل البلد، مع،

مع، مع، هذا درسٌ آخر، لكن المهم ألا يتصور الإنسان أن هذا الطريق محفوفٌ بالورود والرياحين، لا هو محفوفٌ بالمكاره؛ لأنه طريق يؤدي إلى الجنة.

قال: وقد روى الترمذي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رآه في المنام في هيئةٍ حسنةٍ، وجاء في حديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «رأيت القس عليه ثيابٌ بيضٌ»، لكن هذا الحديث لا يصح.

- قال: وفي الصحيحين أنه قال: هذا الناموس الذي جاء به موسى إلى آخره، قال: ودخل في الإسلام من شرح الله صدره للإسلام، على نورٍ وبصيرةٍ ومعاينةٍ، فأخذهم سفهاء أهل مكة بالأذى والعقوبة، وصان الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- وحماه بعمه أبي طالب، لأنه كان شريفًا مطاعًا فيهم، نبيلًا لا يتجاسرون على مفاجئته بشيءٍ من أمر محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، لما يعلمون من محبته له، وكان من حكمة الله، بقاؤه على دينهم، لما في ذلك من المصلحة، هذا ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعوهم إلى الله ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، لا يصده عن ذلك صادٌّ، ولا يرده عنه رادٌّ، ولا يأخذه في الله لومة لائمٍ.
- نختم بدرسنا هذه الليلة، **هذا المقطع بالتعليق عليه ببعض التعليقات.**
- قال ابن كثير هنا: ودخل من شرح الله صدره للإسلام على نورٍ وبصيرةٍ، فأخذهم سفهاء مكة بالأذى، وهذا تأكيدٌ لما ذكرناه، وهو أن سنة الله -عزَّ وجلَّ- في من سلك هذا الطريق لابد أن يؤذى، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: 16]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

❑ **الأمر الأول:** هذه سنة الله، من سلك طريق الدعوة، ويظن أنه مرتاحٌ، فقد أخطأ ووهم، طريق الدعوة، طريقٌ ثقيل الأعباء، لكنه بعون الله يخف، طريق محفوفٌ بالأشواك، لكنه بنور العلم والبصيرة يستطيع أن يتجنبها الإنسان، ويسير في طريقه، ولابد من ذلك، لأجل أن الدعوة عملٌ عظيمٌ، وتحتاج إلى صبرٍ ومصابرةٍ، فيُصنع الإنسان على هذه الشدائد، ليتحملها، وما هي إلا أيامٌ، حتى يضع قدمه على عتبة الجنة -بإذن الله تعالى وتوفيقه.

❑ **الأمر الثاني:** قال: وحماه الله بعمه أبي طالب؛ لأنه كان شريفًا. وهذه علقنا عليها قبل قليلٍ، أو في الدرس الماضي، وقلنا: إن الله -عزَّ وجلَّ- من حكمته ورحمته ببعض الدعاة، أن يهيئ لهم من ينصرهم، لا ديانةً، وإنما عصبيةٌ بسبب الجانب القبلي.

❑ **الأمر الثالث:** أنه قال: من حكمة الله بقاؤه على دينه، لما في ذلك من المصلحة. الآن نحن نتحدث بعد ما قُضي الأمر، وإلا النبي -عليه الصلاة والسلام- حرص على دعوته، يعني ما قصَّر معه، حتى آخر نفسٍ في حياة أبي طالب، ما تركه النبي -عليه الصلاة والسلام-، بل جاء إليه وهو في مرض الموت، فقال: **«يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمةً أحاج لك بها عند الله»** ، وكان عنده أبو جهلٍ وعبد الله بن أبي ربيعة، وعبد الله بن أبي ربيعة أسلم بعده، لكن في تلك اللحظة لم يكن مسلمًا، فانظروا إلى أثر أصدقاء السوء أيها الإخوة والأخوات، قال: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ أتوا إليه من الباب الذي يعظمه، شأن القبيلة، الآباء، الأجداد، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ تترك الدين الذي كان عليه أبوك وجدك؟ وهذا العذر سبحان

الله، أعرف أناس، إخوانا الذين كانوا في بدعٍ عظيمةٍ، ومنكرةٍ، بل بعضها كفريٌّ، لما تسننوا، وهداهم الله -عزَّ وجلَّ- لأهل السنة، قال لهم آباؤهم: هذه الكلمة بعينها، يعني أنا أبو سبعين سنةً، أو ثمانين سنةً، وأبوك وجدك على ضلالٍ، وأنت الذي على هدى، نفس المنطق، فليصبر الداعية، وليوطن نفسه على ذلك.

- قال: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: مات، هو على ملة عبد المطلب، مات عليها، فحزن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: **«أما والله لأستغفرن لك، ما لم أُنه عنك»**، فأنزل الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ [التوبة: 113]، وأنزل فيه أيضًا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: 56]، وهذا يقودنا أيضًا إلى درسٍ آخر في هذه القصة، قصة أبي طالب، وعلاقته مع النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهو أن الإنسان قد يجتهد في دعوة من يحبهم، سواءً كانوا أقارب، جيرانًا، أصدقاء، إلى آخره، فتنقطع السُّبل، ولا يجد بابًا مفتوحًا، بل يجد إعراضًا، وصدودًا، وربما وجد حربًا وعداءً، فنقول له: لك في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسوةً حسنةً، لست أصدق من الرسول، ولا أكثر حرصًا من دعوته لأقاربه، ومع ذلك لم يستجب، وهذا له سرٌّ عظيمٌ، ما هو السر أيها الإخوة؟ من يحاول أن يكتشف منكم السر في كون الهداية هداية التوفيق بيد الله، لا بيد البشر، لماذا؟ من الأسرار حتى لا يغتر الداعية بجهده، تصور أنت الآن إنه والله قيل، أنا اهتدى على يدي، أو أنا الذي هديت فلانًا، وأنا الذي هديت فلانًا، مع الوقت يكثرون المهتدون على يده بزعمه هو، أنه هو الذي هداهم، فربما دخله العُجب، وفيها درسٌ آخر، وهو أن يكون قلبك أيها الداعية معلقٌ بالله، يا رب، اهدي أبي، يا رب اهدي أمي، يا رب اهدي أخي أختي، وهكذا، تتعلق بالله؛ لأن قلوبهم بيد مَن؟ بيد الله الله، قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، حتى تبرأ من حولك وقوتك، أبدًا لا تهدي من أحببت، وهذا تجد أحيانًا عجائب، إنسانٌ يأتي من أقصى الدنيا، من بلادٍ بعيدةٍ، يأتي سلمان من فارسٍ، ويأتي بلالٌ من الحبشة، يسلمون، ويسمعون، ويقولون: أشهد أن محمدًا رسول الله، وعمه أبو طالب، وعمه أبو لهب لا يسلمون، وهذا يجعل الإنسان دائمًا دائم التعلق بالله -سبحانه وتعالى-، لا في ثباته هو؛ لأنه لا يأمن على قلبه أصلًا هو أن ينحرف، وأيضًا يتعلق قلبه بسؤال الله -عزَّ وجلَّ- أن يهدي فلانًا، ويهدي فلانًا، ويهدي فلانًا، والقصص في هذا كثيرةٌ.

- ثم قال: هذا ورسول الله يدعو إلى الله ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، لا يصده عن ذلك صادٌّ، ولا يرده عنه رادٌّ، ولا يأخذه في الله لومة لائمٍ، وهذا فيه الدرس الأخير الذي نختم به درسنا هذه الليلة: الصبر على الدعوة.

- قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ﴾ [الأنعام: 162] كل الحياة، ما فيه لحظةٌ من الحياة لغير الله، لا، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162، 163]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كان الحديث توقَّف بنا في الدرس الماضي عند هجرة الحبشة، التي ابتدأها المؤلف -رحمه الله- بقوله: "فلما اشتد البلاءُ أَذِنَ الله -سبحانه وتعالى- في الهجرة إلى أرض الحبشة".
- هذا الاشتداد في الأذى جاء بعد أن قويت شوكة المسلمين قليلًا، بدأ الدخول في دين الله تعالى يزداد شيئًا فشيئًا، لكن أعداء الله -جلَّ وعلَا- لا يسُرهم أبدًا أن يَتمدد الإسلام، وأن تتسع رقعته، وأيضًا مِن رحمة الله -سبحانه وتعالى- أنَّ الشّدة إذا جاءت أعقبها فرجٌ، فكان مِنَ الفرج الذي قدَّره الله -جلَّ وعلَا-، واختيار الله -سبحانه وتعالى- لهؤلاء الصحب الكرام، أن أذن لهم في الهجرة إلى أرض الحبشة.
- قال -رحمه الله-: **"فلما اشتد البلاءُ، أَذِنَ الله -سبحانه وتعالى- في الهجرة إلى أرض الحبشة، وهي في غرب مكة بين البلدين، صحارى السودان، والبحر الآخذ من اليمن إلى القَلزم"**
القلزم هو البحر الأحمر الآن.
- يقول -رحمه الله-: **"فكان أول من خرج فارًّا بدينه إلى الحبشة، عثمان بن عفان -رضي الله عنه-"**
فهذه إذن من فضائله.
- **"ومعه زوجته رقية ابنةُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتبعه الناس".**
- قال -رحمه الله-: **"وقيل"**، وهذه تشير إلى ماذا؟ إلى أنه -رحمه الله- كأنه يقول: إنَّ هذا القول ليس بقويّ، وأنَّ الأقوى هو الأول.
- قال -رحمه الله-: **"وقيل: إنَّ أوَّل من هاجر إلى أرض الحبشة أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك، ثم خرج يعني بعد ذلك، جعفر بن أبي طالب، وجماعاتٌ -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وكانوا قريبًا من ثمانين رجلًا".**
- هنا الآن في الخريطة يخرجها المخرج لنا، تبين موقع الحبشة من الجزيرة العربية في ذلك الوقت، تلاحظون الآن أنَّ مكة في موقعها المعروف لديكم جميعًا، انتقل الصحابة -رضي الله عنهم- كما ترون هذا اللون الأخضر، انتقلوا من مكة إلى هذه المنطقة عن طريق البحر، ولكم أن تتصوروا المشقة العظيمة التي لحقت الصَّحب الكرام في هذه الهجرة.

- **المشقة جاءتهم من جهتين:**
  - ❑ من مُفارقة بلدانهم رغمًا عنهم، ولاشك أنَّ هذا نوعٌ من التعب النفسي، لكنه يتحول إلى لذةٍ إذا كان في ذات الله -جلَّ وعلَا-، وإخراج الإنسان من بلده قهرًا أحد أنواع العقوبة، قال الله -جلَّ وعلَا-: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: 40]، وقال الله -جلَّ وعلَا- في سورة النساء ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: 66]، فقرن الله الخروج مِنَ البلد بقتل النفس، إذن هذا الأمر صعبٌ، لكنه إذا كان في ذات الله، يكون أهون على النفس، هذا التعب الأول.
  - ❑ التعب الثاني: هو أنَّ هؤلاء الصحب الكرام -رضي الله عنهم- ليس لهم خبرةٌ في البحار، ولك أن تتصور الخوض في البحر مهولٌ جدًّا، يعني الآن في هذا العصر الأخطار فيه قائمةٌ، فكيف بذلك الوقت؟ مع التواضع الشديد في بناء السفن ونحو ذلك، وأخبار الذين ركبوا في البحار يُدركون شيئًا من هذا، ولكن هذا كله مما يضاعف الله -جلَّ وعلَا- به أجورَ الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-.
- يقول: **"فكانوا نيفًا وثمانين رجلًا".**
- ثم قال: **"وذكر"** هذا نموذجٌ الآن من تحقيقات الحافظ ابن كثير لما ذكرنا أن من مزايا الكتاب أنه ينتقد بعض الأخبار التي تُذكر في السير، فذكر هنا أن ابن إسحاق ذكر أن من أول من هاجر إلى أرض الحبشة أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، يقول ابن كثير: "وما أدري ما حمله على هذا" يعني استغرب كيف عبد الله بن قيس، ما الذي أتى به هنا؟ لماذا؟ يقول: **"فإن هذا أمرٌ ظاهرٌ لا يخفى على من دونه في هذا الشأن"** ، وقد أنكر عليه الواقدي وغيره من أهل المغازي، وقالوا: إن أبا موسى إنما هاجر من اليمن إلى الحبشة، ولم يهاجر من مكة إلى الحبشة؛ لأن أبا موسى لما جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء إليه وهو في المدينة، لم يأت إليه وهو في مكة وهذا ثابتٌ في الصحيح، فاستغرب ابن كثير على -حافظٍ في السير، وإمامٍ في السير-، كابن إسحاق، كيف غاب عنه؟، ولكن في هذا درسٌ وعبرةٌ لطالب العلم، أنه مهما بلغ الإنسان في العلم، فإنه لا يَسلم من الوهم، ولذلك يقول: **"كما جاء مصرحًا به في الصحيح من روايته"** يعني من رواية أبي موسى.
- **"فانحاز المهاجرون إلى مملكة أصحمة النجاشي، فآواهم وأكرمهم، فكانوا عنده آمنين".**
- وفي هذا درسٌ آخر، وهو أن الله -جلَّ وعلَا- يؤيد هذا الدين برجلٍ فاجرٍ، أو برجلٍ كافرٍ، ونحن نقول كافرٌ باعتبار واقع النجاشي في ذلك الوقت، وإلا هو قد ثبت أنه أسلم بعد، وصلى عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- ولهذا من الحكمة في السياسة أن لا تَستعدي أو تُكثر الأعداء ضدك، يعني: تظهر أنك قويٌّ، وأنك لا تبالي بأحدٍ، وتجمع من حولك من الأعداء، خصوصًا ممن حولك مِن الدول، فمن الحكمة هذا في جانب السياسة إن استطعت أن تَكسبهم فافعل، وإن لم تستطع، فحيِّدهم كما يُقال، هذا على مستوى الدول، وعلى مستوى الأفراد، فليس من الحكمة أن يستكثر الإنسان من الأعداء، بل يحاول أن يكسب الناس ما استطاع، فإن لم يستطع فإنه يُحيِّدهم، ما معنى يحيِّدهم؟ يعني يحاول ألا يواجههم، قدر الإمكان، وألا يلجأ إلى المواجهة إلا في أضيق الظروف؛ لأن الإنسان إذا استنزف جهوده الفكرية، جهوده المالية، جهوده الاقتصادية، في الإنفاق على العداوات الشخصية، أو على العداوات الدولية، ستضعف دولته، وسيُنهَك سلطانه، وغير ذلك من الأضرار، ولهذا كان النبي -عليه الصلاة والسلام- لما قدِم من المدينة، وكانت الدولة الإسلامية لم تتأسس بعد، أو تأسست بتأسيس ليس بالقوي، كان قد

صالح اليهود؛ لأن لهم شوكةً في ذلك الوقت، ثم لما قويت الدولة قليلًا زارعهم على أرض خيبر، على نصف ما يخرج منها، ثم أبقاهم فيها حيث شاءوا، ثم أجلاهم عمر بعد ذلك لما قويت الدولة إلى تَيماء وإلى تبوك إلى غير ذلك.

- إذن من الحكمة في الإنسان في الدعوة، نحن الآن نتحدث على مستوى الأفراد، بعض الدعاة أحيانًا قد يكون في بيئةٍ مستضعفةٍ، أو يريد أن ينتقل إلى بيئةٍ يجد فيها النصرة، ويجد فيها على الأقل قدرةً أو فرصةً لإظهار دينه، وللدعوة إليه، وهذا يدلك على أنه من الحماقات المتراكمة عند بعض الناس، الذين للأسف الشديد يتحدثون باسم الإسلام، أو يفجرون باسم الإسلام، أو يقتلون باسم الإسلام، أنَّ هؤلاء يأتون إلى دولٍ قد آوت ملايين المسلمين، في أوروبا مثلًا، فيأتي أحد الحمقى سواءً بنفسه أو تحركه استخباراتٌ معاديةٌ، فيأتي يفجّر، أو يقتل، ويأتي إلى أماكن رقصٍ، أو طربٍ، هؤلاء كفارٌ، يعني ليس بعد الكفر ذنبٌ، ثم يُحدث تشويشًا، فتنقلب الدولة بأكملها على هؤلاء الذين ينتمي إليهم هذا الشخص، وهم المسلمون، فيُضيق على ملايين من المسلمين بسبب تصرف أرعن، أو أحمق من واحدٍ أو اثنين، وهذا مشاهد لا يحتاج إلى تمثيل.
- قال -رحمه الله-: **"فكانوا عنده آمنين"**، يقول: **"وزعيمهم جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه-"** يقول: **"فلما علمت قريش بذلك، بعثت في إثرهم عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، بهدايا وتحفٍ"** إلى آخر الكلام.
- الفكرة أن هؤلاء مبعوثون من قريش، مِن أجل أن يطلبوا من أصحمة النجاشي أن يُضيّق على المسلمين، لكن هذه لم تُفلح، وصدق في النجاشي قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«إنه ملكٌ لا يُظلم عند أحدٌ»** ، وهذه من المزايا التي يتميز بها الحاكم، وكل مَن تولى أمرًا، أن يكون عادلًا، فإنَّ الله تعالى كما قال ابن تيمية: "يقيم الدولة العادلة، ولو كانت كافرةً، ويخذل الدولة الظالمة، ولو كانت مسلمةً"؛ لأن هذه سننٌ إلهيةٌ، تمضي في الأكوان والمجتمعات والأمم، فإذا اجتمع مع العدل إسلامٌ، كانت نورًا على نورٍ.
- هؤلاء ذهبوا، وهذه فيها فائدةٌ أو درسٌ: وهي أن الكفار لا ينفكون أبدًا عن أذية المسلمين ، قال الله -جلَّ وعلَا-: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: 186]، هذا سماعٌ، فكيف بالمطاردة البدنية.
- ومن العجائب: أن هذين الرجلين، أسلما بعد، **وفي هذا فائدةٌ:**
  - ✓ العبرة ليست بنقص البدايات، ولكن بكمال النهايات.
  - ✓ وأيضًا لا تحقرن إنسانًا ، وتقول: هذا كافرٌ، وهذا داعيةٌ إلى الكفر، وهذا داعيةٌ إلى الضلال، لا تيأس من دعوته، قد مع الدعوة مع حسن التعامل يستجيب ويكون من أعظم أنصار الدعوة، يعني تصور عمرو بن العاص هذا الذي ذهب إلى أفريقيا في تلك الفترة، ذهب محاربًا للإسلام، هو الذي فتح الله على يديه مصر، وأمَّره عمر -رضي الله عنه- على مصر فترةً من الزمن.
- فيه أيضًا يقول -رحمه الله-: **"فَوَشوا إليه" يعني نقلوا إليه كلمةً** " إنَّ هؤلاء يقولون في عيسى قولًا عظيمًا" لاحظ الدقة في ما الذي قالوه، ما قالوا إن هؤلاء مثلًا صغارٌ، أو خرجوا عن الطاعة، أو شيءٌ من هذا القبيل، أتوا إلى الملك هذا من الباب الذي يكره أن يُؤتى منه، وهو أن تطعن في دينه، مع أن هؤلاء كانوا في تلك الفترة في حماقةٍ؛ لأنهم لا يدرون أن دين الأنبياء واحدٌ، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«الأنبياء أبناء عَلاتٍ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحدٌ»** ، يعني: هذا عيسى للنصرانية، وموسى اليهودية، ونوح، كلٌ له شريعةٌ، لكن في النهاية، كما قال الله -جلَّ وعلَا-: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، التوحيد مشتركون فيه إلى آخره، لكنه مِن عَقله لم

يقبل الوشاية، ماذا صنع؟ دعا أولئك، فأُحضر المسلمون إلى مجلسه، وفي هذه فائدةٌ: أنَّ الإنسان في الدعوة قد تسمع وشاياتٍ، قد تسمع نقولاتٍ وأخبارًا، فتثبت، ولا تصدِّق كل ما يُنقل إليك.

- يقول: "وزعيمهم جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه-. فقال: ما يقول هؤلاء، إنكم تقولون في عيسى". فكان من فضل الله ولطفه على هؤلاء المسلمين، أنهم لم يجيبوه بأكثر مما قرؤوا عليه القرآن الكريم، يقول ابن كثير: "فقرأ عليه جعفر سورة كهيعص" يقصد صدرًا منها وليس كلها، "فلما فرغ، أخذ النجاشي عودًا من الأرض، فقال: ما زاد هذا على ما في التوراة ولا هذا العود"، أخذ ينكت عودًا في الأرض، ثم قال: "اذهبوا فأنتم سيومٌ بأرضي" يعني آمنون، "من سبَّكم غرِم، وقال لعمرو وعبد الله، والله لو أعطيتموني دَبرًا من ذهب" يعني جبلًا من ذهب "ما سلمتهم إليكم، ثم أمر فردت عليهم هداياهما، ورجعا مقبوحيْن بشر خيبةٍ وأسوئها".
- وفي هذا فائدةٌ للداعية، في بعض البيئات، كالنصرانية واليهودية وغيرها، قد يكون جوابك لا بحجاجك العقلي والشخصي، بل يكون بأن تقول: اسمع مني، ماذا سيسمع؟ اقرأ عليه شيئًا من القرآن، قال الله -جلَّ وعلَا- مُبيِّنًا شيئًا من مهمة النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدعوة، أو من مهام النبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ مكة ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: 91، 92]، وهذا أمرٌ ليس بالسهل، أحيانًا قد لا تملك حُججًا وبراهين، لكنك تعرف أن في هذه الآيات أو تلك ما يجيب على هذه الشبه، وبالفعل تحقق لجعفر ومن معه هذا المراد، والله -جلَّ وعلَا- قال لنبيه في سورة الفرقان: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52]، فالجهاد بالقرآن، بحُججه العلمية، بحججه العقلية من أعظم أنواع الجهاد، لكن لا يوفَّق بهذا إلا العالمون.
- ولهذا أُوصي نفسي وإخواني، الذين يسمعون هذا الكلام، أن يُعنَوا بتدبر القرآن، وفهم معانيه، فإن التدبر فرعٌ عن فهم المعنى، والتدبر يقودك إلى فهم الحجج والبراهين التي تستطيع بها أن تُلقم هؤلاء حجرًا، ولهذا مثلًا في بعض الملاحدة، لما بدأ يتكلم في قضايا، وقال: ما الوحي هذا؟ كيف جبريل أو جسمٌ نورانيٌّ يقصد جبريل ينزل على بشرٍ، ثم يلقي إليه كلامًا، أنا ما استوعبتُ هذا، بدأ ينكر هذا الكلام، ليتوصل بذلك لإنكار الشرائع، فقال له رجلٌ: إن كنت لا توقن إلا بشيءٍ تراه، فأسألك بالله ما الفرق بين جسدك الآن الحي، وجسدِ إنسانٍ ميّتٍ؟ قال: الفرق الروح، قال: أين هذه الروح؟ حدثني عنها، فبُهت، أنت عاقلٌ؟ قال: نعم، عاقلٌ، قال: أين عقلك الذي تحدثنا عنه؟ شيءٌ محسوسٌ؟ لا، إذن ليس كل شيءٍ له أثرٌ حقيقيٌّ، يُرى أن يُشعر، ثمَّة أشياء كما يُقال ما وراء المادة، أمورٌ غيبيةٌ، امتحن بها الناس ليُنظر من الذي يسلِّم، ومن الذي لا يسلِّم.
- ثم يقول -رحمه الله- بعد هذا: "ثم أسلم حمزة"، رجع الآن الحديث إلى مكة، وللحديث عن مأساةٍ جديدةٍ مرَّ بها المسلمون في مكة، وهي مأساة المقاطعة الاقتصادية.
- لما أسلم حمزة، وقصته مشهورةٌ، لم يذكرها ابن كثير، لذا لا نريد أن نستطرد، لكن أسلم حمزة، وكان إسلامه دفعةً قويةً للمسلمين؛ لأن حمزة -رضي الله عنه- هو العم الثاني من أعمام النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين أسلموا، ومر معنا في أول الدروس أنه أدرك من أعمامه الذكور أربعةً، آمن به اثنان وكفر به اثنان، آمن حمزة والعباس، وكفر أبو لهب وأبو طالب، مع أن أبا طالب له مقامٌ في النصرة معروفٌ.
- يقول: "وفشا الإسلام" انتشر، هذه مرحلةٌ جديدةٌ.

- "فلما رأت قريش ذلك ساءها، وأجمعوا على أن يتعاقدوا على بني هاشم وبني المطلب ابنيْ عبد مناف". على ماذا؟
- بنود إن صحت العبارة المقاطعة الاقتصادية، أو المقاطعة عمومًا، ترتكز على أربعة أمورٍ:
  - ☑ **الأول:** ألا يبايعوهم.
  - ☑ **الثاني:** ألا يناكحوهم.
  - ☑ **الثالث:** ألا يكلموهم، حتى الهجرة في الكلام.
  - ☑ **الرابع:** ألا يجالسوهم، وهذا يدلك على ماذا؟ إلى متى؟ قال: حتى يُسلموا إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأبوا، وفي هذا لاحظ بنو عبد مناف، وبنو المطلب هنا ليسوا كلهم جميعًا مسلمين، لكن في تلك الفترة كانت الحمية العصبية والقبلية كان لها أثرٌ في نصرة الدعوة، وسبق أن ذكرنا هذا في قصة أبي طالب، وكيف أن الإنسان الداعية أحيانًا قد يكون ابن قبيلةٍ مشهورةٍ، ويكون هناك أناسٌ على غير منهجهم، لكن ينتفع بهم في النصرة، في الحماية، في الذب عن الدعوة، كما قال الله عن شعيب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91].
- فهؤلاء انحازوا جميعًا إلى الشِّعب، مسلمهم وكافرهم، إلا أبا لهب قبَّحه الله، كما سيذكر، يقول: "وكتبوا بذلك صحيفةً، وعلَّقوها في سقف الكعبة، ويُقال إن الذي كتبها منصور بن عكرمة بن فلانٍ، ويقال فلانٌ لا يهمنا، المهم أنه دعا عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- فشُلَّت يده".
- هنا نقطةٌ، وهي تبين لنا أن هؤلاء لما انحاز إلى الشِّعب بنو هاشم، وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم، إلا أبا لهب، وهذا من خذلان الله له، وبقوا على تلك الحال يا إخوان ثلاث سنواتٍ، تصوروا، مقاطعةٌ اقتصاديةٌ اجتماعيةٌ صعبةٌ، لا يثبت لها كل أحدٍ، لكن من رحمة الله -جلَّ وعلَا- بالداعية، أن يكون معه أناسٌ يواسونه، كما قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن	أسلي النفس عنهم بالتَّأسي

- إذن أحيانًا مشاركة غيرك في المصيبة، تخفف بلا شكٍّ، وعموم الأعباء والتكاليف إذا كانت جماعيةً -سبحان الله- تكون أخف على الإنسان، صلاة الجماعة يخف على الإنسان شأنها، بخلاف قيام الليل، كونك تقرأ أو تستمع، تصلي صلاة التراويح، غير ما إذا صليتها في البيت وحدك، هناك مع جماعةٍ، فكذلك المصائب.
- يقول ابن كثير: "وهناك عمل أبو طالب قصيدته المشهورة. هو ذكر طرف البيت، لكن أذكر بعض الأبيات منها؛ لتعبِّر عن الحَنَق العظيم الذي امتلأت به قلوب بني هاشم على بني عمهم، يقول:

جزا الله عنَّا عبدَ شمسٍ ونوفلا	عقوبة شرٍّ عاجلٍ غير أجل
بميزان قسطٍ لا يغيض شعيرةً	له شاهدٌ في نفسه حق عادل
ونحن الصميم من ذآبة هاشم	وآل قصيّ في الخطوب الأوائل
لقد علموا أن ابننا لا مُكذَّبٌ لديهم	ولا يُعنى بقول الأباطل

- "لقد علموا أن ابننا" يعني النبي -عليه الصلاة والسلام-.

- هنا أوضح للإخوة المشاهدين الشجرة، شجرة قريش، لنعرف من هم بنو هاشم، وبنو نوفل، باختصارٍ شديدٍ فقط أوضِّح، لاحظوا هنا بنو عبد مناف الذين اتفقوا، هؤلاء الذين عليهم المؤشر الآن، الذي هو والد هاشم، الجد الثاني للنبي -عليه الصلاة والسلام-، هذا عبد منافٍ له أربعة أبناءٍ، الأول: عبد شمس، والثاني: المطلب، والثالث: نوفل، والرابع: هاشم، الذي هو جد النبي -صلى الله عليه وسلم- الثاني. يعني النبي -عليه الصلاة والسلام- اسمه: محمد، بن عبد الله، بن هاشم، بن عبد مناف، هذا عبد مناف له أربعة أبناءٍ، هاشم، الذي هو جد النبي -صلى الله عليه وسلم- الثاني، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل.
- من الذين حُوصروا ؟ الذين حُوصروا: المطلب، وهاشم، بينما عبد شمس ونوفل هؤلاء انحازوا مع بقية قريش، مع بقية بطون قريش، مع مقتضى النصرة يقتضي أن يكونوا معهم، ولهذه النصرة أثرٌ في حكمٍ فقهيٍّ، ما هو؟ عند كثيرٍ من أهل العلم، الزكاة إنما تحرم على بني هاشم، وبني المطلب فقط، أما بنو نوفل، وبنو عبد شمس، فليسوا ممن تحرم عليهم الزكاة، مع أنهم أبناء رجلٍ واحدٍ، وهو عبد مناف، والسبب: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أول هذه النصرة، وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «نحن وبنو المطلب لم نفترق في جاهليةٍ ولا في إسلامٍ» ، فكان من آثار هذه النصرة في ما بعد أن الزكاة بعد إنما تحرم على بني المطلب، وعلى بني هاشم، ومن العلماء من يحصرها في بني هاشم فقط، الذين هم يلتقون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في جده الثاني، وليس هذا مقصود البحث الفقهي، لكني أود أن أشير إلى أثر هذه المسألة في البحث الفقهي في رأي جمعٍ من أهل العلم.
- ثم يقول -رحمه الله-: "سعى في نقض تلك الصحيفة أقوامٌ من قريش"، ما أعجبهم هذا الأمر، وجدوا أن فيه ظلمًا، يقول: "فكان القائم في ذلك هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب" إلى آخره، "مشى في ذلك إلى مطعم بن عدي" ، وهذا أحد كبار قريش، وليس من بني عبد مناف، لكنه رجلٌ عاقلٌ منصفٌ شجاعٌ كريمٌ، جاءوا إليه، يعني ما معقول هؤلاء أبناء عمنا، ونحاصرهم هذا الحصار، حتى إنه سُمِعَ أصوات الأطفال من الجوع، حتى إن بهائمهم كادت تموت، بل بعضها مات، بدأ بعضهم يأكل ورق الشجر.
- فمشى إلى هؤلاء، فأجابوه إلى ذلك، قالوا: هيا سنذهب إلى الكعبة، وننقض هذه الصحيفة، فأخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- قومه أن الله أرسل على هذه الصحيفة التي عُلِّقت أرضَة، وهي نوعٌ من النمل، وأظنه النمل الأبيض، فأكلت كل ما في الصحيفة، إلا ما فيه ذكر الله -جلَّ وعلَا-، فلما أرادوا أن ينقضوا الصحيفة، وجدوا ما فيه شيءٌ، فرجع بنو هاشم، وبنو المطلب إلى مكة، وحصل الصلح، برغمٍ من أبي جهل قبَّحه الله.
- هنا لما رجع النبي -عليه الصلاة والسلام- ببني المطلب، وبني هاشم إلى مكة، وصلت الأخبار إلى أهل الحبشة، وظنوا أن قريشًا أسلمت بسبب فك الحصار، ولم يكن شيءٌ من ذلك، لكن هكذا سرت الأخبار، ولا يبعد أن يكون بعض القرشيين أثار هذه الشائعة، من أجل استقطاب أكبر عددٍ ممكن من هؤلاء ليسوموهم سوء العذاب.
- يقول ابن كثير: "فقدِم مكة منهم جماعةٌ، فوجدوا البلاء والشدة كما كانت"، فاستمروا بمكة إلى أن هاجروا إلى المدينة، إلا" استثنى المؤلف -رحمه الله- أربعة أشخاصٍ، فالسكران بن عمرو -رضي الله عنه- زوج سودة بنت زمعة، التي تزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- بعده، فإنه مات بعد مقدمه من الحبشة بمكة قبل الهجرة إلى المدينة، هنا خطبها النبي -عليه الصلاة والسلام-، فصارت أمًّا للمؤمنين، ثم سلمة بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وذلك أنهما احتبسا في مكة مستضعفين، والرابع: عبد الله بن مخرم بن عبد العزى، فإنه حُبس فلما كان يوم بدر هرب من المشركين إلى المسلمين. هؤلاء استثنوا من الهجرة لهذه الأسباب الأربعة.

- يقول ابن كثير -رحمه الله-: **"فلما نقضت الصحيفة، وافق موت خديجة -رضي الله عنها- وموت أبي طالب، وكان بينهما ثلاثة أيامٍ"**. انظر كيف البلاء يتتابع على نبينا -عليه الصلاة والسلام-، وقد صدق بأبي وأمي حينما قال: **«أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، يُبتلى المرء على قدر دينه»**.
- وقوله هنا: **"بينهما ثلاثة أيامٍ"** هو اختيار منه -رحمه الله- لقول أكثر أهل العلم في مدة الوفاة، وإلا بعض العلماء يقول: بينهما ثلاثة وخمسين ليلةً، ولكن أكثر المحققين على أن بينهما ثلاثة أيامٍ، وهذا لاشك أنه بلاءٌ، أن يموت عمك، ثم تموت زوجتك، التي كانت مناصرةً لك في الدعوة، كنت تجد فيها الحضن، كنت تجد فيها العبارات الطيبة التي تهدئ من روعك، كنت تجد فيها السكن والأنس من عناء الدعوة، هذه لاشك أنها مصيبةٌ عظيمةٌ، يعرفها من ذاقها من الدعاة، الذين كانوا يجدون في زوجاتهم حصنًا حصينًا وملجئًا بعد الله -سبحانه وتعالى-.
- قال ابن كثير: **"فاشتد البلاء على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من سفهاء قومه، وأقدموا عليه"**، يعني بالأذى، ماذا صنع النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ وهنا درس فانتبهوا له، فخرج الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى الطائف، ما هو الدرس الذي يمكن أن يُستفاد من هذا؟ يعني لما ضويق في مكة، ووجد أن الأبواب مغلقةٌ في تلك الفترة، خروجه إلى الطائف ماذا يعني؟ أن الداعية لا يقف في مكانٍ واحدٍ، إذا وجد الأبواب أُغلقت في مكانٍ، أو في مشروعٍ، أو في جهةٍ معينةٍ، فإنه يجتهد، ويبحث عن موضعٍ آخر، ليبلّغ فيه دين الله -سبحانه وتعالى-، ولهذا يقول هنا: **"فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الطائف، لكي يؤووه وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم، ودعاهم إلى الله -جلَّ وعلَا-، فلم يجيبوه إلى شيءٍ من الذي طلب"** بل ماذا؟ يقول -رحمه الله-: **"وآذوه أذىً عظيمًا، لم ينل قومه منه أكثر مما نالوه منه، فرجع عنهم، ودخل مكة في جوار المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف"**.
- هذا المقطع يصوّره بشكلٍ أكثر أن النبي -عليه الصلاة والسلام- كما في الصحيحين، سألت عائشة -رضي الله عنها-، فقالت: يا رسول الله، هل مر بك يومٌ أشد عليك من يوم أحدٍ؟ قال: **«لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ، وأشد ما لقيتُ من ابن عبد يا ليل»**، الذي هو كنانة **«ابن عبد يا ليل، ابن عبد كلاب، عند العقبة»**، والأقرب أن هذه العقبة ليست عقبة مِنى، وإنما عقبةٌ من عقبات الطائف؛ لأنه كان سيدًا في قومه، وهذا الرجل -سبحان الله- جاء في عام الوفود وأسلم، لكنه في تلك المرة كان من أعداء الله ورسوله، فسمع منه من الأذى ما سمع.
- يقول: **«فخرجت مهمومًا، فلم أستفق إلا وأنا في قرن الثعالب»**، قرن الثعالب بينها وبين الطائف ثلاثين كيلوا، تصور يمشي النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهو لا يدري من الهم الذي ركب -عليه الصلاة والسلام- والأذى الذي لحقه، وكان صبيانهم، صبيان أهل الطائف يرمونه بالحجارة -عليه الصلاة والسلام-، حتى أدموا عقبيه الشريفتين، بأبي هو وأمي ونفسي وما أملك، صلوات الله وسلامه عليه.
- فلحقه من الهم ما لحقه، فلما وصل إلى قرن الثعالب أفاق، ثم جاءه كما في الصحيح ملك الجبال بعد، فقال: "لقد سمع الله -جلَّ وعلَا- مقالة قومك لك، وإني مَلك الجبال، فإن شئت أطبقت عليهم الأخشبين"، الأخشب هو الجبل العظيم، ومكة تعرفون أنها بين جبلين عظيمين، جبل أبي قبيس، والجبل الآخر. فقال: **«لا، إني أستأني بهم»**، يعني أنتظر، **«لعل الله أن يُخرج من أصلابهم من يُعبد الله»**، الله أكبر! وصدق -عليه الصلاة والسلام-.

- الداعية أيها الإخوة، لا ينتصر لنفسه، إنما همه أن يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وإلا لاحظوا المَلَك جاء إليه بأمر الله -جلَّ وعلَا-، ولو قال: نعم، أطبق عليهم الأخشبين، هؤلاء آذوني، وآذوا جماعتي، وأنا كذا، وأنا ابتليت بموت زوجتي، وموت عمي، قلَّ الناصر، وقلَّ المعين، ومع ذلك لم يقل -عليه الصلاة والسلام- شيئًا، وفي هذا جاءت الرواية التي أخرجها ابن إسحاق بسند حسن: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».
- في كلماتٍ عظيمةٍ، وابتهالاتٍ مليئةٍ بالثناء على الله -سبحانه وتعالى-، ومليئةٍ باللجوء إلى الله -جلَّ وعلَا-، وسؤاله التوفيق والتسديد.
- ثم يأتيه ملك الجبال فيقول له ما قال في الحديث السابق، وهكذا الداعية لا ينتصر لنفسه، ولو كان الإنسان يقلب الدعوة إلى تصفية حساباتٍ شخصيةٍ، ستفسد دعوته، وستبدأ همومه صغيرةً في مربعٍ صغيرٍ، يخاصم هذا، ويغاضب هذا، ثم يتوقف، أما الذي هَمُّه معلَّقٌ برضا الله -سبحانه وتعالى-، وهمُّه أن يستجيب الناس لأمر الله -سبحانه وتعالى- وإن أوذي هو في ذات الله، فإنه لا يتوقف، بل يصفح عن من أخطأ عليه، ويعفو عن من ظلمه، كما فعل -عليه الصلاة والسلام- في مكة، حينما فتحها، ودخلها مؤزَّرًا منصورًا، فيوضَع صناديد الكفر كلهم تحت قدميه الشريفتين -صلى الله عليه وسلم-، فيقول لهم بكل قوةٍ واقتدارٍ: «ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟» ، فيقول: أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، هنا الآن جاء أخٌ كريمٌ، وابن أخٍ كريمٍ، طيب قبل عشر سنواتٍ ماذا فعلتم بي وبأصحابي؟ أخرجتموني من مكة، لكنه الحلم النبوي، حلم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وعدم الانتصار للنفس، يقول: «أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» ، قالها يوسف -عليه السلام-، وقالها محمدٌ -عليه الصلاة والسلام-، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: 90].
- وأنا أؤكد على هذا المعنى، لأني أرى في الساحة نماذج من الدعاة -وفَّقهم الله- ابتلوا بلاءً عظيمًا بأناسٍ كثيرين، بتهمٍ، ببهتانٍ، بظلمٍ، بتصنيفاتٍ ظالمةٍ، بتنفيرٍ للناس، إلى درجة أنك تجد من الدعاة من تُقتطع له مقاطع من مقابلاتٍ، أو من لقاءاتٍ من أجل أن يُركَّب على هذا الداعية، أو ذلك العالم مقطعٌ يسيء إليه وإلى الدعوة، هذا جزءٌ من البهتان والظلم، ويقوِّلون ما لم يقولوا، وتجتزأ كلماتهم أحيانًا من سياقها، إلى غير ذلك من صور الأذى، فيُقال لهم: لستم وحدكم، ولكم في رسول الله- صلى الله عليه وسلم-أسوةٌ حسنةٌ.
- قال: "ودخل مكة في جوار المُطعم بن عدي". لماذا دخل في جوار المُطعم؟ العرب عندهم عادةٌ، وهو أن الإنسان إذا كان مطرودًا من جماعةٍ، أو من قبيلةٍ، أو من بلدٍ، فمن الأعراف عندهم أنه يُرسل إلى سيدٍ من سادات تلك البقعة، فيقول له: أنا أدخل في جوارك ، فدخل في جوار المُطعم بن عدي، فأرسل المُطعم بن عدي، مع أنه كان كافرًا في ذلك الوقت، لكن لاحظوا يجتمع هو والنبي -صلى الله عليه وسلم- في عبد مناف، يعني هذا جده نوفل، وهذا جده هاشم، جدهم الذي يجمعهم عبد مناف.
- فأرسل المُطعم أربعةً من أبنائه يستقبلون النبي -صلى الله عليه وسلم- عند مدخل مكة، وهو قادمٌ من الطائف، يحوطونه كما يُحاط العظماء، ولسان الحال: من ولدته أمه فليقترب من محمدٍ؛ لأنه دخل في جوار المُطعم بن

عدي، والعرب تُعظِّم الجوار، حتى ولو كان بينك وبين الطرف المُجار عداوةٌ، خلاص، مادام دخل في جوار رجلٍ، فإن الاعتداء عليه اعتداءٌ على مَن أجاره، ولهذا في حديث أم هانئ في الصحيح، لما أجارت ابن عمها، فقالت: يا رسول الله، لما أهدر النبي -صلى الله عليه وسلم- دماء أُناسٍ، وكان ممن قدِم أحد أبناء عمها، فقالت: يا رسول الله، إن فلانًا يزعم أنه قاتلٌ فلانًا، وقد أجرته، فقال: **«قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ»** ، ولذلك العلماء نصُّوا على أن من دخل في جوار مسلمٍ، أو في ذمة مسلمٍ، وعهد مسلمٍ، ولو كان عبدًا، يُباع ويُشترى، فإنه لا يجوز خَفْرُ عهده وذمته.

- قال -رحمه الله-: **"وجعل يدعو إلى الله -جلَّ وعلَا-. فأسلم الطُّفيل بن عمرو الدوسي"**. الآن بدأت بعض الرءوس الكبيرة المؤثرة في الجزيرة العربية تُسلم وتتلقى الدعوة، وهذا فيه رسالةٌ إلى أن الإنسان بقدر ما يصبر يظفر، لا تقلق ولا تيأس، البشائر تأتي، لكنها ليست بالضرورة أن تأتي تباعًا، الطُّفيل بن عمرو الدوسي، هذا من قبيلة دوسٍ في جنوب المملكة، في مناطق الآن الباحة وما الباحة، وقريب من هذه المنطقة، قبائل زهران وما زهران، كلها تنتمي إلى هذه القبيلة.
- فأسلم، ودعا له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يجعل له آيةً، فجعل الله في وجهه نورًا، فقال: يا رسول الله، أخشى أن يقولوا: هذه مُثلةٌ، يعني عيبٌ، إما بَرَصٌ أو شيءٌ من هذا القبيل، أو خللٌ، فدعا له، فصار النور في صوته، فهو المعروف بذي النور، كما ترون.
- هنا الطُّفيل لم يكتف بإسلامه، بل قال: يقول ابن كثير: **"ودعا الطُّفيل قومه إلى الله، فأسلم بعضهم"**.
- إذن عندنا درسٌ هنا مهمٌّ في هذه القطعة، ما هو؟ أن الإنسان يشتغل بالدعوة إلى الله -جلَّ وعلَا-، ما يقول والله أنا أسلمت والحمد لله وبركة، أو أنا اهتديت من الضلال إلى الهدى، أو من البدعة إلى السنة ويكفي، لا، بل يكون حمَّالة ورِدٍ، يكون ناقلًا للهدى، داعيًا إلى الله -جلَّ وعلَا-، والله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: 33].
- وفي الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- قال: **«بلِّغوا عنِّي ولو آيةً»** ، والإنسان أقول بصراحةٍ، يعني بعض الناس أحيانًا يتصور أن الدعوة إلى الله -جلَّ وعلَا- لابد أن تكون حافظًا للقرآن، وحافظًا للصحيحين، وكذا وكذا، نحن نقول: لا يجوز أن يدعو الإنسان إلى شيءٍ معيَّنٍ إلا بعلمٍ في ذلك الذي يدعو إليه، ولا يلزم أن يكون عالمًا كبيرًا حتى يمارس الدعوة، وإلا لما مارس الدعوة إلا أعدادٌ قلائل، لكن المهم، لا تدعو إلى الله -جلَّ وعلَا- إلا بما تعلمه، فمثلًا لا يحتاج الإنسان إلى أن يُوصي غيره مثلًا بالصلاة، أن يكون عالمًا، الصلاة ركنٌ وفرضٌ متفق عليه، لا تحتاج إلى علمٍ واسعٍ حتى توصي الناس بغض البصر، أو بالكف عن أكل الحرام، أو ببر الوالدين، أو بترك الفواحش، أو غير ذلك من الأمور، المهم أن تحمل في قلبك همًّا للدعوة إلى الله -جلَّ وعلَا-، فإن عجزت عن الكلام، فليكن لسان حالك داعيةً إلى الله -جلَّ وعلَا-، بحُسن خُلقك، حُسن كلامك، تعاملك مع الوالدين، أدائك للشعائر، كفُّك عن الحرام.
- النقطة الثانية في خاتمة لقائنا هذا اليوم: أنه ذكر أن الطُّفيل بن عمرو أنه أقام في بلاده، فلما فتح الله على رسوله خيبر، وخيبر فتحت سنة سبعٍ للهجرة، على قول أكثر أهل العلم، في شهر المحرم، قال: قدِم بهم في نحو من ثمانين بيتًا.

- انظروا، هؤلاء الثمانون الآن لو أردت أن تُرجع قبائل زهران وغامد، وعددًا من القبائل التي عندنا في السعودية هنا، لأرجعت إليهم ملايين، كلهم يعود الفضل في إسلامهم بعد الله -جلَّ وعلَا- إلى هذا الرجل، لا تحقرنَّ شيئًا، قد يُسلم على يدك واحدٌ الآن، ثم يُسلم على يد هذا الرجل آلافٌ من الناس.
- **خلاصة ما في درسنا هذا اليوم ، نلخِّصها في الآتي:**

☑ أنه ما يضيق على الداعية شيءٌ، إلا ويجعل الله له مَخرجًا، لكن هذا المَخرج قد يكون زمانيًّا، قد يكون مكانيًّا، قد يكون نصرةً بشخصٍ، أو غيره، وهذا ظهر لنا من هجرة الحبشة، ومن نصرة ملكهم للمسلمين.

☑ أن أعداء الإسلام لا يألون جُهدًا في مضايقة المسلمين، وأذيتهم، ومحاربتهم، سواءً في أماكنهم، أو حتى يلاحقونهم في أماكن أخرى، ولئن كانوا سابقًا يُرسلون أشخاصًا، فإنهم اليوم يُرسلون رسائل عن طريق الفضاء، وعن طريق الإنترنت، وعن طريق وسائل الإعلام، من أجل إضلال المسلمين.

☑ أثر الدعوة في القرآن الكريم، كما في قصة جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وأن الإنسان بقدر علمه بالقرآن، تكون دعوته أقوى وأسدُّ.

☑ أن النبي -عليه الصلاة والسلام- حوصر هو ومن معه من بني المطلب وبني هاشم، وبقوا ثلاث سنواتٍ، وهذا نوعٌ من أنواع الأذى الذي يلحق الدعاة، ويلحق المسلمين، وهو أيضًا في المقابل أسلوبٌ من أساليب الحصار والأذى، الذي يجتهد الكفار في إلحاقهم به، لكن يتبين لنا من مجريات السيرة أن العاقبة للمتقين ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132] كما ذكر الله -سبحانه وتعالى- في أكثر من موضعٍ.

☑ أن من نِعم الله -جلَّ وعلَا- على الداعية: أن يهيئ الله له أسرةً، أو قبيلةً، أو جماعةً يقفون معه في السراء والضراء، وإن خالفوه في المنهج، وذكرنا أن من حكمة الداعية وعقله ألا يستكثر من الأعداء والخصوم، بل يجتهد في تجنبهم، في اكتسابهم قدر الإمكان، فإن لم يستطع، فإنه يحيِّدهم حتى لا ينشغل ولا يضيع وقته بالمهاترات والأخذ والرد.

☑ ثم أخيرًا تحدثنا عن قصة موت أبي طالب، وموت خديجة -رضي الله عنها-، وما لحق النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأذى، وأخيرًا إلى ذهابه إلى الطائف -عليه الصلاة والسلام-، وما لقي من الأذى، وما أكرمه الله -سبحانه وتعالى- به من جِوار المُطعم بن عدي؛ لأنه كان صورةً من صور لُطف الله به.

☑ أشير فقط إشارةً مختصرةً وأختم بها، المُطعم بن عدي هذا مات كافرًا، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم ينس معروفه، وأراد أن يعبِّر عن شُكره، لما انتهت غزوة بدرٍ، وجاء هؤلاء الأسرى بين يديه، قال: **«لو كلَّمني المُطعم بن عدي في هؤلاء الأسرى، أن أُطلقهم له لأطلقتهم له»**، وكأنه يقول: ولا تنسوا الفضل بينكم، وأن من أحسن إليك، ولو كان كافرًا، فاجتهد في ردِّ الفضل هـ، أو الإشادة بموقفه، مع أن المُطعم مات كافرًا كما سبق، لكنه -صلى الله عليه وسلم- سيِّد ولد آدم في الخُلُق، وفي الوفاء، وفي حفظ العهد، وشُكر المُحسن.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كان الحديث توقف بنا عند قوله -رحمه الله-: "وأُسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- بجسده، على الصحيح من قول الصحابة والعلماء" إلى آخره.

حَدَثُ الإسراء والمعراج -أيها الإخوة والأخوات الجميع معنا-، كان من الأحداث الشهيرة جدًّا في السيرة، وسبب الشهرة فيه أمورٌ:

- **أولها:** هذه القدرة العظيمة، والآية الكبيرة، التي أجراها الله -سبحانه وتعالى- في هذا الحدث العظيم، الذي جعل بعض الناس يكذِّب به؛ لأنه أمرٌ خارقٌ للعادة.

ولاحظوا عبارة ابن كثيرٍ، يقول: "وأُسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- بجسده على الصحيح" لماذا قال: "على الصحيح من قول الصحابة والعلماء"؟

- لأن من أهل العلم من قال: إنَّ الإسراء وقع بروحه لا بجسده، وهذا كما قال المؤلف: يعني: يشير إلى ضَعْفه. الصواب خلافه، وأن الإسراء وقع بالروح والجسد، **وذلك لأمور:**

❑ **الأول:** أن الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1] ووصف العبد هنا ينطبق على الروح والجسد.

❑ **الثاني :** كما قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: "نظرًا لأنه أمرٌ عظيمٌ وكبيرٌ، نزَّه الله -سبحانه وتعالى- نفسه، وذكر التسبيح تعظيمًا وإجلالًا لهذا الحدث العظيم".

❑ **الثالث:** لو كان الإسراء بالروح فقط، لما كان معجزةً، أو لما كان آيةً. لماذا؟ لأن هذا يقع، انتقال الروح من مكانٍ إلى مكانٍ، من مكة إلى الأقصى إلى الشام، ما هو معجزةٌ، يعني الواحد منَّا الآن وهو في السعودية، ينام، أو في أي مكانٍ في العالم، ينام، وتذهب روحه إلى أقصى الأرض، يعني يرى منامًا، يعني الإخوة عندنا أناسٌ مثلًا من بنين، ومن ساحل العاج، وعندنا من اليمن، قد يكون سافر إلى بلدٍ، هو هنا، وروحه هناك، أليس كذلك.

- الواحد منَّا قد يكون سافر إلى أمريكا، أوروبا، فتذهب روحه، فهذا ليس بمعجزةٍ، إذن الإعجاز يتحقق بأن يكون بالروح والجسد، ثم إن الله -عزَّ وجلَّ- لما ذكر شأن المعراج، عندنا إسراءٌ، وعندنا معراجٌ، الإسراء من مكة إلى

الشام، والمعراج من الشام، أو من المسجد الأقصى إلى السماء، حيث بلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- السماء السابعة، وكلَّمه ربه -عزَّ وجلَّ- كفاحًا من غير ترجمانٍ.

- مما يؤيد، أو يقوي، أو يصحح هذا القول: أن الله ذكر في سورة النجم، أوصافًا وأحوالًا، لا يصلح نسبتها إلى الروح وحدها، ماذا قال الله؟ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: 18]، وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17]، كل هذه أوصافٌ للجسد والروح.
- والمؤمن الذي يؤمن بقدرة الله -عزَّ وجلَّ-، وأنه على كل شيءٍ قديرٌ، لا يستبعد هذا، فالله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيامٍ، قادرٌ على أن ينقل جسدًا بهذه السرعة. أليس الله -عزَّ وجلَّ- ذكر في كتابه في قصة سليمان، لما أرسل الهدية إلى بلقيس، قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: 38] السرير حق الملك هذا ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: 38، 39]، المقام هذا ضحوةٌ من النهار، مسافةٌ قصيرةٌ، فكيف بليلةٍ كاملةٍ؟ ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40]، وانظر إلى ألفاظ القرآن، وكيف بلاغتها في إظهار هذه الآية بأعلى الصور، قال الله -عزَّ وجلَّ- في قصة سليمان هذه، انتبهوا، الآن سأمسك كأس الماء حتى تعرفوا بلاغة هذا اللفظ القرآني، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النمل: 40] أنا لو أتيت الآن بهذا الكأس، لعل المخرج يسلِّط الضوء على يدي الآن، لو أتيت أنا الآن أمشي بسرعةٍ، والكأس في يدي، ماذا سيكون حال الماء؟ يحصل له ترجرج، ثم قد يخرج شيءٌ من الماء، لو كنت أمشي بهدوءٍ، فإن الماء ستراه مستقرًا، كأنه لم يتغير، أليس كذلك؟ انظر كيف وصف القرآن هذا العرش العظيم ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ كأنه منذ زمنٍ قد أُتي به.
- في العادة الشيء إذا جيء به بسرعةٍ، يكون ملخبطًا، الآن أنا لو قلت لكم في هذا المكان الآن، نريد أن ننقل هذا الدولاب الذي فيه هذه الكتب، ومكان الكراسي الآن الجلوس، في ظرف دقيقتين فقط، أو خمس دقائق، دعونا نقول: خمس دقائق، في ظرف خمس دقائق، نريد نقل المكتبة من هاهنا إلى هاهنا، وكراسيكم تأتي هنا، والديكور هذا أنا سأنقل كرسيّ إلى هذا المكان في خمس دقائق، كيف سيكون شكل المكان؟ فوضى، وهذا يقول: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40]، هذه حركة العين قبل أن ترجع الجفن إلى الجفن، سيأتيك عرش بلقيس، وهو كأنه مستقرٌ عندك.
- هذا الرب العظيم، الذي أقدر هذا الذي عنده علمٌ من الكتاب، أن يأتي بالعرش بهذه الصورة، قادر على أن يُسري بجسده الشريف -صلوات الله وسلامه عليه-، وأن يعرج به إلى السماء، لكن هذا تغلظُ عنه كما قال ابن القيم -رحمه الله- في "زاد المعاد"، القلوب الكثيفة، التي لم تؤمن بقدرة الله -عزَّ وجلَّ-، أو أعجزها هذا التصور، كما أقدر الله الأرواح أن تنتقل من مكانٍ إلى مكانٍ، فالذي نقل الأرواح ينقل الأجساد، إذا كنا نصدق أن الروح في السعودية، في اليمن، في بنين، في ساحل العاج، قد تسري إلى أقطار الأرض، والجسد في مكانه، لماذا لا نؤمن بأن الله قادرٌ أن ينقل هذا المكان بقدرته.
- كيف وقد ركب البراق، كما أشار المؤلف -رحمه الله- الآن، يقول: "على الصحيح من قولي الصحابة والعلماء، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا البراق، في صحبة جبريل -عليه السلام-".
- جاء في وصف البراق في الصحيح: دابةٌ عظيمةٌ، خَطْوُه، يعني الخطوة التي ينتقل منها من بقعةٍ إلى بقعةٍ، تمتد إلى منتهى بصره، يعني الآن الحصان عندما يعدو، كم مسافة العدو؟ مترين ثلاثةٌ أربعةٌ محدودةٌ، لكن هذا البراق

أقدره الله -عزَّ وجلَّ- أن تكون خطوته الواحدة، من موضع القدم إلى الموضع الآخر منتهى بصره، الخطوة الثانية منتهى البصر، هذا في ثوانٍ يصل إلى الشام، وأنت إذا لاحظت أن هذا سيسري في فضاءٍ، وليس أمامه جبالٌ ولا سهولٌ، ولا وهادٌ، فتبارك الله العليم القوي القدير -عزَّ وجلَّ-.

- يقول: "فنزل ثَمَّ" يعني نزل في بيت المقدس، "وأمَّ بالأنبياء ببيت المقدس فصلى بهم".
- وهنا يتساءل بعض الناس: كيف أمَّ بهم؟ أمَّ بهم تعني: بأرواحهم هنا؛ لأن أجسادهم كانت مدفونةً في الأرض، ولازالت، حتى يبعث الله من في القبور، فإذن تشكلت أرواحهم في صورة أجسادهم، الله شكَّل الروح في صورة جسدٍ، قد تقول: كيف هذا؟ أقول: مع الله لا تسأل كيف، لكن هنا مع ذلك سأجيب، أليس الله -عزَّ وجلَّ- أقدر جبريل، وهو الذي خُلق من نورٍ، أن يتشكل في صورة رجلٍ؟ بلى، أليس كذلك؟ الذي شكَّل هذا الجسم النوراني، ليكون جسمًا إنسانيًّا في جسمان إنسي، قادرٌ على أن يشكِّل روح النبي لتكون بشرًا سويًّا، وجسده موجودٌ في قبره، وهذا يفسِّر لك معنى قوله -عليه الصلاة والسلام-: «رأيت موسى قائمًا يصلي في قبره» ، جسده ممدودٌ، لكن الذي يصلي روحه، فهم في نعيمٍ -عليهم الصلاة والسلام-، بل هم أعظم الخلق نعيمًا في الحياة البرزخية.
- ولاحظ لم يُذكر عنهم غير الصلاة، وهذا لأن الصلاة أحب عبادةٍ فرضها الله -عزَّ وجلَّ- بعد التوحيد على جميع الأنبياء والمرسلين، يصلون حتى في قبورهم -عليهم صلوات الله وسلامه-، وقد جاء هذا في حديثٍ عند الإمام أحمد، جوَّد إسناده بعض أهل العلم: «الأنبياء يصلون في قبورهم».
- يقول: "ثم عرَج به" إذن الآن انتهت قصة الإسراء، وقد رُبطَ البراق كما في الصحيح بحلقةٍ في بيت المقدس، ولذلك الآن لو دخلت على " Google" عن طريق "Google earth " وطلبتَ مثلًا صورةً للمسجد الأقصى، وبدأت تتعرف على أماكن الأبواب، ستجد هناك بابًا في المسجد الأقصى، اسمه باب البراق، لماذا سمِّي باب البراق؟ نسبةً إلى هذه الدابة التي رُبط بحلقةٍ من حلقات ذلك الباب، فمن تلك البقعة عُرِجَ برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماء.
- فلما عُرِج به إلى السماء، لقي الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كما في حديث أنس في الصحيحين، وفي حديث أيضًا أبي ذر -رضي الله تعالى عنه-، وغيرهم من الصحابة، الذين رووا حديث المعراج، وهو حديثٌ متواترٌ عند أهل العلم، وممن وافق ابن كثيرٍ على أن الصحيح العروج بجسده وروحه، أئمةٌ حفاظٌ، كابن القيم، وكذلك الحافظ ابن حجر، وغيرهم من أهل العلم -رحمة الله عليهم-.
- رأى في السماء الدنيا آدم، ثم رأى يحيى وزكريا، ثم رأى يوسف -عليه السلام-، ثم رأى إدريس، ثم رأى موسى وهارون، ثم رأى نوحًا -عليه الصلاة والسلام-، ثم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في السماء السابعة.
- قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «وصلت إلى مستوًى سمعت فيه صريف الأقلام» ، يعني: صوت الأقلام وهي تكتب المقادير التي أمرها الله -عزَّ وجلَّ- به، وبلغ موضعًا لم يبلغه بشرٌ، وكلَّم الله كِفاحًا من غير واسطةٍ، لكن من وراء حجابٍ، كما سيأتي في مسألة الرؤية بعد قليلٍ.
- وهنا قد يقول قائلٌ: مادام أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قد كلَّم الله -عزَّ وجلَّ- من دون واسطةٍ، لماذا اختُصَّ موسى بين الأنبياء بوصف "كليم الرحمن"؟ لما لم يوصف النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه كليم الرحمن؟

- السبب: هو أن بداية نبوة موسى كانت بتكليم الله له مباشرةً، يعني بداية النبوة والرسالة بدأت بمكالمة الله، أو بكلام الله -عزَّ وجلَّ- ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: 9]، ثم بعد ذلك بدأ جبريل ينزل، بينما بقية الأنبياء، بما فهم رسولنا -عليه الصلاة والسلام-، كانت بداية الوحي له: نزول جبريل، قد يقع الكلام بعد ذلك بينه وبين الله، كما في حديث المعراج، وكما هو ظاهر قصة نوحٍ في سورة هود، قال: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 46]، وغير ذلك من القصص التي تدل على مخاطبة الله -عزَّ وجلَّ- لبعض أنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- مباشرةً من دون واسطةٍ.
- إذن سمِّي موسى كليم الرحمن؛ لأن أول بداية الرسالة كانت بكلامٍ من الله، ولذلك الله قال: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 144].
- يقول -رحمه الله-: "ورأى عندها جبريل على الصورة التي خلقه الله عليها"، هذا أحد المواضع، والموضع الثاني: كان عندما عاد الوحي بعد فتوره، كما سبق معنا في درسٍ ماضٍ، رآه مرتين، وقد رأى له ستمائة جناحٍ، سادٌّ عِظَمَ خَلقه ما بين السماء والأرض، هذا مَلَكٌ من الملائكة، فكيف ببقية الملائكة؟
- ويقال في الآثار: إن جبريل لما أمره الله -عزَّ وجلَّ- بقلب قرى لوط، قلبهم بطرف جناحه فقط، فصار عاليها سافلها.
- يقول: "وفرض الله عليه الصلوات في تلك الليلة"، في قصةٍ مشهورةٍ، وفي آخرها قال الله تعالى: «إني قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي» ، كانت خمسين، ثم خُفِّ، خُفِّ، خُفِّ حتى وصف إلى خمسٍ صلاة، فهي خمسٌ في العمل، وخمسون في الميزان، فلله الحمد على فضله ومنته.
- ثم انتقل المؤلف -رحمه الله- إلى موضوعٍ آخر، له صلةٌ بقضية المعراج، وهي: هل رأى ربه -عزَّ وجلَّ- أم لا؟ والمقصود بالرؤية هنا، ألخص الكلام فيها في نقطتين:
- المقصود بالرؤية هنا: رؤية عيني الرأس، هل رأى ربه أم لا؟ وابن تيمية -رحمه الله- يحكي الاتفاق، وهو ما يوحي به أيضًا كلام الدارمي -رحمه الله-، أن العلماء بل غير ابن تيمية، أئمة الإسلام في مسألة الرؤية يقررون بأن من مواضع الإجماع عند السلف، أن الله تعالى يُرى في الآخرة، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22، 23]، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: 23] إلى آخره.
- المسألة التي معنا هنا، هي: هل رأى ربه بعيني رأسه أم لا؟ ابن تيمية يقول: إن المحكي عن الصحابة، هو: اتفاقهم على أنه لم ير ربه بعيني رأسه، وإنما الذي وقع الخلاف فيه، هو: هل رأى ربه بقلبه أم لا؟ يقول: "فصحَّ"، لاحظ ابن كثيرٍ يقول: "فصحَّ عن ابن عباس أنه قال: رأى ربه، وفي روايةٍ عنه: رآه بفؤاده".
- إذن هذه الرواية تفسِّر الرواية الأولى، وهي أن رؤيته كانت قلبيةً لا بصريةً، وبهذا تتفق أقوال الصحابة، ولهذا قال: "وفي الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- أنها أنكرت ذلك على قائله، وهو من؟ مولاها مسروقٌ، قالت: يا مسروق، من زعم أن رسول الله قد رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله -عزَّ وجلَّ-".
- وثبت عنه عن ابن مسعود أنه قال: "إنما رأى جبريل" يعني بعيني رأسه رأى جبريل، لكن بقلبه رأى ربه -عزَّ وجلَّ-، واستدل المؤلف -رحمه الله- بحديثٍ في صحيح مسلمٍ: عن أبي ذرٍّ -رضي الله عنه- أنه قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: هل رأيت ربك؟ قال: «نورًا أنَّى أراه»، وفي رواية: «رأيت نورًا».

- والإمام أحمد -رحمه الله- يرجِّح أن هذا الحديث من قول أبي ذر، لا من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيكون هذا قولًا، أو صحابيًّا آخر، يضاف إلى ابن مسعود، وعائشة، وهو أنه لم ير الله، وإنما رأى نورًا، ويؤيد هذا حديث أبي موسى في صحيح مسلمٍ، قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأربع كلماتٍ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار» إلى أن قال: «وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحانه وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» ، والله تعالى بصره لا يحده حدٌّ، فهذا واضحٌ في أنه لو كُشف لأحرق، ولولا أن الله -عزَّ وجلَّ- أعطى المؤمنين في الآخرة قدرةً على رؤيته، ما استطاعوا أن يروه، وموسى -عليه السلام- لما طلب رؤية ربه، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: 143]، لماذا؟ لأن خلق الإنسان في هذه الدنيا عاجزٌ عن تحمل أن يرى ربه -عزَّ وجلَّ- العظيم الجليل -تبارك وتقدس-، فأراد الله أن يريه آيةً، تبين له أنه لا يستطيع أن يتحمل ذلك، قال: سأريك فقال: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: 143] خلْقُ الجبل أعظم بنص القرآن، ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: 57]، قال: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: 143]، قال ابن عباس: "لم يكشف الله -عزَّ وجلَّ- من نوره إلا قدر الظفر"، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: 143] أصبح كثيبًا مهيلًا، هذا الجبل العظيم، ومع هذا صُعق موسى من اندكاك الجبل ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143].
- المهم ابن كثيرٍ -رحمه الله- علَّق هنا وقال: "فهذا الحديث كافٍ في هذه المسألة"، ونكتفي بهذا القدر في هذه المسألة، وهي رؤية الله -عزَّ وجلَّ-، والخلاصة فيها: أن الصحابة -رضي الله عنهم-، كما قال ابن تيمية: "ليس فيهم من يقول إنه رأى ربه بعيني رأسه"، وإنما الخلاف: هل رأى ربه بقلبه أم لا؟ وجمهورهم على أنه رأى نورًا فقط، أنه رأى نورًا ولم ير ربه -عزَّ وجلَّ-.
- ثم انتقل ابن كثيرٍ إلى الحديث عن آثار هذه القصة، وهي قصة المعراج، فقال: "ولما أصبح في قومه أخبرهم بما أراه الله من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم لهم، وأذاهم، واستجراؤهم عليه"، يعني يقولون: ما صدقناك أنك تقول الوحي ينزل علينا، تذهب في ليلةٍ وترجع، يعني يقولون: يذهب أحدنا في شهرٍ كاملٍ، ويعود في شهرٍ، وأنت تذهب في ليلةٍ وترجع في ليلةٍ، كيف يكون هذا؟ هم قاسوه بمقاييسهم البشرية، فذكروا ذلك لأبي بكر، فقال: "إن كان قاله فقد صدق"، هذا الصديق -رضي الله عنه-، ما يسأل على ذلك بيّنةً، قال: "إن كان قاله فقد صدق"، لأن عنده يقينٌ، الذي جعل الأرواح تنتقل كما ذكرنا قبل قليلٍ، والذي خلق السماوات والأرض، والذي أخبرنا بقصة سليمان، وعرش بلقيس، وحضوره بهذه السرعة، قادرٌ على أن ينقل محمدًا، إن كان قاله فقد صدق.
- والله يا أيها الإخوة والأخوات، لا سبيل لراحة القلب مع هذه الأخبار الغيبية، إلا بالتسليم، قال الإمام الطحاوي -رحمه الله- في عقيدته: "ولا يثبت إسلام المرء إلا على قدم التسليم"، هناك أخبارٌ لا تستطيع أن تتعامل معها إلا بهذا المعنى، وبهذا المقام، وبهذه المرتبة من مراتب العبودية، وهي مرتبة اليقين والتسليم والتصديق.
- قال -رحمه الله-: "وجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعرض نفسه على القبائل أيام الموسم ويقول: «من يحملني إلى قومه، فيمنعني» يعني يحوطني «حتى أبلِّغ رسالة ربي، فإن قريشًا منعوني أن أبلِّغ رسالة ربي» ، هذا وعمه أبو لهب -لعنه الله- وراءه، يقول للناس: لا تسمعوا منه فإنه كذابٌ.
- والله يا إخوة، هذه طبعًا أيام الموسم، يقصد أيام الحج، والله ما أذكر أنني وقفت على سفوح جبال منى، إلا وتذكرت هذا المخزي الملعون أبو لهب، أقول بنفسي أين هذا الرجل؟ في نفسي هكذا، شعورٌ، أقول: ليته يقوم من

قبره، ليرى هذه الملايين، التي تقول: "أشهد أن محمدًا رسول الله" فيهم الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، والحر والعبد، والصغير والكبير، والوزير والأمير والمأمور، والحاكم، والغني، والفقير، ومن كل أصقاع الدنيا، والرجل والمرأة، والصغير والكبير، كلهم يقولون: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله". أقول في نفسي: ليته يقوم؛ ليموت كمدًا، وأنا أعلم أنه في عذابٍ الآن، لا يعلمه إلا الله، لكني أقول: أين ذلك المخذول، يمشي وراء النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ليحذر الناس، ثم أين مآله، ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: 3].

- ولهذا نقول: انظر إلى نعمة الله -عزَّ وجلَّ- على العباس، ونعمة الله -عزَّ وجلَّ- على حمزة، أسد الله ورسوله، سيد الشهداء، والعباس، أكرمه الله -عزَّ وجلَّ- بالإسلام، وصار ناصرًا للنبي -صلى الله عليه وسلم-، بل حتى كما سيأتي -إن شاء الله- في بيعة العقبة، كان رِدْءًا ومعينًا للنبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض القضايا؛ لأنه لما جاءه قوم يثرب، قال: دعني أرى وجوههم فإني أعرف أهل يثرب، أنا أعرف الصادق منهم والكاذب، أعرف كذا وكذا، فصار يساعده مع أنه لم يكن على دينه قومه في ذلك الوقت.
- يقول: "فكان أحياء العرب يتحامونه" يعني: يُبعدون، لا يريدون أن ينصروه، لماذا؟ لما يسمعون من قريش عن أنه كذابٌ وساحرٌ وكاهنٌ وشاعرٌ، أكاذيب يقذفونها بهم من تلقاء أنفسهم، فيصغي أليهم، من لا تمييز له من الأحياء، وأما الألبَّاء يعني: العقلاء، إذا سمعوا كلامه، وتفهموه، شهدوا بأن ما يقوله حقٌّ، وأنهم مفترون عليه، فيسلمون.
- ولهذا أقول للإخوة والأخوات: لا تستبعد، نستفيد من هذا المقطع: أن تكون العداوة تأتيك من أقرب الناس نسبًا إليك، قد يكون في دعوتك إلى الله -عزَّ وجلَّ-، قد تواجه أذًى من أقرب الناس إليك، من أبٍ، ، من أخٍ، من عمٍّ، من خالٍ، ولهذا الله -عزَّ وجلَّ- ذكر هذه الفتنة في صدر سورة العنكبوت، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: 8] الآيات، ما وجه الفتنة هنا؟
- وجه الفتنة أن الوالدين هنا يدعوانه إلى الكفر، فيصعب عليه هنا عندنا محبةٌ عاطفيةٌ، وعندنا أمرٌ شرعيٌّ بالإسلام والتوحيد، فيقع عنده نوعٌ من الصعوبة، أو المشقة النفسية، وقصة إسلام أم سعد، و قصة إسلام أم أبي هريرة، كلها شواهد على هذا، فالداعية هنا في مقام الوالدين، يتعامل معهما كما أمر الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: 15] لكن ﴿إِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: 15].
- بقية الأقارب يصانعهم، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، قدر الإمكان، لكن من واجهه بالعداوة، واضطره إلى الأذى، فيتعامل معه بما يليق، لكن القصد من هذا أن الإنسان لا يستغرب أن يأتيه الأذى من أقرب الناس إليه، وأن يكون الناصر له في دعوته، أناسٌ بعيدون عنه، ألم يؤيده الله -عزَّ وجلَّ- ببلالٍ من الحبشة؟ وبصهيب الذي قدِم من الروم؟ وقد قلنا لكم إن أصله من اليمن، لكنه جاء إلى الروم، وسلمان الفارسي، وهذا معنًى يجب أن يتنبه وأن يتهيأ له الداعية، ولا يستغربه، فلست أنت أفضل من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، الذي أوذي من أقرب الناس إليه، لكن عليك أن تصبر وتصابر.
- بعد هذا يبدأ الحديث الآن يتجه إلى إرهاصات الهجرة، والمقدمات التي سيذكرها المؤلف -رحمه الله- قبل الحديث عن هجرته -عليه الصلاة والسلام- إلى المدينة.

- الله -عزَّ وجلَّ- هيأ له من الأحداث والمواقف التي استعان بها على تأسيس جماعةٍ تنصره إذا قدم إليهم، لأنه يصعب، وهذه من حسن الترتيب للدعوة، ومن حسن الترتيب لنصرة الدين، أن يكون الإنسان يرتّب أموره، إذا أراد أن ينتقل إلى مكانٍ آخر، ويغيّر البيئة التي هو فيها، كيف حصل هذا الترتيب؟
- هو الآن في مكة أوذي من هؤلاء الجماعة، طيب لو ذهب إلى المدينة، من دون أي ترتيبٍ، ومن دون أي تخطيطٍ، قد يكون العداء أشد، فإذا كان جماعته آذوه، والطائف أيضًا آذوه، فلابد أن يهيأ الأسباب، فكانت من تقدير الله -عزَّ وجلَّ- لهم ما يذكره ابن كثيرٍ الآن في قضية التهيئة بأن ساق الله إليه قومًا سماهم الله تعالى الأنصار، ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: 9]، وأيضًا سماهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ، عفوًا النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي سماهم الأنصار، وهم الأوس والخزرج.
- فيقول -رحمه الله-: "وكان مما صنع الله لأنصاره من الأوس والخزرج". الأوس والخزرج هؤلاء أبناء حارثة، وهؤلاء قبيلةٌ كهلانيةٌ قحطانيةٌ، أوصولهم ترجع إلى اليمن، وأمهم اسمها قيلةٌ، هذا الحارث له ولدان، أوسٌ وخزرج، فتُنسب إليه جميع بطون الأنصار، إلى هذين الفريقين.
- وكان من صنع الله -عزَّ وجلَّ- لهؤلاء، واختيار الله تعالى لهم ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: 68] أنهم كانوا يسمعون في المدينة، يقول ابن كثير من حلفائهم من يهود المدينة، أن نبيًّا مبعوثًا في هذا الزمن، ويتوعدونهم به إذا حاربوهم ويقولون: إنا سنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، ظنوا أنه سيخرج منهم، ما توقعوا أنه سيخرج من العرب.
- يقول: وكان الأنصار يحجون البيت، كما كانت العرب تحجه، أما اليهود فلا، لأنهم لا يرون غيرهم شيئًا أصلًا.
- فلما رأى الأنصار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو إلى الله تعالى، ورأوا أمارات الصدق عليه، قالوا: والله هذا الذي توعدكم به يهودٌ، فلا يسبقنكم إليه، وهنا في هذه الجملة لفتةٌ، يعني غير ما أكرم الله -عزَّ وجلَّ- به الأنصار، وهو قضية الاستفادة من المعلومات الموجودة عند الخصوم، يعني الآن اليهود عندهم أثرٌ من آثار الكتاب، ومعلوماتٌ تدل على أنه سيبعث نبيٌّ، وموقنون بهذا، لكنهم ما كانوا يتوقعون أن يُبعث ماذا؟ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89].
- فهؤلاء لما أيقنوا بأنه سيُبعث نبيٌّ، وأيضًا عرفوا في ما يبدو لي أنه خاتمٌ، لن يُبعث نبيٌّ بعده، مقتضى الخاتمية له أن ينتصر، ولابد، حتى ولو بعد حين، فكان من توفيق الله لهم أنهم سبقوا، ومن خذلان الله لهؤلاء اليهود، الذين كتموا ما كتموا، وحرَّفوا وبدَّلوا، أنهم لم يكن لهم نصيبٌ إلا العداء لله ولرسوله، ولم يُسلم منهم إلا قليلٌ.
- يقول ابن كثيرٍ: "وكان سويد بن الصامت" عند الآن سيذكر المؤلف رجلين "كان سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف بن أوس، قد قدِم مكة، فدعاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلم يُبعد ولم يُجب". يعني لا حارب، ولكنه لم يستجب، ثم انصرف إلى المدينة، فقُتل في بعض حروبهم، وكان سويدٌ هذا ابن خالة عبد المطلب، عبد المطلب من هو؟ جد النبي -عليه الصلاة والسلام-.
- "ثم قدِم أبو الحيسر أنس بن رافع" في فتيةٍ من قومه، من بني عبد الأشهل، يطلبون الحلف، حلفٌ معروفٌ في العرب أحيانًا قد تكون قبيلةً صغيرةً، أو قبيلةً تخشى من غزو قبيلةٍ أكبر منها، فيتحالفون مع مجموعةٍ من قبيلةٍ أو أكثر، ويكون الحلف مقتضاه النصرة، يقولون: تنصروننا إن اعتدى علينا أحدٌ، ونحن ننصركم إن اعتدى عليكم

أحدٌ، يقول: فدعاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الإسلام، فقال إياس بن معاذ منهم، كان شابًا صغيرًا: "يا قوم، هذا والله خيرٌ مما جئنا له"، هم جاءوا يطلبون حلفًا، حلف قبيلةٍ، حلفًا مع قريش، حلف نصرةٍ، مثل ما تسمى اليوم معاهداتٍ دوليةً، أو التعاون في المجال العسكري، التعاون في المجال الأمني، التعاون في المجال الاقتصادي، هكذا تحالفاتٌ، لكنها تسمى بأسمائها.

- يقول: "فضربه أبو الحيسر" أبو الحيسر كان رجلًا كبيرًا، وجاء في روايةٍ عند الإمام أحمد: أنه رمى ترابًا في وجهه، ونهره، فسكت، ثم لم يتم لهم الحلف، لا هم الذين أسلموا، ولم يتم لهم الحلف، فانصرفوا إلى المدينة، فيقال: إن إياس بن معاذ هذا مات مسلمًا، وقد جاء هذا في روايةٍ عند الإمام أحمد، أن إياس بن معاذ هذا مات مسلمًا، والله أعلم.
- ثم إن النبي -عليه الصلاة والسلام- لقيه عند العقبة، هذا الآن التحول الكبير في مسألة تهيئة الأنصار في المدينة، لما جاء أحد المواسم، قبيل الهجرة بقليلٍ، عند العقبة، العقبة ما هي؟ التي عند الجمرة الكبرى، في منى الآن، هذه تسمى العقبة الكبرى، في الموسم، في الحج، جاء نفرٌ من الأنصار، كلهم من الخزرج، ولاحظوا الآن أسماؤهم ملونةٌ باللون الأحمر على الشريحة، أولهم: أبو أمامة، أسعد بن زرارة، الثاني: عوف بن الحارث، وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رئاب.
- هؤلاء الستة دعاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الإسلام، فأسلموا مبادرةً إلى الخير، أعجبني تعليق ابن كثيرٍ هذا ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: 10] ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: 10]، لكن المبادرون لهم الفضل والسبق.
- توقفنا عند قوله: "فأسلموا مبادرةً إلى الخير، ثم رجعوا إلى المدينة، فدعوا إلى الإسلام، ففشا الإسلام فيها، حتى لم تبقَ دارٌ إلا وقد دخلها الإسلام".
- لا يعني أن كل الناس أسلموا، لكن ما من دارٍ من الدور، دار بني عبد الأشهل، ودار بني النجار، ودار بني كذا وبني كذا وكذا، إلا ويوجد فيهم أناسٌ أسلموا، ثم لاحظوا، لما كان العام المقبل، جاء منهم اثنا عشر رجلًا، الآن عندنا ستةٌ، تضاعف العدد، الستة الأوائل إلا جابر بن عبد الله بن رئاب، ومعهم لاحظوا الآن عندنا ستةٌ جدد، معاذ بن الحارث بن رفاعة، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، هؤلاء العشرة، الذين هم هؤلاء الأربعة، مع الستة السابقين، كلهم من الخزرج.
- قال: "واثنان من الأوس، وهما: أبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة" كل هؤلاء بايعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كبيعة النساء، ما معنى كبيعة النساء؟ أي أنه لا قتال فيها، بيعةٌ لا قتال فيها، إنما هي بيعةٌ على أن ينصروه إذا جاء إليهم، لكن لا قتال في مكة، كما سيشير إلى ذلك ابن كثيرٍ.
- يقول: "فلما انصرفوا إلى المدينة، بعث معهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عمرو بن أم مكتوم الأعمى، ومصعب بن عمير"، لاحظوا أمامهم مهمتان: الأولى، يعلمان من أسلم منهم القرآن، ويدعوان إلى الله -عزَّ وجلَّ-.
- قال -رحمه الله-: "فنزل على أبي أمامة، أسعد بن زرارة، أحد أكابر الأنصار، وكان مصعب بن عمير يؤمهم، وقد جمَّع بهم يومًا بالأربعين نفسًا"، يعني لما اكتمل العدد أربعين جمَّع بهم، وعلى هذا استند الإمام أحمد والشافعي في

أن الجمعة يُشترط لها أربعون في المشهور من المذهب، بناءً على هذا، وإن كان المسألة فيها خلافٌ بين أهل العلم، ليس موضع ذكره.

- قال: فأسلم على يديهما بشرٌ كثيرٌ" الله أكبر، منهم كبار الأنصار، أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، الذي اهتز لموته عرش الرحمن، أسلم على يد من؟ على مصعب بن عمير، الشاب المكي المنعَّم المُترف، الذي ترك حياة النعيم، وحياة الترف، مهاجرًا إلى الله ورسوله، وأسلم على يديه هذان الإمامان العظيمان، أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ سيدا الأوس والخزرج.
- انظر كيف بركة الدعوة، يقول ابن كثيرٍ: "وأسلم بإسلامهما يومئذٍ جميع بني عبد الأشهل، الرجال والنساء" ، كلهم، كل هؤلاء في ميزان حسنات مصعب بن عمير، قال: إلا الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحدٍ، فأسلم يومئذٍ، وقاتل فقُتل قبل أن يسجد لله سجدةً.
- ولهذا من الأسئلة في السيرة، يقولون: من هو الصحابي الذي لم يسجد لله سجدةً ودخل الجنة؟ هو هذا، عمرو بن ثابت بن وقش -رضي الله عنه-، لأنه أسلم الضحى، أو الصباح، ثم دخل المعركة، فقُتل -رضي الله عنه-، لم يُدرك أي صلاةٍ، وهذا مصداق قوله -عليه الصلاة والسلام-: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» ، والحمد لله هذا كثيرٌ، بعكس الأول، الذي يعمل بعمل أهل الجنة، ثم لا يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، هذا ولله الحمد قليلٌ، لكنه يأتي بين الفينة والأخرى، ليرسل رسائل للناس أن تعلقوا بالله وسلوه الهداية.
- ثم قال: "فأخبر عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه عمل قليلًا، وأُجر كثيرًا".
- يقول: "وكثر الإسلام بالمدينة، وظهر، ثم رجع مصعب إلى مكة، ووافى الموسم ذلك العام خلق كثيرٌ من الأنصار، من المسلمين والمشركين، وزعيم القوم البراء بن معروف -رضي الله عنه-. فلما كانت ليلة العقبة، الثلث الأول منها، تسلل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثةٌ وسبعون رجلًا وامرأتان". كم صار المجموع؟ خمسةٌ وسبعون، فبايعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خِفيةً من قومهم، ومن كفار مكة، على ماذا؟ قال: على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأُزرهم، هذه كنايةٌ عن شدة الدفاع، فكما أنا أحمي عرضي، وأحمي أبنائي، وأحمي نفسي أحميك، لكن متى هذا؟ إذا قدِم إليهم، أما وهو في مكة لا سلطان لهم، لأنهم من الأنصار، غرباء، لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا.
- يقول: "وكان أول من بايعه ليلة إذ البراء بن معرور".
- انظر تعليق ابن كثير اللطيف الجميل الرائع: "وكانت له اليد البيضاء". أنا أضفت باللون الأخضر، لعل المخرج يكبِّر الشاشة مشكورًا، ، كلمة "المبادرة"، وهذه من أعظم سمات العظماء "المبادرة". قبل قليلٍ تحدثنا عن المبادرة، هنا نتحدث عنها، قال: "إذ أكَّد العقد وبادر إليه". كيف؟ هنا المؤلف جاء بها باختصارٍ، هو لما جاء هؤلاء يريدون البيعة، جاء أسعد بن زرارة الذي سبق ذكره قبل قليلٍ، فلما أرادوا البيعة، وضع يده على يد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: يا قوم: انتبهوا إلى شروط البيعة، إنكم إن بايعتم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رمتكم العرب عن قوسٍ واحدةٍ، وهذه البيعة ثمرتها عظيمةٌ، ترميكم العرب عن قوسٍ واحدةٍ، ويفعلون بكم، ويفعلون

بكم، فكأنهم استعظموا هذا منه، فقال له، هذا الشاهد، هذا الذي جعل ابن كثير يقول هذا الكلام، قالوا: **"أمط عنَّا يدك، فوالله لا نستقيل هذه البيعة ولا نقيلها"** فبياعوا -رضي الله عنهم- واحدًا واحدًا، وقد كتب الله -عزَّ وجلَّ- على أيديهم الخير العظيم.

- هنا نلاحظ صورةً من صور إعانة الله -عزَّ وجلَّ- للنبي -صلى الله عليه وسلم- لبعض أقاربه، وإن لم يكونوا مسلمين، يقول ابن كثيرٍ: **"وحضر العباس عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موثِّقًا مؤكِّدًا للبيعة، مع أنه كان بعد على دين قومه.**
- واختار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منهم تلك الليلة اثني عشر نقيبًا" يعني أشبه ما يكون بالرئيس والأمير على مجموعةٍ من جماعته، لأن هذه بيوت الأنصار، وهذه من حسن الترتيب والتنظيم، وهذا من التخطيط المبكر لتنظيم الدولة المسلمة، التي سيقدم إليها النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة، حتى إذا جاء ما تكون المسألة فوضى، كلٌّ يتقدَّم، أنا، أنا، أنا، عيَّنهم وهو في مكة -عليه الصلاة والسلام-، حتى إذا جاء وإذا الأمور كلها قد رُتِّبت وهُيِّئت ليبدأ النبي -عليه الصلاة والسلام- بمهامٍ جديدةٍ، فقال: وهم أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع بن عمرو، وعبد الله بن رواحة الصحابي المشهور الشاعر، ورافع بن مالك، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، والد جابر، وكان أسلم تلك الليلة، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو بن خنيس، وعبادة بن الصامت، يقول: هؤلاء تسعةٌ من الخزرج، تلاحظون الكثافة لقبيلة الخزرج، أكثر من الأوس، قال: ومن الأوس ثلاثةٌ، أسيد بن الحضير، الذي أسلم على يد مصعب، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير، وقيل: بل أبو الهيثم بن التيهان مكانه، ثم الناس بعدهم.
- والمرأتان استمعا أيتها الأخت الكريمة، انظري إلى أثر المرأة في الدعوة، المرأتان: أم عمارة، نسيبة بنت كعب، بن عمرو، وهي التي قتل مسيلمة ابنها، حبيب بن زيد بن عاصم، انظروا كيف المرأة المسلمة قد لا تبادر وتباشر بعض الجوانب كالجهاد ونحو ذلك، لكن يُخرج الله من أرحامها من ينصر دين الله -عزَّ وجلَّ- بالجهاد، والدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى- .
- المرأة الثانية هي: أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، يقول ابن كثير: **"فلما تمت هذه البيعة، استأذنوا"** انتبهوا لهذا "استأذنوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أهل العقبة" يعني يريدون أن يقتلوهم، فلم يأذن لهم، لماذا؟ لأن هذا التوقيت خطأٌ، هم قلَّةٌ مستضعفون في الأرض، فعليهم ماذا؟ أن يعبدوا الله، أقسموا الصلاة، وآتوا الزكاة، كفوا أيديكم.
- يقول: **"بل أذن للمسلمين بعدها من أهل مكة في الهجرة إلى المدينة"** لاحظتم الإرهاصات التي تقدمتْ الهجرة، يقول: "فبادر الناس إلى ذلك، فكان أول من خرج إلى المدينة من أهل مكة أبو سلمة". كيف تمت الهجرة؟ من أول من هاجر؟ ماذا بعد ذلك؟ أسئلةٌ -إن شاء الله تعالى- نبتدئ إجابتها في الحلقة القادمة، فكونوا معنا، إلى أن نلقاكم، أستودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- توقف الحديث بنا عند مبتدأ الهجرة إلى مدينة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكنا ذكرنا في الحلقة الماضية، أسماء الذين بايعوا النبي -عليه الصلاة والسلام- من الأوس والخزرج، وأن النبي -عليه الصلاة والسلام- جعل منهم اثني عشر نقيبًا، وقد كانت اشتملت هذه البيعة، التي سبقت الهجرة، على ثلاثةٍ وسبعين رجلًا، وامرأتيْن.
- وتوقف الحديث بنا عند **قوله -رحمه الله تعالى-:"فلما تمت هذه البيعة، استأذنوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أن يميلوا على أهل العقبة"**. هؤلاء العدد، يعني الذي هم ثلاثةٌ وسبعين، ظنوا أن عندهم من القدرة، والمُكنة، أن يقضوا على من حولهم، على الأقل من المشاغبين، أو من أعداء الدعوة، ورؤوس قريشٍ، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يأذن لهم، وفي هذا درسٌ بليغٌ للشباب وللإخوة والأخوات، الذين يستعجلون بعض الأفعال، في غير وقتها وأوانها، فتجد يقول: أنا قويٌّ، أنا قادرٌ، أنا ممكن ترى بحركةٍ معينةٍ وكذا، أقتل هذا العدو، قد يكون في بلدٍ آخر، يعني لاحظوا هؤلاء الصحب الكرام كانوا في مكة، وهم من المدينة، وهم بالنسبة للكفار قلةٌ قليلةٌ، وهو في الليل يستطيع أن يقتل رجلًا، لا أحد يراه، كذا، وهؤلاء السبعون، أو الخمسة وسبعون يستطيعون أن يقتلوا عددًا من هؤلاء ثم يهربون، ثم ماذا؟ هل هذا يخدم الدعوة؟
الجواب: لا، ولذلك ليست العبرة بأنك تقتل كافرًا، أو تقتل عدوًّا، العبرة هل هذا فيه مصلحة للدعوة أم لا؟ قد تقول: من الذي يضبط هذه المصلحة؟ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، وأهل الذكر هنا كل من له علمٌ بمجريات الأمور، والأحداث، سواءٌ كان عالمًا شرعيًّا، أو خبيرًا سياسيًّا، أو خبيرًا اجتماعيًّا، أو خبيرًا كما يُقال بالعلاقات الدولية وغير ذلك، كل هؤلاء هم أهلٌ بمجموعهم أن يُستشاروا في هذا العمل، يصلح أو لا يصلح؛ لأنه ليس الغرض أن نشفي ما في صدورنا فقط، شفاء ما في الصدر مطلبٌ ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14]، لكن ننظر في المصلحة الكبرى للدعوة، هل هذا يحقق المقصود أو لا، ولهذا نهاهم النبي -عليه الصلاة والسلام-، وكان بإمكانه أن يقول: بلى، اقتلوهم، يستحقون، عادونا، وفعلوا، وفعلوا، لكن لم يأذن الله -جلَّ وعلَا- بذلك.
- الآن انقطع الوحي، ليس عندنا وحيٌ، إذن بم نرجع؟ نرجع إلى من ورثوا النبي -صلى الله عليه وسلم- في علمه، علماء الشريعة، ومن يحتاجون إليه في التخصصات ذات الأثر في الفتوى، الخبراء السياسيين، الخبراء الاقتصاديين، الخبراء الاجتماعيين، الخبراء، الخبراء، إلى آخره، فيستفاد منهم في تقدير هذه الأمور.

- قال -رحمه الله-: "بل أذن النبي -صلى الله عليه وسلم- للمسلمين بعدها من أهل مكة في الهجرة إلى المدينة، فبادر الناس إلى ذلك، فكان "أول من خرج إلى المدينة من أهل مكة، أبو سلمة بن عبد الأسد". وهو زوج أم سلمة -رضي الله عنها- الأول.
- الآن الأولية ذات هاجسٍ عند كثيرٍ من الشباب والفتيات، أم لا؟ وده يكون أول من أول أول أول، انظر التاريخ يسجِّل الأوليات، لكن إياك أن تُسجَّل من الأولين في الفجور، أو في الشر، أو في صرف الناس عن الخير، أو أول واحدٍ فعل كذا من الأمور التي هي من تفاهات الأمور، أنت تكتب تاريخك بأفعالك، فانتبه! لا تكتب فيه إلا ما يسرك إذا كبرتَ أن تلقاه، وأقول أو يسرك إذا لقيتَ الله -جلَّ وعلَا- أن يُكتب في ميزان حسناتك.
- يقول: "خرج هو وامرأته أم سلمة، فاحتبستْ دونه، ومُنعتْ سنةً من اللحاق به".
- إذن هنا نوعٌ من التعب الجديد على أبي سلمة، تصور واحدًا يهاجر، ومعه زوجته، ثم يُحال بينه وبينها، هذا أذًى آخر نفسيٌّ شديدٌ، لكن إذا كان في ذات الله فهو حلوٌ، وأيضًا هنا نلحظ أنه قال: "ومُنعت سنةً من اللحاق به، وحيل بينها وبين ولدها أيضًا" لاحظ العذاب الثاني النفسي.
- "ثم خرجت بعد السنة بولدها إلى المدينة، وشيَّعها عثمان بن طلحة، ويُقال: إن أبا سلمة هاجر قبل العقبة الأخيرة، فالله أعلم".
- هنا وقفةٌ مع أثر المرأة، في إعانة زوجها في الدعوة إلى الله -جلَّ وعلَا-، والصبر على الأذى، بعض الأخوات ممن يُكرمها الله -جلَّ وعلَا- بزوجٍ له اهتمامٌ بالدعوة، قد تضجر من سفره، وذهابه، وانشغاله بالدعوة، فنقول لها: دونك هذه الأمثلة، زوجك لم يُحل بينك وبينه، بل يخرج براحته، يسافر، ويضرب في أرض الله -جلَّ وعلَا-، فكوني عونًا له.
- قال -رحمه الله-: "ثم خرج الناس أرسالًا يتبع بعضهم بعضًا". يعني تتابعوا، ثم انتقل بعد ذلك إلى بدء قصة هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لاحظوا الآن عندنا قسمان من المهاجرين، أو قسمان من الذين سبقوا النبي -صلى الله عليه وسلم- من المدينة، القسم الأول: أهل المدينة الذين بايعوه من الأنصار، هؤلاء رجعوا إلى بلدهم الأصلية، القسم الثاني: طلائع المهاجرين من أصحابه المكيين، من مختلف بطون قريش، هؤلاء كلهم سبقوه، إلا قلةٌ قليلةٌ من المستضعفين الذين لا يستطيعون كما قال الله -جلَّ وعلَا- هجرةً ولا يهتدون سبيلًا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 98] فبقوا.
- فقال -رحمه الله- هنا: "ولم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر، وعليٌّ -رضي الله تعالى عنهما-".
- لاحظ، أقام بأمره لهما، وخلا، أي بقي من اعتقله المشركون كُرهًا، وقد أعد أبو بكر -رضي الله عنه- جهازه، وجهاز رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منتظرًا حتى يأذن الله -جلَّ وعلَا- لرسوله في الخروج.
- لاحظوا المؤلف طوى شيئًا من قصة الهجرة هنا، دعونا نذكرها -إن شاء الله- بعد قليل، ننتقل إلى القصة هذه، ثم أعود إلى ما أريد أن أعلق عليه.
- يقول: فلما كانت ليلة همَّ المشركون بالفتك برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كيف هموا؟ اجتمعوا وقرروا أن يقتلوا النبي -عليه الصلاة والسلام-، كما يُعبَّر بالتعبير المعاصر "التصفية الجسدية". عجزوا عن مقارعة

الحجة بالحجة، ومقابلة البرهان بالبرهان، ورأوا أن الإسلام يفشو، وهكذا عادة الطغاة، إذا عجزوا عن مواجهة الحجة بالحجة، لجأوا إلى القتل، كما قال فرعون لموسى قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: 26]، يعني جالس يصلح؟ لا، لكن هكذا حجج هؤلاء الطغاة، تجدهم يعجزون عن مقابلة الحجة بالحجة، فيلجأون إلى البطش، هؤلاء كذلك، سلكوا نفس الطريقة، كما قال الله -جلَّ وعلَا-: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: 53].

- فهمُّوا بالفتك بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأرصدوا على الباب مجموعةً من الشباب، ومجموعةً من الرجال، الاتفاق ما هو؟ أنه إذا خرج من الباب يقتلوه بضربةٍ واحدةٍ، بعدة أسيافٍ، ليتفرق دمه في القبائل، فلا يمكن مطالبة قبيلةً دون قبيلةٍ، لماذا؟ لأنهم يقولون: ما يُدرى من قتله، تكاثرت عليه السيوف، فلا يُدرى من الذي قتله.
- قال -رحمه الله-: "فلما خرج عليهم، لم يره منهم أحدٌ ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9]"، **يقول: وقد جاء في حديثٍ، كأنه يشير إلى عدم قوته، يقول: " أنه ذرَّ على رأس كل واحدٍ منهم ترابًا، ثم خلص إلى بيت أبي بكر -رضي الله عنه-. إلى آخره.**
- إذن هنا من الفوائد في هذه القصة: هو أن النبي -عليه الصلاة والسلام- في هذه القصة، المؤلف طوى شيئًا منها، وهو أنه جعل في مكانه عليًّا -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، وهو فعل الأسباب، ما هو فعل الأسباب الذي وقع هنا؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- أنام في مكانه عليًّا -رضي الله عنه-، من أجل إيهام المشركين أن هناك إنسانًا مازال في الفراش، فلما أذن الله له بالخروج، خرج فأعمى الله أبصارهم، فلما تجاوزهم، زالت عنهم الغشاوة، وكانوا ينظرون من فتحةٍ في الباب، فقالوا: مازال في مكانه.
- وتقول الرواية، والله أعلم بصحتها: "إن بعضهم لمس شعره، فوجد ترابًا، قالوا: لقد خرج من بين أيديكم، فقالوا: انظروا مازال في فراشه". على كل حالٍ، هذا من صنع الله -جلَّ وعلَا- له، ومن الأشياء التي فعلها النبي -عليه الصلاة والسلام- قبل الهجرة، وهذا انتبهوا له، أنه ردَّ الأمانات لأهلها، أو أمر من يرد الأمانات لأهلها.
- يكون بيني وبين ناسٍ خصومةٌ، لا يعني أن أعتدي على أموالهم، ولا أن أبغي عليها، ولا أن أسيء إلى دعوتي بأخذ أموالهم بغير حقٍّ، لا، بل هذا نوعٌ من أنواع الدعوة، رسالةٌ من الرسائل التي يرسلها الداعية إلى الله -جلَّ وعلَا-، لمن حوله، أنني أصدق مع الله -جلَّ وعلَا-، وأصدق مع الناس حتى ولو كانوا خصومي، ولا أخسر أخلاقي، حتى ولو كنتُ في حربٍ، ولو كنتُ في خصومةٍ، فأنا عندي مبادئ وأسسٌ لا أتنازل عنها، حتى ولو كنتُ مع خصمي، ولهذا العرب ترى يوجد منهم ما يوجد لكن هناك معايير معينةٌ، لاحظوا هؤلاء، مع أنهم يهمون بالقتل، لكن عندهم خطٌّ أحمر للمروءة، منعتهم من أن يقتحموا الباب، ويقتلوه في فراشه، لاحظتم، فهناك خطوطٌ حمراء، لا يتجاوزونها، مع أن المسألة فيه تخطيط التصفية الجسدية، لكن هناك خطوطٌ حمراء.
- **يقول -رحمه الله-: "ثم خَلُصَ إلى بيت أبي بكر -رضي الله عنه-، فخرجا من خوْخةٍ في دار أبي بكر ليلًا".**
- **يقول: "خرجا من خوْخةٍ".** ما الخوْخة؟ هذه فتحةٌ طريقها صغيرٌ بين بيتين، أشبه ما تكون بالطريق الصغير نحن نسميه في اللهجة الدارجة "سُويق"، ليس سوقًا ولا طريقًا، هو طريقٌ صغيرٌ يكون بين بيتين، تسمى الخوْخة، وهذه الخوْخة هي التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكرها، وليست هي، لكن لما كان في

المدينة، وسكن أبو بكر في المدينة، كان هناك عدة خوْخاتٍ، يعني طرقٍ صغيرةٍ، جواد صغيرةٍ تأتي، أو تُفضي إلى المسجد النبوي الشريف، فقال -عليه الصلاة والسلام-، يعني الآن أوضح للإخوة، يكونوا معي الآن، لتوضيح فكرة الخوخة، الآن هذا المسجد النبوي الشريف، نفترض أن الكتاب الآن هذا المسجد النبوي، هناك عدة خوخاتٍ تدخل إلى المسجد النبوي من جواد صغيرةٍ، فتحاتٍ صغيرةٍ، البيوت على جنبات المسجد، وكل بيتٍ له طريقٌ صغيرٌ إلى المسجد، ففي آخر حياته -عليه الصلاة والسلام- قال: **«لا تبقين خوخةً»** يعني طريقًا صغيرًا، **«إلا سُدَّت، إلا خوخة أبي بكر -رضي الله عنه-»** ، والآن تجدها في المسجد النبوي، في الجهة الغربية، يعني أنت إذا صليتَ جهة الكعبة، الجهة الجنوب، يعني لو فرضنا الآن أن المسجد النبوي بهذا الشكل، الجهة هكذا، ستجد خوخة أبي بكر من هذه الجهة، على يمينك، وأنت متجهٌ إلى القبلة، في البناية العثمانية، وتجد هناك موجودٌ خوخة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، موجودةٌ، مازال الاسم موجودًا، لكن البناء طبعًا انتهى وزال.

- هنا خوخةٌ، وهناك خوخةٌ، لتعلم بركة هذا الرجل، وأثره في الأمة، وأثره في الدعوة إلى الله -رضي الله عنه وأرضاه-.
- **يقول: "فخرجا من خوخةٍ في دار أبي بكر ليلًا، وقد استأجرا عبد الله بن أريقط، وكان هاديًا خِرِّيْتًا".** ما معنى الخِرِّيت؟ أي: العارف بالطرق والجواد.
- **يقول: "ماهرًا بالدلالة إلى أرض المدينة، وأمناه على ذلك مع أنه كان على دين قومه، وسلما إليه راحلتهما، وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاثٍ".**
- إذن هنا من فوائد هذه القصة، أمورٌ: أولًا: السرية التامة في الأمور المهمة، التي تتعلق بالدعوة، النبي -عليه الصلاة والسلام- لما جاء إلى أبي بكر في ضحوة النهار، وجد عنده بعض أبنائه، وقال: **«أخرج من عندك يا أبا بكر»**، قال: إنما هم أهلك يا رسول الله، ما عندي أحدٌ، والذين عندي لاحظ رباهم أبو بكر على كتم الأسرار، فقال: **«إنه قد أُذن لي بالهجرة»** ، فقال: الصحبة يا رسول الله، فقال: **«نعم»**، فقال: عندي راحلتان، فقال: **«بالثمن»**، لماذا؟ لأن الهجرة عبادةٌ، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يريد أن يكون لأحدٍ عليه منة في العبادة، ولهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر فضل أبي بكر في آخر حياته وقال: **«إن أمنَّ الناس عليه في صحبتي: أبو بكر، ولو كنت متخذًا أحدًا من أهل الأرض خليلًا، لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ولكن صاحبكم»** يعني نفسه **«خليل الرحمن»**، -صلى الله عليه وسلم-.
- فأعطيا الراحلتين عبد الله بن أريقط، وفي هذا فائدةٌ، وهو أنه: يجوز استعمال المشرك إذا كان مأمونًا، والقضية الآن خطيرةٌ الآن، قضية تحولٍ وانتقالٍ، وفي هذا أيضًا من الفوائد: توزيع المهام، لأنه سيأتي معنا بعد قليلٍ: أن أبا بكر أعطى عامر بن فهيرة الماشية والغنم يرعاها، ليستفيدوا منها في طريقهم، واستفاد أيضًا من عبد الله بن أريقط، هذه من فوائد هذه القطعة.
- **يقول -رحمه الله-: "وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاثٍ".** غار ثورٍ لاحظوا الآن سأريكم الخريطة، هنا الآن مكة، مكة في الحبة الصفراء التي عليها المؤشر، جبل ثورٍ، هذا الذي تحت الدائرة الصفراء، طريق الهجرة، لاحظوا، هو ذلك اللون الأخضر، انتبهوا الآن لنعرف كيف خرج النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا الطريق الأخضر، الذي باللون الأخضر، هو طريقه -عليه الصلاة والسلام-، بينما الطريق الذي باللون البرتقالي هذا هو طريق القوافل

المعتاد، لاحظ كيف التخطيط لعدم السير في الطريق الأصلي، وهذا من فعل الأسباب، وتعمية العيون، وتعمية الأعداء، أو إبعاد الأعداء عن استهدافه -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا يدل ماذا؟ يعني ما أحد يتهور، ويقول: أنا تقيٌّ، وأنا صالحٌ، وأنا وأنا، ما أحد أتقى من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومع ذلك فعل الأسباب، اختفى في الغار، وخالف الطريق، واتخذ دليلًا وَخِرِّيْتًا، واتخذ صاحبًا، وأعدَّ الرواحل، وفي هذا كله ردٌّ على أولئك الذين يزعمون أنهم متوكلون، وإنما هم متواكلون، كما نقدهم وذمَّهم الإمام أحمد وغيره، ممن يسيرون في المسافات الطويلة، إلى الحج، أو في الصحاري وكذا، ويقولون: نتوكل على الله، الله سيرزقنا، مثل ما يرزق الطير، هذا ليس بصحيحٍ، هذا مفهومٌ خاطئٌ للتوكل، هم في الحقيقة يسيرون، ونفوسهم متطلعةٌ إلى بشرٍ يعطيهم، يُظهر نفسه بمظهر الزهد والمسكنة، وشيءٍ من هذا القبيل، من أجل أن يلتفت له أحدٌ ويعطيه، هذا غلطٌ، هذا ليس توكلًا، وسيد المتوكلين -صلى الله عليه وسلم- فعل هذه الأسباب، وفي غزوة أحدٍ، ظاهر بين درعين، لبس لِبستين كلها من حديدٍ، من أجل اتقاء السهام والرماح وغير ذلك، فالتوكل الحق على الله -جلَّ وعلَا- هو اعتماد القلب على الله، مع فعل الأسباب المشروعة، ولا يتعلق قلبك بها، إنما تفعلها وتتوكل على الله؛ لأنه هو الذي يُمضي الأسباب ويمنعها، -سبحانه وتعالى-.

- **ثم قال -رحمه الله-: "فلما حصلا في الغار"، يعني بقيا في الغار، "عمَّى الله على قريشٍ خبرهما"،** فلم يدروا أين ذهبا".
- لماذا لم يدروا؟ لاحظوا الخريطة، التي رأيناها قبل قليلٍ، المتوقع أنه إذا كان يخرج من مكة، أين يذهب؟ مع هذا الطريق، أليس كذلك؟ البرتقالي الذي ترونه، لأن هذه مكة الآن، الذي يذهب إلى المدينة إلى جهة الشمال، النبي -صلى الله عليه وسلم- ذهب إلى جهة الجنوب، وهذا من التخطيط، أن تخالف أو أن تسير في طريقٍ خلاف ما يتوقع عدوك، هذا خطٌّ سير الهجرة، فلما بقي ثلاثة أيامٍ في هذه الفترة هم قطعًا أعني كفار قريش، سيرسلون في جهة الشمال أعينًا، وفرسانًا، وأناسًا، سيسيرون مسافاتٍ لن يجدوا شيئًا، أين ذهبوا؟ أين اختفوا؟ هم في غار ثورٍ، إذا جئت من جهة السيل، من جهة الطائف، هناك غار حراء عفوًا، لكن ستجد جبل ثورٍ هذا أيضًا في جنوب مكة، جنوبها يسيرًا، ثم لما بقي ثلاثة أيامٍ، وخفَّ الطلب في تلك الجهة خرج، لكن لم يخرج أيضًا مع الطريق المعتاد، بل سلك طريقًا آخر، غير الطريق الذي يسير فيه الناس عادةً.
- **يقول -رحمه الله-: "وكان عامر بن فهيرة يريح عليهما غنمًا لأبي بكر، وكانت أسماء بنت أبي بكر تحمل الزاد لهما إلى الغار".**
- يا نساء المسلمات، هذه أسماء كان لها دورٌ بارزٌ في خدمة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر، خدمةً مبكرةً في أوائل الدعوة، فليكن لكن بصماتٌ في الدعوة، وليس بالضرورة أن تشتهرن، ليس بالضرورة أن تظهر أسماؤكن في مواقع الإنترنت أو التواصل، أو يُشاد بكنَّ، أو تظهرن كما يُقال بفلاشات الإعلام، يكفي أن الله -جلَّ وعلَا- يعلم جهدكن وجهادكن، أخرجوا لنا رجالًا يحملون همَّ هذا الدين، أعينوا أزواجكم الدعاة، وطلاب العلم، على المضي في مسيرتهم، فإن ذلك أمرٌ وشأنٌ عظيمٌ.
- **يقول: "وكان عبد الله بن أبي بكر"** هذا ابن أبي بكر **"يتسمَّع ما يُقال بمكة"،** إذن هذا أحد الأسباب، وهو من ينقل الأخبار التي تعين على التوقي، ثم يذهب إليهما بذلك فيحترزان منه، يعني بعد ما تأتيه الأخبار، ينقلان بحيث يتهيئون.

- يقول ابن كثيرٍ: "وجاء المشركون" ملوا المشركين من المنطقة الشمالية لجهة المدينة، فبدؤوا يبحثون في المناطق الأخرى، فجاء المشركون في طلبهما إلى ثورٍ، أي إلى الجبل، وما هناك من الأماكن" عملية تفتيشٍ وبحثٍ وتحريٍّ، حتى إنهم مروا على باب الغار، وحازت أقدامهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصاحبه، وعمَّى الله عليهم باب الغار، من الحافظ؟ الله، من الناصر؟ الله، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- فعل كل هذه الأسباب وتوكل عليه.
- هنا أبو بكر -رضي الله عنه- خاف على النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقال: يا رسول الله، وصلوا إلى قرب الفتحة، والله يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا، هنا بكل ثقةٍ، يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما؟» ، سبحان الله، هذا اليقين، وهذه الثقة، فأعمى الله -جلَّ وعلَا- أبصارهم، فلم يروا شيئًا، وصرفهم الله -سبحانه وتعالى-.
- ابن كثيرٍ لاحظوا عبارته الآن، في قوله هنا: "ويقال"، أنا وضعتها باللون الأحمر، من أجل أن تعرفوا أن ابن كثيرٍ يشير بذلك إلى الضعف، وهذه من المواضع التي حررها، أو يتميز بها كتاب ابن كثيرٍ، وهي: التحقيق في عددٍ من المسائل، قال: "ويُقال، والله أعلم، إن العنكبوت بنَتْ، أو سدَّتْ على باب الغار، وأن حمامتيْن عشعشتا على بابه، وذلك تأويل قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 40] إلى آخر الآية".
- لماذا قال: "ويقال"؟ يشير إلى ضعف الخبر، هذه واحدةٌ. الثاني: أنه هو -رحمه الله- في "البداية والنهاية"، لما ساق هذه القصة، قال: حديثها غريبٌ جدًّا، وهذه القصة مشهورةٌ جدًّا، ومع شهرتها لا تصح، ما هي؟ قصة أن العنكبوت نسجتْ خيوطها، وأن الحمامتيْن بنَتا العش، وباضتا حول الفتحة؛ لتوهما القادم بأن هذا المكان لم يُدخل من قريبٍ، لو دُخل، لهُتكتْ شبكة العنكبوت، ولانتهت أعشاش الحمام.
- نحن مؤمنون بأن الله -جلَّ وعلَا- على كل شيءٍ، لكن نحتاج إلى سندٍ فقط، لو صحَّ السند، لقلنا إن الله قادرٌ، كما قلنا قبل قليلٍ، أو قبل درسٍ ماضٍ إن الله -جلَّ وعلَا- نقل رسوله -عليه الصلاة والسلام- في ليلةٍ من مكة إلى القدس، ومن القدس صعدوا إلى السماء، الله قادرٌ على أن يجعل العنكبوت تنسج في ثوانٍ، والبيض يأتي بسرعةٍ، لكن لم يثبت في ذلك خبرٌ، ولذلك نحن في مثل هذا، لسنا بحاجةٍ أن نثبت هذه القصة أو ننفيها، لنثبت مثلًا نصرة الله لنبيه، فالله -جلَّ وعلَا- حافظ نبيه وناصره بأمور كثيرة جدًّا.
- ومما يدل حقيقة على ضعف هذه القصة: يعني أقول قد تكون قرينةً، بالإضافة إلى ما تقدم من السند، أن الله -جلَّ وعلَا- يقول: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 40]، لو كان البيض وُجد، والعنكبوت نُسج، لكانت هذه من الجنود التي رأوها، والله -جلَّ وعلَا-، وهذه آيةٌ عظيمةٌ جدًّا، تبشِّر كل من استقام على أمر الله، ونصر دين الله حقًّا، أنك إذا فعلتَ ما أُمرتَ به، واستقمتَ كما أُمرتَ، فإن الله -جلَّ وعلَا- يؤيدك بجنودٍ لا تخطر لك على بال، فالله تعالى لما ذكر آية الفتح، قال في موضعين: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: 4]، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: 7]، وفي سورة المدثر: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31].
- الله -جلَّ وعلَا- من جنوده ما هو ماديٌّ، يعني شيءٌ محسوسٌ، ومنه ما هو معنويٌّ، من الأمور المعنوية، ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم-: «نُصرتُ بالرعب مسيرة شهرٍ» ، لكن هذا لمن استقام على أمر الله، وأمر

رسوله -عليه الصلاة والسلام-، ومن الجنود الحسية، ما وقع في غزوة الأحزاب، ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ﴾ [الأحزاب: 10] قبلها قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: 9]، هذه ريحٌ مُبصرةٌ، وجنودًا لم تروها الملائكة، فقلعت الخيام، وأكفأت القدور، وكما قال الله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: 25]، لكن متى يحصل هذا؟ إذا استقام المسلمون على أمرهم، أما وهم متناحرون، متنازعون، بعضهم يكيد لبعضٍ، بعضهم يحقد على بعضٍ، وهكذا، فإنه لا يأتي النصر لأناسٍ هذا حالهم، والله المستعان.

- ثم قال -رحمه الله-: "وذلك أن أبا بكر -رضي الله عنه- لشدة حرصه بكى حين مر المشركون، وقال: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر موضع قدميه لرآنا، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما»، وهذا الموضع أحد المواضع التي يحتج بها الأئمة على أن أبا بكرٍ أفضل هذه الأمة بعد نبيها -عليه الصلاة والسلام-، وهو من أعظم ما يُردُّ به على أهل البدع، لا يوجد أحدٌ يستطيع أن يقول: إن الذي مع النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا غير أبي بكر، أبدًا، وهذه من المواضع الواضحة في الثناء على هذا الإمام الجليل -رضي الله عنه وأرضاه-.
- يقول: "ولما كان بعد الثلاث ليالٍ، أتى ابن أريقط" الذي هو عبد الله بن أريقط الديلي، " الراحلتين، فركباهما، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة" الذي هو مولاه، "وسار الديلي أمامهما على راحلته، وجعلت قريش لمن جاء بواحدٍ من محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وأبي بكر -رضي الله عنه- مائةً من الإبل، فلما مروا بحي مُدلج"، جماعة من؟ سراقة بن مالك المدلجي، "وكان سيد مدلج".
- يقول: قريش، ما هي الجائزة التي أُعلنتْ؟ مائةٌ من الإبل، لمن يأتي بالنبي -صلى الله عليه وسلم- حيًّا أو ميِّتًا، لاحظ، هنا الآن العدو لما عجز بنفسه صار يُغري غيره، ويُعطي الجوائز الكبيرة من أجل القضاء على رأس الدعوة في ذلك الوقت، رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو على صاحبه أيضًا أبي بكر.
- يقول: "فركب جواده وسار في طلبهم، وكان فارسًا، فلما قرب منهم سمع قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأبو بكر -رضي الله عنه- يُكثر الالتفات؛ حذرًا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو -صلى الله عليه وسلم- لا يلتفت"، لاحظوا هنا أنا وضعتُ خطًّا عمدًا على كلمة: "وهو -صلى الله عليه وسلم- لا يلتفت"، فقال أبو بكر: "يا رسول الله، هذا سراقة"، إلى آخره.
- جاء في صفته -صلوات الله وسلامه عليه- أنه إذا مشى لا يلتفت، طيب ماذا يصنع إذا ناداه أحدٌ؟ يقف، حتى يأتي ذلك المنادي، وهذا مهمٌّ جدًّا في لحظات الفرار من العدو والخصم، فالله تعالى لما أرسل الملائكة إلى لوطٍ -عليه الصلاة والسلام-، قالوا له: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: 65]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: 81]، إذن وأنت تسير في طريق الدعوة، إياك من الالتفات الحسي، والالتفات المعنوي، بل امض في طريقك، أما الالتفات الحسي، لأنه يؤخر، وكل التفاتةٍ على حساب الوقت، الالتفات المعنوي، الإنسان في طريق الدعوة قد يسمع من يشتمه، من يسخر به، من من، من، فإن أكثرتَ من الإصغاء إليهم، وهو التفاتٌ معنويٌّ، ستتعب، ويتعب قلبك، إذن ماذا تصنع؟ امض واتركهم، فإن كان مما ذُكر شيءٌ فعلًا خطأٌ وقعت فيه، فصحح، وإن كان مجرد بغيٍ

وعدوانٍ، فاتركه وامض ولا تلتفت أيضًا، فنحن نستفيد من هذا الدرس العظيم: أن لا يُكثِر الداعي من الالتفات؛ لأنك إذا التفت تأخرت، وطريق الدعوة طويلٌ، ويحتاج إلى نفس وجهد.

- **فقال أبو بكر: "يا رسول الله، هذا سراقة بن مالك قد رهقنا".** يعني أدركنا، فدعا عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فساخت يدا فرسه في الأرض، وهذه من آيات الله التي أعطاها الرسول -عليه الصلاة والسلام-.
- لاحظ سراقة نفسه قال: **"رُميتُ، أو قد علمتُ أن الذي أصابني بدعائكما، فادعو الله لي، ولكما عليَّ أن أرد الناس عنكما".** وهذه الرواية عند البيهقي وغيره، وإلا أن قصة سراقة ثابتةٌ في الصحيح، أصل القصة، لكن التفاصيل هذه خارج الصحيح، عند البيهقي وغيره في "دلائل النبوة"، يقول: "فدعا له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأُطلق"، كانت الفرس ساختْ، مع أن الأرض أقرب إلى الجبلية، في أول الأمر جبليةٌ، لكن إذا جاء أمر الله لا يقف أمامه لا سهلٌ ولا جبلٌ، ولا برٌّ ولا بحرٌ، فساخت قدما الفرس، فتعطل، فعرف أنه أصيب بدعوةٍ، كما ذكر ابن كثير، ولكن انظر إلى شهامة هذا الرجل، وهذه كما أشرت إليها، العرب عندهم خطوطٌ حمراء، مادام أعطى عهدًا لا يغدر به، ولذلك من أعظم العيوب عند العرب: أن يغدر الإنسان بالعهد، وقد جعله النبي -صلى الله عليه وسلم- من صفات المنافقين: **«وإذا عاهد غدر»**، فوفَّى سراقة، لكنه في تلك اللحظة كما ذكر البيهقي وغيره، كأنه أنِس من هذا المشهد، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- منتصرٌ، لا محالة، مادام أن هذه العقوبة جاءته في أرضٍ جبليةٍ، وتسيخ الأرض، فمعنى هذا أن أعداءه سيتعرقلون، وأنه سيمضي هو وينتشر دينه، فكأنه لمح شيئًا من قيام دولةٍ مسلمةٍ، وسيأتيها رزقها، فقال: أعطني كتابًا، فأعطاه النبي -عليه الصلاة والسلام- كتابًا في جلدٍ، هذا معنى قوله: "فكتب له أبو بكر في كتابًا من أدمٍ، ورجع يقول للناس"، لاحظوا كيف أن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الكافر أيضًا، "ورجع يقول للناس: قد كُفيتم هاهنا"، هذه الجهة ما فيها أحدٌ، فكُفي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: قال الله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 137]، يسمع ما يقولون، ويعلم ما يدبرون، وهنا عبرةٌ أنا أضفتها عندكم باللون الأخضر، قد ينصر الله -جلَّ وعلَا- الذين برجلٍ كافرٍ أو فاجرٍ، فلا تستكثر من الأعداء ما استطعت كما ذكرنا في أكثر من مناسبةٍ، بل حيِّدهم حتى تستفيد منهم.
- ثم لم تنته قصة سراقة، بل جاء مسلمًا لكن عام حجة الوداع، وهو الذي قال، لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا»**، فقال سراقة، والحديث في صحيح مسلم: يا رسول الله، أفي كل عامٍ؟ قال له: **«لو قلتُ، لوجبتْ»**، والمعنى أنها في العمر مرةً واحدةً.
- **يقول: "جاء مسلمًا في حجة الوداع، ودفع إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الكتاب الذي كتبه له، فوفَّى له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بما وعده، وهو أهلٌ لذلك".** يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- أهل للوفاء.
- مرت سنين، طبعًا في قصة سراقة هنا مشهدٌ، وهو أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال له: **«كيف بك يا سراقة، إذا لبست سواري كسرى؟»** لاحظوا، رجلٌ يسير في الصحراء الحارقة، همه، أن ينجو بنفسه، ومن معه، رجلٌ أمضه وأنهكه المسير، وفي نفسه أن يبلغ مقصده، ومع ذلك، لاحظ، مطارد، ويلقي هذه البشائر بكل ثقةٍ وطمأنينةٍ، تدور الأيام، وتُفتح المدائن، وتُفتح فارس، فيؤتى بالسوارين، عمر -رضي الله عنه-، وقد كان بلغه هذه الكلمة، فقال: أين سراقة بن مالك، فألبسه إياهما، هما ذهب، أو أعطاه إياهما، ليوقن بموعود رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

- من هو الذي يتحدث بهذه الثقة، في وسط هذه المعمعة من الشدائد والكُرب؟ إلا الذي امتلأ قلبه تفاؤلًا، وأنا أقول للإخوة والأخوات: لا نقنط ولا نيأس مهما اشتدتْ الكربات على أهل الإسلام، هذا دين الله، الخاتم، الذي أذن بنصره، وأذن بانتشاره، كما في حديث تميم الداري: **«ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدرٍ ولا وبرٍ»** ، يعني لا في البر، ولا في البحر **«إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيزٍ، أو بذل ذليلٍ، عزًّا يعز الله به الإسلام وأهله، وذُلًا يُذل الله به الكفر وأهله»**.
- الشأن ما هو يا إخوة، ويا أخوات؟ هل نحن حجزنا لأنفسنا مقاعد في هذا المركب الذي ينصر الله به دينه والقطار الذي يسير لنصرة الدين؟ أم لا؟ ما هي الخسارة ؟ الخسارة أن تكون في مؤخرة الركب، أو أن تكون على هامش الحياة، تعيش ثلاثين أربعين سنةً، ليس لك أي بصمةٌ مؤثرةٌ في واقعك، ولا في خدمة الدين، ولا في نصرته، هذه هي المصيبة.
- هنا أيضًا نقطةٌ أخرى تتعلق بقضية سراقة: في مسير النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة، تذكرون مر معنا أنه سار إلى المدينة لزيارة أخواله، لما كان برفقة أمه؛ لأن أباه مات وهو حملٌ على الصحيح، والأشهر عند المؤرخين، وأمه ماتت، وعمره ست أو ثمان سوات، كان صغيرًا، بعد ما بلغ كان عمره ست سنواتٍ، بعد قرابة ثمان وأربعين، أو سبع وأربعين سنةً من ذلك المسير الأول، هاهو يخرج اليوم لكنه يخرج مطاردًا، -صلوات ربي وسلامه عليه-، يعني خرج من مكة، وهي التي طردته، وآذته، وهو متجهٌ، وقلبه وعيناه ترنوان إلى المدينة، التي طربت، واهتزت لقدومه فرحًا -صلوات ربي وسلامه عليه-، وحُقَّ لها ولأهلها.
- ثم قال -رحمه الله-: **"ومر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مسيره ذلك بخيمتي أم معبدٍ، فقال عندها"**. ما معنى "قال"؟ يعني: استراح وقت القيلولة.
- وهذه القصة مشهورةٌ جدًّا، يقول ابن كثير -رحمه الله- في "البداية": "إن لها طُرُقًا يشد بعضها بعضًا" لأن بعض العلماء يُضعِّفها، وبعضهم يُثبتها، لكنها مشهورةٌ جدًّا عند المؤرخين، وفيها: أن الله -جلَّ وعلَا- أجرى على يديه في هذه القصة آياتٍ من آيات الله، وجد الغنم والمعزة هزالًا، فلما أُتي به، قال: **«هل عندكِ شيءٌ؟»**، قالت: لم نُسْقَ العام، العام مُجدبٌ، فجفَّ الضَّرع، وقلَّ الزرع إلى آخره، فنادى بإحدى الشياة، فسمى بالله، ومسح ضرعها، فدرت حليبًا، هذه القصة، وهذا مضمونها، فشرب، وسقى، وسقى من معه، وسقى الأم، وكان أبو معبدٍ قد غاب، فلما جاء، سألها: هل حدث شيءٌ عندكِ أم لا؟
- فأخبرته بهذه القصة، قال: والله هذا الرجل، هذا محمدٌ الذي تطلبه قريش، لكن بعد ما مشى وسار، وفي ذلك أبياتٌ وأشعارٌ مشهورةٌ في هذه القصة.
- على كل حالٍ، يقول: **"ورأت من آيات نبوته في الشاة وحلبها لبنًا كثيرًا في سنةٍ مُجدبةٍ، ما بهر العقول -صلى الله عليه وسلم-"**.
- ثم قال -رحمه الله-: **"فصلٌ في دخوله -عليه الصلاة والسلام- المدينة"**.
- هنا الأنصار -رضي الله عنهم- بلغهم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج من مكة، وأنه جاء متجهًا قاصدًا إليهم، وكانوا يعني تعرفون لما بلغت الأخبار أن الرسول خرج وكذا، هما بقي في غار ثورٍ ثلاثة أيامٍ، هذه من المدة، والسير من مكة إلى المدينة عادةً يأخذ قرابة عشرة أيامٍ، لاحظ، لو ورد عليك في السيرة مسيرة يومٍ

وليلةٍ، هي من أربعين إلى خمسةٍ وأربعين كيلو، في المقاسات المعاصرة، ومكة والمدينة الآن بينهما قرابة أربعمائة كيلو، فاحسب لكل يومٍ أربعين كيلو، في السير العادي، وأضف معها ثلاثة أيامٍ في غار ثورٍ، ثلاثة عشر يومًا.

- "فلما تحيَّنوا كانوا يخرجون"، ما جاء اليوم الأول، الثاني، الثالث، إلى آخره.
- يقول: "فكانوا يخرجون إلى الحرَّة ينتظرونه"، وهنا اشتهر أن الأنصار لما قَدِمَ عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا يقولون القصة المشهورة: طلع البدر علينا، من ثنيات الوداع، وجب الشكر علينا ما دعا لله داع إلى آخره، وقد أنكر ابن القيم -رحمه الله- وجماعةٌ من المحققين أن تكون هذه القصة في مقدمهم من مكة إلى المدينة، وإنما كانت في مقدمه من تبوك إلى المدينة، بعد الغزوة، بعد غزوة تبوك، وهذا هو الصحيح، أن هذه القصة كانت بعد قدومه من غزوة تبوك سنة تسعٍ.
- ثم قال -رحمه الله-: "فلما كان اليوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر سنةً، من نبوته، وافاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين اشتد الضحى، وكان قد خرج الأنصار يومئذٍ، فلما طال عليهم، رجعوا إلى بيوتهم"، يعني في ذلك اليوم، الموافق للاثنين من هجرته -عليه الصلاة والسلام-، بقوا إلى أن ارتفع الضحى، ولاحظوا أيها الإخوة، مسيره -عليه الصلاة والسلام- من مكة إلى المدينة، كان في وقت صيفٍ، ولك أن تتصور أن تسير بين هذه المهامه والجبال، والأودية، طريقٌ صعبٌ صعبٌ، ليس بالسهل، لو قُدِّر لك أن تسير عليه بسيارةٍ خارج الخط الرئيسي، لعرفت المشقة، أحدنا يتعب أن يمشي في سيارته خمس ساعاتٍ، أو أربع ساعاتٍ ونصف، وإذا وصل، وإذا هو مجهدٌ، يقول: أحتاج أرتاح، ووصل في أربع ساعاتٍ ونصف، أو خمس، فكيف بالنبي -عليه الصلاة والسلام- الذي كان يقاسي حر الشمس، ولهب الصحراء، ويعيش لحظات، يعني كان ليس مجرد مسافرٍ عاديّ، كان مسافرًا -عليه الصلاة والسلام- وهو يعرف أنه قد أُهدر دمه، وأن القبائل تتطلع إلى قتله -عليه الصلاة والسلام-، مشاعر ليست بالسهلة.
- يقول ابن كثير: "فلما قدم"، يعني ارتفع الضحى، يقول ابن كثير : "رجعوا إلى بيوتهم، فلم يفجئهم، وإلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد دخل المدينة".
- يقول ابن كثير: "فكان أول من بَصُرَ به رجل من اليهود، وكان على سطح أُطُمِهِ"، الأُطُم، هي الأسوار المحيطة بالقصور، فنادى بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا جدكم الذي تنتظرون، تذكرون قلنا قبل قليلٍ أن الأوس والخزرج أمهم ما اسمها؟ قيلة، هي هذه، والعرب عادةً يقولون: يا بني فلان، يا بني ماء السماء، يا بني كذا، هنا قال: يا بني قيلة، ليجمع بين الأوس والخزرج.
- فقال: "يا بني قيلة، هذا جدُّكم" يعني حظكم، وعزكم، لاحظ حتى اليهودي عرف أن مَقدَم النبي -صلى الله عليه وسلم- مَقدَم خيرٍ، لكنهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: 14]، فخرج الأنصار في سلاحهم، فتلقوه، لماذا خرجوا في السلاح؟ لأنهم عاهدوه على النصرة، وخافوا عليه من يهودٍ، قد يأتي يهوديٌّ أو كذا، ثم يؤذيه.
- "ونزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقباء، على كلثومٍ بن الهِدم، وقيل: بل على سعد بن خيثمة، وجاء المسلمون يسلِّمون على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأكثرهم لم يره بعدُ". يا الله، ما أجمله من منظرٍ،

أن تسمع برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تسمع من صفاته، ومن الأذى الذي لحقه، والجهد، والعناء الذي بذله في سبيل الدعوة، ثم تكتحل عيناك برؤيته -عليه الصلاة والسلام-، لحظة لا تُقاس بالدنيا، بل لا يمكن أن توصف أبدًا، ولك أن تتخيل مشهد الأنصار -رضوان الله عليهم وأرضاهم-، وهم يتلقون حبيبهم، الذي امتلأت قلوبهم بحبه -صلوات ربي وسلامه عليه-، فيسلمون عليه، إنه مشهدٌ تضيق عنه العبارة، وتعجز عنه الكلمات، فنسأل الله -جلَّ وعلَا- الذي هدانا لدينه، أن يجمعنا به في جنات النعيم، وأن يرزقنا السير على طريقته أحياءً ويميتنا على ذلك، إنه سميعٌ مجيبٌ.

- قال: **"وأكثرهم لم يره بعد، وكان بعضهم، أو أكثرهم يظنه أبا بكر؛ لكثرة شيبه"**. بينما النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن ذا شيبٍ، بل مات، كما يقول أنس -رضي الله عنه-: وليس في لحيته سوى إحدى وعشرين شعرةً، غالبها في العنفقة، هذه التي تحت الشفة السفلى، انظر فيه رجلٌ في التاريخ، تُعد شعراته البيض؟ إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ما تركوا شيئًا من جسده الشريف، مما يُرى إلى وقد وصفوه، حتى وصفوا الشعر الذي في صدره، وكان على مسربةٍ، يعني كأنه شعر كثيفٌ في الوسط، بينما بقيت بطنه وصدره الشريف -عليه الصلاة والسلام- ليس فيه شيءٌ، وصفوا كل شيءٍ، وصفوا يديه، وكتفيه، ووصفوا وجهه الشريف -عليه الصلاة والسلام-، وكثافة لحيته.
- يقول: **"فكان بعضهم أو أكثرهم يظنه أبا بكر؛ لكثرة شيبه، نظرًا لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أسنُّ من أبي بكر قليلًا"**.
- يقول: **"فلما اشتد الحر قام أبو بكر بثوبٍ -رضوان الله عليهم- يظلل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. يقول: فتحقق الناس حينئذٍ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-"**، يعني عرفوا أن هذا هو النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- بعد هذا تبدأ قصة مسجد قباء، وتأسيس المسجد، ثم بعد ذلك قصة بناء المسجد النبوي الشريف، وبداية الدعوة، ثم الصراع أو الكلام مع اليهود وغيرهم، ثم قصة بدء الجهاد في سبيل الله -تبارك وتعالى-، وهذا كله -بإذن الله- هو مفتتح حلقتنا -إن شاء الله تعالى- القادمة.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس السابع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كان الحديث وقف بنا في الحلقة الماضية، عند مهاجر النبي -عليه الصلاة والسلام-، وتلقي أهل المدينة له، وكان آخر ما توقفنا عنده، قول ابن كثير -رحمه الله-: "فأقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقباء أيامًا" إلى آخره.
- سبق أن الصحابة -رضوان الله عليهم- تلقوا النبي -عليه الصلاة والسلام- حينما علموا بمقدمه من مكة، وكانوا يخرجون أول النهار، بغية تلقيه، حتى إذا ارتفع النهار، واشتد الحر، رجعوا إلى بيوتهم، فلم يرعهم في ذلك اليوم، وهو يوم الاثنين الثاني عشر، من ربيع الأول، إلا ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد دخل المدينة، أو قريبًا من هذا، نعم، في الثاني عشر من ربيع الأول، على رأس سنة ثلاثة عشرة، وهي السنة الأولى من هجرته، ثلاثة عشرة من بعثته، وهي السنة الأولى من مهاجره -صلوات الله وسلامه عليه-.
- تلقوه، وسبق الكلام على أنه نزل على كلثوم بن الهدم -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، وقيل على سعد بن خيثمة. المهم أن النبي -عليه الصلاة والسلام- بقي في قباء أيامًا، ومر معنا أيضًا أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لما دخل المدينة، كان أكثرهم لم يميز النبي -عليه الصلاة والسلام- من أبي بكر، إلا لما رأوا أبا بكر يظلله من الشمس، وهذا قلنا فيه من الدروس ما فيه من التواضع، وأنه -عليه الصلاة والسلام- لم يكن متميزًا ببزةٍ أو هيئةٍ عن غيره.
- فلما بقي -عليه الصلاة والسلام- في قباء أول ما دخل، كما قال ابن كثير هنا، أسس مسجد قباء، ثم ركب -عليه الصلاة والسلام-، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، وهذا أحد بطون الأنصار -رضي الله عنهم-، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، واسم الوادي هذا "رانوناء" كما ذكر ابن كثير هنا، وهو معروفٌ في أهل السير، وسنريكم -إن شاء الله- الآن صورةً بعد قليلٍ توضح موقع هذا الوادي من المدينة النبوية.
- يقول: "ورغب إليه أهل تلك الدار أن ينزل عليهم، فقال: «دعوها إنها مأمورةٌ» " التي هي الناقة، وهذا الحديث مع شهرته، إلا أن في سنده ضعفًا، لكن كما مر معنا في أكثر من مرةٍ، في أبواب السير، يورد العلماء أمثال هذه الأحاديث؛ لأنه لا يترتب عليه حكمٌ، وليست هذه مخالفةً لأحاديث صحاح أخرى، فيتسامح فيها أهل العلم، فيوردونها في مثل هذا الموضع.

- فلما جاءت الناقة موضع المسجد النبوي، الذي أقيم عليه مسجده -صلى الله عليه وسلم-، قبل التوسعات المشهورة هذه، وهي في موضع المنبر الآن، الذي يخطب عليه خطيب الجمعة، في المسجد النبوي، بركت الناقة في هذا الموضع، فاتخذ النبي -عليه الصلاة والسلام- في ذلك الموضع مسجدًا.
- هنا فقط نشير إلى موضع الوادي، الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله تعالى-، وهو كما ترون في هذه الصورة، هنا موقع وادي "رانوناء" الذي أشار إليه المؤلف -رحمه الله تعالى-، هذا هو الوادي، هذا هو موقع وادي "رانوناء"، وهنا إلى جهة الشمال، هنا البقيع، وهنا السنح، وكذلك هنا قريبٌ من هذا الموضع مسجد النبي -عليه الصلاة والسلام-، في هذه الجهة، وقباء هنا، فلما سار النبي -صلى الله عليه وسلم- من قباء، من هذا الموضع، انتقل إلى جهة الشمال، إذا اتجه إلى جهة الشمال تقريبًا، اتجه إلى موضع المسجد النبوي، قبل أن يصل إلى المسجد النبوي، كان هذا موضع الوادي، وهو وادي "رانوناء" الذي عليه المربع الصغير هذا، هذا موضع الوادي الذي مرت به هذه الناقة.
- يقول -رحمه الله-: **"فلما جاءتْ موضع مسجده اليوم بركتْ، ولم ينزل عنها -صلى الله عليه وسلم- حتى نهضت وسارت قليلًا ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وذلك في دار بني النجار، فحمل أبو أيوب -رضي الله عنه- رحْل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى منزله"**. وهذه لاشك أنها منقبةٌ لأبي أيوب، أن يكون هو أول من يضيف النبي -عليه الصلاة والسلام-، ونزل النبي -صلى الله عليه وسلم- في أسفل البيت، وأبو أيوب وزوجته صعدا إلى الأعلى.
- ومما ذُكر في خبر نزوله -صلى الله عليه وسلم-: أن أم أيوب -رضي الله عنها- قالت: "كيف ننزل نحن في العلو وهو في السفل؟ استكثروا أن يكونوا أعلى منزلًا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلما أرادوا أن يغيروا، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«لا؛ لأن الناس يطرقونني»** ، فتكليفهم بالصعود فيه مشقةٌ، ووجودي في الأسفل أيسر. وهذا نموذجٌ من توقير الصحابة -رضي الله عنهم- للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وله في ذلك قصةٌ.
- ثم قال: **"واشترى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موضع المسجد، وكان مِربدًا ليتيميْن"**. المربد هو المكان الذي يُجفف فيه التمر.
- ثم بناه -عليه الصلاة والسلام-، وهذا موضعٌ يتذكر فيه المؤمن قول الله -عزَّ وجلَّ-: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾** [القصص: 68]، واختيار الله -عزَّ وجلَّ- أثر من آثار حكمته التامة، وعلمه الكامل، وهذه البقعة، التي كانت مِربدًا ليتيمين، ثم صارت مسجدًا بعد ذلك، صارت بقعةً هي أفضل بقعةٍ على وجه الأرض، بعد المسجد الحرام، وصارت هذه البقعة، من صلى فيها ضوعفت صلاته بألف صلاةٍ، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم، عنه -صلى الله عليه وسلم-، من حديث ميمونة -رضي الله عنها-.
- وفي هذا أيضًا من الدروس: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تلاحظون أنه أول ما قدم حرص على موضوع المساجد، ففي قباء مسجدٌ، وفي موضعه الذي أراد أن يستقر فيه -عليه الصلاة والسلام- أقام المسجد، لماذا أيها الإخوة؟ لأن المسجد هو المدرسة الأولى الذي يُبنى فيها الرجال، وهو الموضع الأعظم، الذي يُغرس فيه الإيمان، البيوت لها أثرٌ بلا شكٍّ، لكن بيوت الله -عزَّ وجلَّ- أجلُّ وأعظم، ولهذا كان النبي -عليه الصلاة

والسلام- يعظِّم هذا المكان، وكان يجعله محلًا للقضاء، ومحلًّا لتسيير الجيوش، ومحلًّا لتربية الصحابة، ومحلًا لمجالس العلم والإيمان، ومنها خرج هؤلاء الأفواج -رضوان الله عليهم- يفتحون الأمصار.

لا يُصنع الأبطال إلا في مساجدنا الفساح

في روضة القرآن في ظل الأحاديث الصحاح

- يُصنع الأبطال هنا، لا يُصنع الأبطال في أماكن أخرى، ولهذا إذا أردنا أن نُحسن إلى أبنائنا وبناتنا، أبناؤنا الذكور بالذات، الذين يخرجون، علينا أن نربطهم ببيوت الله -عزَّ وجلَّ-، بحلق العلم، بحلق تحفيظ القرآن الكريم، بحب المساجد، فإذا نشأوا فيها، وحُبِّبَ إليهم التردد عليها، فإن هذا حصنٌ عظيمٌ، من حصون التقوى، ومن حصون الهداية والتوفيق، ولهذا الله -عزَّ وجلَّ- يقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: 36، 37].
- أيها الإخوة والأخوات، علينا أن يكون للمسجد دورٌ في حياتنا، البيت له دورٌ، لكن للمسجد دورٌ أعظم، في المسجد يتلقى المؤمن رحمات الله -عزَّ وجلَّ-، يتلقى العلم، يتلقى الهدى، يتلقى ميراث النبوة، الذي تركه النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- ثم ذكر -رحمه الله- أن عليًّا أقام بمكة، حتى أدى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- الودائع التي كانت عنده، وغير ذلك، ثم لحق بالنبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك.
- وتلاحظون في هذا الموضع عبرةً، وهو: أنه وإن اختلفت مع غيرك، ومع خصومك، فإنك لا تتنازل أبدًا عن مبادئك، لاحظ النبي -عليه الصلاة والسلام- خرج من مكة، مطرودًا، ومطلوبًا للقتل، ومع ذلك لم يقل لعليّ بن أبي طالب، الله الله، فرصةٌ هذه أن تأخذ الأموال، وأن تجحدها، وأن تهرب بها، وأن تخفيها، أبدًا، بل أبقاه ليردَّ الأمانات إلى أهلها ، فصاحب المبادئ لا تذهب مبادئه ولو في الحرب، ولو مع الأعداء، الصدق صدقٌ، والحق حقٌّ، والعدل عدلٌ، مطلوبٌ مع كل أحدٍ. قارن هذا بمن تطيش عنده موازين الأخلاق عند أدنى اختلافٍ مع إخوانه المسلمين، يتخاصم مع شخصٍ، فينسف تاريخه كله بمجرد موقفٍ لم يعجبه، يحصل بينه وبين أحدٍ خصومةٌ في المحكمة مثلًا، فيقع في قلبه من الغيظ والكذب عليه، والحنق، لأجل أنه اختلف معه في خصومةٍ، وما هذه أخلاق أهل الإيمان، ولا هي الأخلاق التي ربَّى النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه عليها.
- ثم ذكر -رحمه الله- فصلًا يتعلق بقضيتين أساسيتين: القضية الأولى: في موادعته، أو مهادنته لرؤوس القوى المؤثرة في المدينة، ما هي أقوى قوةٍ في المدينة معاديةٍ؟ هي قوة اليهود، أما المنافقون، فلم يظهر قرنهم بعدُ في ذلك الوقت، فالمدينة فيها بقايا من المشركين، الذين لم يدخلوا في الإسلام بعدُ من الأوس والخزرج، وفيها بقايا من اليهود، ويشكلون ثلاث قبائل، بنو قينقاعٍ، وبنو قريظة، وبنو النضير، الصنف الثالث: وهم المسلمون، لكنهم لم تكن بعد لهم قوةٌ، فكان من الحكمة أن لا يصادم -عليه الصلاة والسلام- هذه القوى الموجودة، حتى وإن كان له -عليه الصلاة والسلام- أملٌ أو طموحٌ في إقامة الدولة المسلمة في المدينة، لكن

ليس من الحكمة أن تكون في موضع ضعفٍ، وتواجه القوى التي لا طاقة لك بها، هذا يكون نوعٌ من التهور، ونوعٌ من الجناية على الإسلام وأهله.

- فذكر أنه وادعَ، يقول: "ووادعَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من بالمدينة من اليهود، وكتب بذلك كتابًا، وأسلم حبرهم عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-، وكفر عامتهم" ولذلك كأنهم والعياذ بالله كما تعلمون، هؤلاء اليهود، لا يرون غيرهم شيئًا، يقولون: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: 75]، هم يرون أن غيرهم من الخلق حميرٌ، خُلقوا لهم، وأن اليهود خُلقوا ليركبوا هذه الحمير، أبدًا، ولذلك قال -عليه الصلاة والسلام- كما في البخاري: «لو آمن بي عشرةٌ من اليهود، لآمنت يهود كلها» ، والسبب: قلة المؤمنين منهم، ولشدة عنادهم، وكبرهم وتيههم، واعتزازهم بما هم عليه من باطلٍ.

- ثم يقول، تكلم على مسألة فرض الجهاد، وذكر قضية مؤاخاة النبي -صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار، وهذه بإجماع أهل السير، وقعت السنة الأولى للهجرة، وهذه المؤاخاة كانت غايةً في الحكمة، من النبي -عليه الصلاة والسلام-، لم؟ لا يخفى عليكم أن المهاجرين -رضي الله عنهم- لما أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، خرجوا ليس معهم شيءٌ، خرج بعضهم بثوبه كما يقال، خرج بعضهم فارًّا بدينه، ليس معه شيءٌ، فقدِم إلى المدينة، فوجد إخوان الصدق، الذين سبقوه في السُّكنى إلى المدينة، وبعضهم قد يكون سبقه إلى الإيمان، كما وصفهم الله -عزَّ وجلَّ- ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: 9]، فكان من الحكمة أن يؤاخي بينهم؛ لترتفع المنة، بدلًا من أن يقول: تكفى يا أخي، أعطني كذا، تكفى يا أخي، أريد كذا، تكفى يا أخي أريد أن أنام في بيتك، لا، آخَى النبي -عليه الصلاة والسلام- بينهم، وكان من بنود هذه المؤاخاة أن يقع التوارث بينهم لو مات أحدهم قبل الآخر، لاحظ، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 6]، فآخى، فإذا كان يرثه، فما ظنك بما دون الإرث؟

- وقد آخى النبي -صلى الله عليه وسلم- بين تسعين رجلًا من المهاجرين والأنصار، فكانوا خمسةً وأربعين، وخمسةً وأربعين، ومن الذين آخى بينهم النبي -عليه الصلاة والسلام- عبد الرحمن بن عوف من المهاجرين، وسعد بن الربيع من الأنصار، فقال له سعد: يا عبد الرحمن، عندي زوجتان، فانظر أيهما أحب إليك، حتى أطلقها، وعندي أرضان، أو مزرعتان، فانظر أيهما أعجب إليك لأتخلى وأخليها لك. هل سمعتم يا إخوان بمؤاخاةٍ في التاريخ أحسن من هذه المؤاخاة وأعظم؟ لا والله، ولا يأتي بمثل هذه إلا دينٌ عظيمٌ، وهو دين محمدٍ -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا ذكر الله -عزَّ وجلَّ- هذه المنة على رسوله في سورة الأنفال، فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: 63]، مهاجريٌّ وأنصاريٌّ، هذا من قريش، وهذا من الأنصار، هذا عدنانيٌّ، وهذا قحطانيٌّ، لا يلتقون إلا في أجدادٍ بعيدةٍ جدًّا، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63].

إذن، هذه منَّةٌ عظيمةٌ، وبه نعلم، أن من أجلى مظاهر قوة المسلمين: أن يكون بينهم إلفةٌ ومودةٌ. هذه المؤاخاة التي يقع فيها إرثٌ ونحو ذلك، نُسخت كما هو معلومٌ، وأُبقي التوارث بين ذوي الأرحام فقط.

- نعود إلى قصة عبد الرحمن وسعد، قال: بارك الله لك في زوجك ومالك، دُلني على السوق، عبد الرحمن صاحب تجارةٍ، فانطلق إلى السوق، وبعض المهاجرين مع الأنصار تقاسموا، تقاسموا كل شيءٍ، وكانوا يفعلون ذلك بخبر

الله عنهم، في غاية السخاء، ماذا قال الله؟ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وقبلها: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

- إذن، إذا أراد الإنسان أن يقوم بعملٍ من الأعمال الدعوية في أي بلدٍ من البلدان، لا يمكن أن يقوم بهذا العمل على وجهٍ جيدٍ وصحيحٍ، والناس متنازعون، فمن أجلّ الأعمال، وأعظم القربات: التأليف بين قلوب المسلمين، والسعي إلى تقليص الفجوات بينهم.
- ثم ذكر أن الله تعالى فرض الزكاة في هذه الفترة، رفقًا بفقراء المهاجرين، كما ذكر ابن حزم، وبعض الحفاظ من علماء الحديث: إنه أعياه فرض الزكاة متى كان، هذا لا يعنينا، ليس موضعًا لنا هنا.
- ثم انتقل المؤلف -رحمه الله- إلى بيان مسألةٍ تتعلق بفرضية الجهاد، وهو أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لما استقر في المدينة، بين أظهر الأنصار وقد كانوا بايعوه، تذكرون في الدروس الماضية، بايعوه في العقبة، في مِنى، بايعوه على النصرة، فلما قدِم إليهم، تكفلوا، وأعلنوا نصرته، وصدقوا -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-. فلما وجد النبي -عليه الصلاة والسلام- هذا التكتل الأنصاري مع من جاء إليهم من المهاجرين، ووجد العرب، ووجد اليهود، وبقايا المشركين في المدينة، وبقايا المشركين في مكة، وجدوا أن الآن هذه قوةٌ ناشئةٌ، رمتهم العرب عن قوسٍ واحدةٍ كما يقولون، وتعرضوا للأذى والتنكيل، فنزلت الآية الكريمة في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].
- ثم لما صاروا في المدينة، صارت لهم شوكةٌ، فأذن الله -عزَّ وجلَّ- لهم بالجهاد، بل كتبه الله تعالى عليهم في السنة الثانية من الهجرة، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].
- **والجهاد مشروعيته مرَّت بأربع مراحل:**
  - ❑ **المرحلة الأولى:** مرحلة منع الجهاد، يعني أن لا يجاهد المسلمون الكفار، وهي حالة الاستضعاف التي مرَّت بهم في مكة.
  - ❑ **المرحلة الثانية:** الإذن بالقتال، وذلك بعد الهجرة، بنص آية الحج ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: 39].
  - ❑ **المرحلة الثالثة:** مرحلة الأمر بالقتال لمن يبدؤهم بالقتال ، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: 190].
  - ❑ **المرحلة الرابعة :** التي جاءت في سورة التوبة وغيرها ، وهي: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36].

وقد أشار إلى هذه المراحل ابن القيم -رحمه الله- في "زاد المعاد".

فلما أُذن بالقتال، كان أول غزوةٍ غزاها، هي "غزوة الأبواء"، وذلك في شهر صفر، سنة اثنتين من الهجرة.

- وأود أن ألفت نظر الإخوة الحضور، والإخوة المشاهدين والمشاهدات، إلى أن سنة اثنين من الهجرة، سنةٌ حافلةٌ بالأحداث، وحافلةٌ بالتشريعات، سيأتي معنا، لكن أذكرها الآن ابتداءً حتى نتذكرها إذا مررنا.

- ففيها نزلت سورة البقرة، وهي التي يسميها بعض العلماء: كلية الشريعة؛ لكثرة ما فيها من الأحكام، وفيها أُذن بالقتال، وفيها وقعت أول غزوةٍ، وهي "غزوة الأبواء"، وفيها وقعت غزوة بدرٍ الأولى، كما سيأتي بعد قليلٍ، وفيها في شهر شعبان حُوّلت القبلة، وفي آخر ليلة من شهر رجب حصل قتالٌ في إحدى السرايا التي بعثها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ونزل بسببها قوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: 217]، وفي رمضان من ذات السنة فُرض صوم رمضان، إذن هي سنةٌ حافلةٌ بالأحداث.
- فنذكر أن هذه الغزوة، وهي "غزوة الأبواء" طبعًا لم يقع فيها قتالٌ، كما تقرؤونه في الخبر، لكن يهمني هنا أن نرى موقع الغزوة، كما سيظهر الآن في الشاشة من المدينة.
- الآن لاحظوا المربع هذا الذي لونه ورديٌّ، هذا هو موقع الأبواء، بين المدينة وبين مكة، وهنا في هذا الموضع، دُفنت أم النبي -صلى الله عليه وسلم- كما ذكر أهل السير، وقد زرت هذه المنطقة في غابر الأيام، وإذا هي ليست على الطريق تمامًا، لابد أن تدخلها، إذا كنت قادمًا من المدينة، تدخل ذات اليمين قليلًا، حتى تجد هذه المدينة، وهي مازالت موجودةً، لكنها كانت معروفةً على الطريق القديم، أما على الطريق السريع، فإنك لا تكاد تراها الآن. هنا وقعت أول غزوةٍ، سميت غزوةً؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج -عليه الصلاة والسلام- بنفسه، حتى بلغ هذا الموضع، فوادع بني ضمرة، مع سيدهم مجدي بن عمرو، وهذا مجدي بن عمرو سيأتي له ذكرٌ بعد قليلٍ، أو في الحلقة القادمة -إن شاء الله- في غزوة بدر، ثم رجع النبي -عليه الصلاة والسلام-، ولم يلق حربًا.
- وهنا ننتبه إلى كثافة السرايا في هذه السنة أيضًا، وهذه من الأحداث التي يظهر لمن قرأ في السيرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كثَّف السرايا، كما سيأتي معنا.
- يقول: **"ثم بعث عمه حمزة -رضي الله عنه- في ثلاثين راكبًا من المهاجرين ليس فيهم أنصاري إلى سِيْفِ البحر"** يعني: إلى جانب البحر **"فالتقى بأبي جهل، وركب معه زهاء ثلاثمائة، فحال بينهم مجدي بن عمرو الجهني"** هل رأيتم مجدي بن عمرو الذي وادعه النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة الأبواء قبل قليلٍ، هذه من فوائد إرسال السرايا، وهو أنه ليس بالضرورة أن ينقلب العدو إلى صديقٍ، أو يكون مسلمًا بعبارةٍ أخرى، لكن من الحكمة أن تحيّد الأعداء، وهذا مر معنا كثيرًا، أحيانًا قد لا تستطيع أن تقنع الطرف الآخر بأن يدخل في الإسلام، لكن تستطيع أن تحيّده وأن لا تنشغل بخصومته، فيعطيك عهدًا، وميثاقًا، أنه لن تُؤتى من قِبله، ولهذا لما بُعثت هذه السرية، وجدنا ثمرةً من ثمرات هذه الموادعة التي فعلها النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- ثم بعد ذلك بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب، وهذا سيأتي له ذكرٌ -إن شاء الله- في غزوة بدر.
- في ربيع الآخر من نفس السنة الثانية، في ستين أو ثمانين راكبًا من المهاجرين إلى ماءٍ بالحجاز بأسفل ثنية الْمِرَة، فلقوا جمعًا عظيمًا، إلى آخره.
- المهم أنه لم يحصل هناك قتالٌ يُذكر، اللهم إلا ما ذُكر من رمي سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- بسهمٍ في تلك المعركة، فقتل رجلًا.

- فيقول ابن كثير: **"فكان هذان البعثان أول رايةٍ عقدها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولكن اختلف في أيهما أول"**، ولكن لا يعنينا هذا.
- المهم: لاحظوا أن ابن كثير يقول: إنهما كانا في السنة الأولى من الهجرة، يقول: وهو قول ابن جرير، فكأنه يشير إلى أن الأقرب أن هذا كله متى؟ في السنة الثانية للهجرة.
- ثم جاءت غزوة بواط، وهذه الغزوة خرج فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- بنفسه، وللفائدة: إذا مرَّ بك، ومرَّت بكِ أيها الأخت الكريمة مصطلح غزوة، فاعلم أن هذه سريةٌ، أو جيشٌ خرج فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ما سوى ذلك يُسمَّى معركةً، يسمىَّ سريةً، يُسمَّى اسمًا آخرًا، لكن مصطلح غزوة، اصطلح على أنه ما شارك فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- يقول هنا: **"فخرج بنفسه -صلى الله عليه وسلم- في ربيع الآخر من السنة الثانية، واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون، ابن أخيه من الرضاعة"**، يعني عثمان بن مظعون أخو النبي -عليه الصلاة والسلام- من الرضاعة.
- **"فسار حتى بلغ بواط من ناحية رضوى، ثم رجع ولم يلقَ حربًا"**.
- إذن نستفيد من هذا فائدةً، وهي: أن مصطلح الغزوة، يُطلق على التي خرج فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولو لم يقع قتالٌ.
- أين تقع "بواط"؟

يرينا المخرج -بارك الله فيه- الصورة الآن، لاحظ الآن مر معنا قبل قليلٍ أنه كانت الأبواء هنا في هذا الموضع، هنا بواط، لا، شمال المدينة قليلًا، شمال غرب المدينة، فخرجت ما بين مكة والمدينة، وصارت خارج ما بين المدينتين، وصارت شمالًا إلا جهة رضوى.

- كان المقصود من هذا الاستيلاء على قافلةٍ، لكن لم تتيسر، كم فيها نوع؟ ألفين وخمسمائة بعيرًا، وكان كما يُقال نوعٌ من الحرب، والحصار الاقتصادي.

العدو كانت قافلته قرابة مائة راكبٍ، وراجلٍ، لكن لم يقع في ذلك قتال.

ثم كانت بعد غزوة العشيرة، ويقال العسيرة، ويقال العشير، كلها أسماءٌ وردت بها، وردت هذه التسمية فيها، في كتب السنة، والسير.

- وهذه الغزوة خرج فيها النبي -عليه الصلاة والسلام- أيضًا بنفسه، في جمادى الأولى، وهي مكانٌ ببطن ينبع.

أيضًا نريكم -إن شاء الله تعالى- هذه الموقعة، انظروا، لاحظوا الآن كل المساحات أو الخريطة الآن تظهر لنا قريبةً الآن من موقع غزوة بواط، بواط قليلًا إلى الأعلى، إلى جهة جبل رضوى، هنا الآن، نزلنا قليلًا؛ لنصل إلى موقع غزوة العشيرة. من هو العدو؟ ابن كثير يقول: إنهم من بني مُدلج، الذي هم جماعة من؟ من الذي لحق النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ {سراقة بن مالك}.

- أحسنتَ، هؤلاء جماعة سراقة بن مالك المُدلجي، الذي أسلم بعدُ، وهؤلاء من بني ضمرة، وهناك قافلةٌ تجاريةٌ لقريش، كان الهدف من الغزوة: هو الوصول إلى العشيرة، في هذا الموضع، على الطريق التجاري بين مكة والشام، لاعتراض القافلة التي جاءت لقريش، وهي خارجةٌ من مكة، متجهةٌ إلى الشام، بقيادة أبي

سفيان، وهي نفس القافلة التي كانت سببًا في غزوة بدر الكبرى، لكن هذه في طريق الذهاب، هذه العشيرة في طريق الذهاب؛ لأنها كانت في جمادى الأولى، بينما كانت غزوة بدر في طريق الإياب، ولهذا لما نجت القافلة، ونجَّى بها، انظروا قرب الموضع، لما نجت القافلة أبو بكر نحَّاها إلى جهة البحر، تلاحظون الآن، لاحظوا الآن الموضع هنا، العشيرة قريبةٌ من البحر، فأبو سفيان في رجعته حاد بالقافلة إلى جهة البحر، فلما نجت، كما سيأتينا، قال لقريش: ارجعوا، المقصود أن القافلة تنجو، قال أبو جهل: والله لا نرجع، حتى نشرب الخمر، وتضرب علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا، كما سيأتي -إن شاء الله-، لكن أراد الله خزيه وخذلانه.

- هذه الغزوة، جاء ذكرها في صحيح مسلم من حديث زيد بن أرقم، لما سأله أبو إسحاق السبيعي: كم غزا النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: تسع عشرة غزوةً، أولها العسير أو العشير، ويُقال: العشيرة. إذن، هو موضعٌ، الغزوة نُسبت إلى هذا الموضع.
- هنا التعليق على كثرة هذه السرايا في هذه السنة بالذات، وهي السنة التالية لدخوله -عليه الصلاة والسلام- إلى المدينة، واستقراره فيها، **فيها عدة رسائل عسكرية:**

❖ **الرسالة الأولى:** فيها إرسال رسالةٍ لليهود، ولبقايا المشركين في المدينة، وممن حول المدينة من الأعراب، أن هذه الدولة التي بدأت نواتها تتشكل، ليست دولةً هزيلةً ولا ضعيفةً، بل هي دولةٌ قويةٌ. تلاحظون أن أكثر هذه الغزوات، لم يقع فيها قتالٌ، وهذا تحقيق لقوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ [الأنفال: 60].

❖ **الرسالة الثانية :** التي تحملها هذه السرايا المتتابعة، وهناك سرايا كثيرةٌ صغيرةٌ، طواها الحافظ -رحمه الله-: لإرسال رسالةٍ إلى قريش، التي مازالت تعذِّب المؤمنين في مكة، وتمنع من أراد الهجرة منهم، الخطر قادمٌ عليكم، وليس عندنا رسالةٌ غير لغة القوة؛ لأن من تكبّر وطرد وآذى، فلا تصلح معه لغة اللين، أو لغة المهادنة، بل لا يصلح معها إلا لغة القوة.

ولهذا بعض المستشرقين، لما بدأ يستعرض أمثال هذه السرايا، ويقول: هذا دين قوةٍ، دين سيفٍ، إلى آخره.

- طبعًا من المضحك أن يتكلم المستشرقون عن هذا النوع من السرايا، وأن فيها ما فيها من المؤاخذات أو شيءٌ من هذا القبيل، لم؟ لأن جيوشهم التي تُسمَّى استعماريةً، وهي استخرابيةٌ في الواقع للبلاد الفقيرة، على امتداد أفريقيا، وكثيرٍ من دول آسيا، لو فتشتَ في السجلات التاريخية، لوجدت أنهم قتلوا ملايين، وجوَّعوا ملايين، وأذلوا ملايين، حتى إن أحد الإنجليز وهو يريد أن يقتل رجلًا في كينيا، وهي محتلةٌ من بريطانيا، قال: انظروا إلى هذا العبد، كيف أقتله، وهو يريد أن يعضني، لاحظ، غزا البلد، ويقتل أهلها، ويسخر بأن هذا الرجل وحشيٌّ، لماذا؟ لأنه يدافع عن وطنه، فهو لا يملك إلا أن يعضَّ هذا المحتل، لكن لم يرعه أنه هو الذي يقتل، إنما راعه، أن هذا المسكين، المغلوب على أمره، يعضه، هذه أقصى ما عنده من السلاح، فنقول: آخر من يتكلم عن السلم وأدب الحرب أنتم أيها الذين احتللتم البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، ولم يسلم من شركم إلا القليل، وكم وقع من إذلالٍ، وكم وقع من قتلٍ، وسبيٍ، وانتهاكٍ لحرمات النساء والأموال، بسببكم أنتم، ولم ترضوا أن تخرجوا من تلك البلاد، حتى وضعتم أذنابًا لكم فيها، هم بلسان قومهم صحيح،

وبلغتهم، وكما يقال: يلبسون ثيابهم، ويتكلمون بلغتهم، لكنهم أذنابٌ لكم، يصلون إليكم، لا إلى مكة، ولا إلى غيرها.

- ثم أشار إلى غزوة بدر الأولى، وهي أن كرز بن جابر الفهري، أغار على سرح المدينة، فطلبه، فبلغ واديًا يُقال له "سَفْوان"، أو "سَفَوان"، في ناحية بدر، مرَّت معنا جهة بدر، وسنأتي -إن شاء الله تعالى- إلى ذكرها بعد قليل.
- بدر طبعًا بينها وبين المدينة جهة مكة قرابة مائة وسبعين كيلو، وهي مشهورةٌ الآن، على الطريق، إذا جئت من المدينة إلى مكة، تدخل جهة اليمين، وترى موقع الغزوة المشهورة.
- وقد استخلف النبي -صلى الله عليه وسلم- على المدينة زيد بن حارثة، مولاه، ثم بعث بعد ذلك سعد بن أبي وقاص في طلب كرز هذا، ويقال إنه بعثه إلى غير ذلك.
- ثم جاءت سرية عبد الله بن جحش، وهذه السرية أرجو التركيز معها، أريد أن أعلق عليها باختصارٍ، لا نريد أن نقرأ ما قاله الشيخ -رحمه الله-.
- بعثه النبي -عليه الصلاة والسلام- ومعه ثمانيةٌ من المهاجرين، وقال له: **«لا تفتح كتابي، حتى تصل الموضع الفلاني، فإذا وصلته فافتحه»** ، فلما فتح الكتاب، وجد فيه: **«إذا نظرتَ في كتابي هذا، فامضِ حتى تنزل نخلةً»**، نخلة: وادٍ بين مكة والمدينة، وهو الذي ذكرناه في قصة إفاقته -صلى الله عليه وسلم-، بقرن الثعالب، وأنه مر بوادي نخلة، وهو الوادي الذي بين مكة والمدينة، ولا يزال موجودًا، وأنت خارجٌ من ميقات السيل، إذا اتجهت إلى مكة، ستجد هناك وادي نخلة، مازال موجودًا، بين مكة والطائف.
- يقول: **«إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، وترصد بها قريشًا، وتعلم لنا أخبارهم»**، فقال: سمعًا وطاعةً، وأخبر أصحابه بهذا، وأنه لا يريد أن يكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع إلى المدينة، فنهضوا معهم جميعًا -رضوان الله تعالى عليهم-.
- المهم أنه عرضتْ لهم عيرٌ لقريش، طبعًا ذكر أشياء من هذا، فيه تفاصيل، عرضت لهم عير، وكان فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان، ونوفل ابني عبد الله بن المغيرة، وكذلك فيها الحكم بن كيسان، فتشاور المسلمون، قالوا: نحن الآن في آخر يومٍ من رجب، وهو شهرٌ حرامٌ، وبالمناسبة الجاهلية تعظِّم الأشهر الحرم، وهي؟ ثلاثٌ متتابعةٌ، ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب الفرد. لكن الجاهلية أيضًا لأنها تعبث بالشرائع كما تحب، صاروا ينسأون محرم إلى صفر، فيؤخرون تحريم محرم ويجعلونه في صفر، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ** ﴾ أي تأخير تحريم الشهر الحرام ﴿ **زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ** ﴾ [التوبة: 37]، لأجل أن لا يُقال أنهم غيَّروا عدة الأشهر، فهي أربعةٌ، لكن بدل ما تصير في محرم، تكون في صفر.
- المهم، أنهم تشاوروا، قالوا: إن قاتلناهم، انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة، دخلوا الحرم، الآن هنا عير، والحرب قائمةٌ بين المسلمين وبين كفار قريش؛ لأن الحرب مُعلنةٌ منذ أن طردوهم من بلادهم.
- فاتفقوا على أن يلاقوهم، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي هذا فقتله، وأسروا عثمان والحكم، الذي سبق ذكرهم، وأما نوفل بن عبد الله بن المغيرة فإنه شرد، وهرب.

- فقدم الصحابة بالأسيرين، والعير، وقد عزلوا الخُمس، فكان يقول ابن كثير: فيه أربع أولياتٍ: أول غنيمةٍ في الإسلام، وأول خمسٍ في الإسلام، وأول قتيلٍ في الإسلام وأول أسيرٍ في الإسلام.
- لكن، لاحظوا النبي -عليه الصلاة والسلام- أنكر عليهم هذا الفعل، وقد كانوا -رضي الله عنهم- مجتهدين فيما صنعوا.
- يقولون في السير: إن القتال بدأ نهار آخر يومٍ، واستمر بعد أن دخل شهر شعبان، يعني انسلخ الشهر الحرام، لكن البداية كانت وقعت في الشهر الحرام.
- هنا وجد المشركون فرصةً للطعن في الإسلام، من خلال هذا الفعل، **وهنا ننتبه للموضع هذا فيه عدة دروسٍ:**

☑ **الدرس الأول:** أن أعداء الإسلام ينظرون إلى أفعالنا نحن المسلمين، فأيُّ فعلٍ يخالف ما يقرره ديننا، سيدينونا به، وإن كانوا لا يدينون أصلًا بالإسلام، فلنحذر من أن نفعل أفعالًا تشوّه ديننا، فضلًا عن أن لا تكون أصلًا من الإسلام، كما يفعل بعض المجرمين من الغلاة الذين شوَّهوا سمعة الإسلام، حينما يرمون الناس من الشواهق لمجرد أدنى مخالفةٍ، وحينما يسبون النساء لأدنى سببٍ، أصلًا يُكفِّرون ثم يَسْبُون، مع أن التكفير قد لا يكون وقع على هؤلاء، وقد يكون هؤلاء مؤتمنين في تجاوزٍ لكثيرٍ من أحكام الجهات الشرعية المعروفة. هذه نقطةٌ.

☑ **الدرس الثانى:** نلاحظ أن القرآن الكريم هنا سجَّل على المسلمين هذا الخطأ، الذين اجتهدوا، فقال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ نعم القتال فيه حرامٌ، ثم قال الله رد عليهم، ماذا قال؟ ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ثم قال: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 217].

إذن، صحيحٌ أخطأ فلانٌ وفلانٌ من الصحابة، لكن إخراجكم أنتم لهؤلاء من ديارهم أعظم عند الله -عزَّ وجلَّ- من القتل، الذي أنتم الآن تنعونه على هؤلاء الصحابة -رضي الله عنهم-.

☑ **الدرس الثالث:** قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217]، إلى آخر الآيات، وفي هذا درسٌ ثالثٌ: وهو أن الصحابة -رضي الله عنهم- مع أنهم لاحظوا، يعني اجتهدوا فأخطئوا، لكن هذا لم يمنعهم أبدًا من أن ينقلوا هذه الآية كما وقعت، وخذوها قاعدةً وفائدةً: جميع الآيات التي يذكر الله -عزَّ وجلَّ- فيها عتابًا للصحابة، هي دالةٌ على عدالتهم وفضلهم ، ما وجه ذلك؟ لو كانوا يريدون أن يكتموا شيئًا من القرآن، لكتموا الآيات التي عاتبهم الله -عزَّ وجلَّ- فيها، لكنهم صادقون، ينقلون ما لهم، وينقلون ما عليهم، ينقلون الآيات التي يترضَّى الله -عزَّ وجلَّ- فيها عليهم، ويبشِّرهم فيها بالجنة، وينقلون الآيات التي فيها عتابٌ لهم، كهذه الآية، وكقوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: 11]، بل أبلغ من ذلك: النبي -عليه الصلاة والسلام- ينقل الآيات التي عاتبه الله فيها ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: 43] ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: 37]، فأين الذين يطعنون في هؤلاء الصحب الكرام -رضي الله عنهم-؟ أين عقولهم؟ أين يُذهب بهم؟ ألا يتأملون في هذا القرآن العظيم،

الذي أثنى عليهم، ونقلوا فيه كل حرفٍ سمعوه ووعوه وحفظوه، ولكن ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [المائدة: 41].

- نحن الآن وصلنا إلى أوائل شهر شعبان، المؤلف -رحمه الله- ذكر مسألة تحويل القبلة، وأنا نسيت أن أشير إليها، وهي أنه في شهر شعبان من هذه السنة، تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، بعد مرور ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، على اختلاف الروايات، والخطب في هذا يسيرٌ، يعني بعد مرور سنةٍ وأربعة أشهرٍ، أو خمسة أشهرٍ من هجرته -صلى الله عليه وسلم-، لأنه لما وصل المدينة في ربيع الأول، إذا قلت سنةً، مراتنا عشر شهرًا، ثم إذا أضفت أربعة أشهرٍ أو خمسةً، صارت ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، في شهر شعبان، على المشهور، حوّلت القبلة، وكان هذا التحويل فتنةً لطوائف من الناس، أما المؤمنون، فقالوا كما أثنى الله عليهم: سمعنا وأطعنا، بل أبلغ من هذا أيها الإخوة: أنه لما جاء المنادي إلى الصحابة وهم يصلون في "قباء"، يعني بعدما نزل الوحي على النبي -صلى الله عليه وسلم- في المسجد النبوي، وجاء الناقل للخبر إلى مسجد قباء، فأخبرهم أن القبلة قد تحوَّلت، فتحولوا وهم في صلاة العصر، كانوا متجهين إلى بيت المقدس شمالًا، فانقلبوا إلى جهة الجنوب تمامًا إلى مكة، الله أكبر! أي تسليمٍ هذا؟ وأي إذعانٍ؟ وأي تصديقٍ؟ وأي مبادرةٍ وامتثالٍ؟ وللأسف تجد بعض الناس يُقال له: قال الله -عزَّ وجلَّ- كذا، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كذا، ثم يقولون: هاه، لعل في المسألة خلافٌ، أكيد، ربما يكون فيه قول من الأقوال، ثم يبدأ يبحث عن المخارج التي تُعفيه من الامتثال، بينما هؤلاء الصحابة ما سألوا، مباشرةً يعلمون أنه لا كذب، والأمر الثاني يعلمون أن أمر الله لابد أن يُنفَّذ.
- أما الذين فُتنوا بهذه القضية، وهي قضية التحويل، فهم اليهود، والمشركون، والمنافقون. أما اليهود، فقالوا في كلامهم: خالف قبلة الأنبياء قبله، وأما المنافقون: فإنهم يقولون: إن هذا رجلٌ لا يدري أين يصلي، عافانا الله وإياكم من ذلك، لكن سمَّاهم الله سفهاء، وأما المشركون، ففتنوا بذلك فقالوا: مادام أنه ترك قبلة الأنبياء من قبل، ورجع إلى قبلتنا في مكة، فيوشك أن يرجع إلى ديننا، خابوا وخسروا، لا هذا ولا ذاك، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ- لما ذكر قضية التحويل: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ هؤلاء السفهاء: يهود، ومنافقون، ومشركون ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: 142] ماذا قال الله لهم؟ ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: 142، 143] أي عدلًا خيارًا ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، إلى أن قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 115].
- وهذا فيه فائدةٌ: وهو أن الله يُجري من الأحداث ما يزيد المؤمنين إيمانًا وثباتًا، وما يُمتحن به المنافقون، والمعارضون، أو المعاندون والمكذِّبون.
- ثم في هذه السنة، وهي السنة الثانية أيضًا فُرض صيام شهر رمضان المبارك، وفُرضت زكاة الفطر في ذات السنة، وهي السنة الثانية من الهجرة.
- هذا أيها الإخوة والأخوات ملخص الأحداث الكبرى التي وقعت منذ دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة، إلى أن اقترب موعد غزوة بدر الكبرى، وخلاصتها: أنه بقي في قباء بضعة أيامٍ، وبنى فيها هذا المسجد، ثم انتقل إلى الموضع الذي بركت فيه الناقة، وأسس مسجده على التقوى، كما قال الله -سبحانه وتعالى- ذكر هذا عن

قباء، وعن المسجد النبوي، ثم بعد ذلك وادع اليهود، وحاول أن يقيم علاقات صلحٍ مع القوى المؤثرة، لأجل أن يكف شرهم، وأن لا ينشغل بعداوتهم عن توطيد دعائم الدعوة، وحاجة المسلمين إلى تقوية شوكتهم، آخَى بين المهاجرين والأنصار، كذلك أيضًا قام ببعث السرايا التي حول المدينة، مر معنا غزوة الأبواء، أو ودَّان، ومر معنا أيضًا غزوة بواط، ومر معنا غزوة العشير، ومر معنا سرايا لحمزة ولغيره من الصحابة -رضي الله عنهم-، وكان يريد -عليه الصلاة والسلام- في ذلك أن يرسل رسائل للكفار، الموجودين في مكة، ورسائل للموجودين في المدينة، والمنافقين، وكذلك الأعراب الذين كانوا لا همَّ لهم إلا النهب والسلب، ولا يهمهم دينهم، إلا من شاء الله -عزَّ وجلَّ-.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كان الحديث قد وقف بنا -أيها الإخوة والأخوات- عند غزوة بدر الكبرى، والتي وقعت في السابع عشر من شهر رمضان المبارك، من تلك السنة، وهي السنة الثانية.
- وهذه وقعة لا يُشبهها وقعة في تاريخ الإسلام، فهي وقعة سمَّاها الله -عز وجل، أو سمَّى يومها يوم الفرقان؛ لأن الله فرَّق فيها بين الحق والباطل، ويوم أعز الله -عز وجل- فيه المسلمين، وأذل فيه الكفر والكافرين، وجعل الله -عز وجل- لمن شهدها مِن المناقب والفضائل، ما لم يجعله لأحدٍ شهد ما سواها من الغزوات والمعارك، فقد قال -عليه الصلاة والسلام- كما في قصة حاطب المشهورة: «وما يدريك، لعل الله اطلع إلى أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم، فقد غفرت لكم».
- **ومِن أسباب عظمة هذه المعركة، أو الغزوة، أنها:**

☑ **أولاً:** أتت على غير ميعاد، كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 42].

☑ **ثانياً:** كان الغرض منها حرب اقتصادية، وهو الاعتراض على العير التي كانت قادمة من الشام، بقيادة أبي سفيان، كما أشرنا إليها في الحلقة الماضية، حينما خرج في غزوة العشير، ليتلقوا القافلة التي كانت متجهة إلى الشام.

- أبو سفيان الآن قادم، والصحابة -رضي الله عنهم- قد أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، أُخذت أموالهم، وسُلِبوا، وطُردوا من بيوتهم وديارهم، فكان في هذا الاعتراض نوعًا مِن القصاص الاقتصادي، -إن صحت العبارة-.
- لم يكن هناك تخطيط أبدًا لقضية القتال، ولهذا قال الله -عز وجل- في أوائل سورة الأنفال، وهذه السورة يسميها ابن عباس: سورة غزوة بدر، قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: 5].
- لماذا؟ يكرهون القتال الكراهية الفطرية، كما قال الله -عز وجل-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

- لا أحد يحب أن يفارق بلده، لا أحد يحب أن تُقطع رقبته، ولا أن يَسيل دمه، ولكن هذا الكُره مباشرة يزول، إذا كان في ذات الله -عز وجل-، وإذا كان أمرًا من الله، وأمرًا من رسوله -صلى الله عليه وسلم-.
- قال الله -عز وجل-: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: 7، 8]، إلى آخر الآيات الكريمات.
- إذن، هذه من أسباب هذه الغزوة، وكونها أول غزوة كُبرى، التقى فيها المشركون بالمسلمين، ووجه كونها كُبرى، أنه مرَّ معنا غزوة بدر الأولى، التي غَزَا النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها، موضع بدر، لكن لم يحصل فيها قتال، فرجع إلى المدينة.
- هذا وجه تسميتها غزوة بدر الكبرى؛ لأن بعض الناس يقول: لماذا نقول الكبرى؟ نقول غزوة بدر ونكتفي؟ وللتمييز بينها وبين غزوة بدر الأولى، التي مضت في أوائل السنة الثانية للهجرة.
- الخريطة الآن تمثل لنا موقع بدر من المدينة، وموقع بدر من مكة، لاحظوا الآن اللون هذا أظن اسم الغزوة أو اسم المنطقة واضح، هذه الغزوة، هذا موقع الغزوة. أبو سفيان جاء مِن هذه الجهة، جاء من جهة الشام، فلما شعر بالخوف، وأن النبي -عليه الصلاة والسلام- والمسلمون في المدينة يريدون أن يعترضوا العير، لجأ بالقافلة إلى سِيف البحر، إلى جهة البحر، هنا، في هذه المناطق، فلما تيقَّن أنه نجا من لقاء المسلمين، أرسل إلى أهل مكة، الذين خرجوا من هنا، قال لهم: ارجعوا، انتهى الموضوع، لا حاجة لخروجكم الآن لقتال المسلمين، والمشركون خرجوا في حدود تسعمائة وخمسين رجل، من تسعمائة إلى ألف رجل، بينما الصحابة كانوا على الثلث تمامًا، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ثلاثمائة وأربعة عشر، في قول أكثر السير، لكن كما قال الله -عز وجل-: ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 42].
- لما بلغت هذه الكلمة أبا جهلٍ، قال: **"والله لا نرجع، حتى نشرب الخمر، وتضرب علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا"**. وسبحان الله، كانت فيها الكسرة، التي لم يقم لقريش بعدها قائمة، وكانوا كما يُقال: من سُفْلٍ إلى أسفل. وبالفعل تحقق أمرٌ لم يكن ببالهم.
- التقوا في تلك المنطقة، وأطال ابن كثير -رحمه الله-، وهنا يصعب أن نقرأ كل ما ذكره الحافظ -رحمه الله- في هذا الموضع، لكن الخلاصة: أنه لما وقعت هناك مشاهد، لا نتجاوزها، المشهد الأول أو الأمر الأول، نعلها عليها واحدًا واحدًا: نبدأ بقوله هنا: أنه لم يكن معه من الخيل سوى فرس الزبير، وفرس المقداد بن الأسود، كما ترون في الشاشة، والإبل سبعون بعيراً فقط، يعتقب الرجلان والثلاثة فأكثر على البعير الواحد، ثم ذكر نماذج من هذه الاعتقابات، التي وقعوا فيها.
- حمل الراية علي بن أبي طالب، ومُصعب بن عمير، هذه من جهة المهاجرين، ومن جهة الأنصار كانت بيد سعد بن معاذ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة.
- هذا الأمر الأول، أنه بعث -عليه الصلاة والسلام- رجل يقال له بَسْبَس بن عمرو الجهني، ويُقال بُسَيْسَة، ما جاء في صحيح مسلم، والخطب في هذا سهل، والدرس الذي يُستفاد من هذا: أن الجسَّ أو التجسس على العدو جائز، ولا بأس به، وليس داخلاً في التجسس المنهي عنه، قال النبي -عليه الصلاة والسلام- كما في

حديث جابر في البخاري: «الحرب خَدْعة»، ويُقال: «خُدعة»، وهي بالفتح أفصح، كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني.

- ثم أشار إلى قضية أبي سفيان، وأنه أرسل إلى أهل مكة أن ارجعوا، وقال أبو جهلٍ مقولته المشهورة.
- وخرج المشركون من مكة، كما وصفهم الله -عز وجل- ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: 47]، البطر كما سمعتموه "تضرب علينا القيان، نشرب الخمر" إلى آخره، ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ "حتى لا يبقى أحد في العرب إلا وقد هابنا". لكن لم يكن الأمر كما توقع، ولا كما ظن.
- وفي هذا فائدة، وهي: أن المسلمين إذا صدقوا مع الله -عز وجل-، وفعلوا ما بوسعهم من الأسباب، فإنَّ الله تعالى يُجري لهم مِن الآيات ما لا يخطر لهم على بال، فإن الله له جنود السماوات والأرض، وقد يخذل الأعداء بأسبابٍ ليست بمقدورهم هم، مثل الرُّعب، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «نُصرت بالرُّعب»، وقد ينصرهم الله بالرياح، وقد ينصرهم الله -عز وجل- بأشياء أخرى، كما وقع في غزوة الأحزاب، وستأتي -إن شاء الله تعالى-، المهم ما هو: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7]، أن ينصر المسلمون دين الله -عز وجل-، وأن لا يحاربوه، بترك شريعته، أو تنحيتها، أو بأكل الربا، أو غير ذلك من صور الحرب على الله ورسوله، أو بإعلان المنكرات.
- الأمر الثاني الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير في مشهد الغزوة: أنه سار حتى كان قريبًا مِن بدر، ثم بدأ يستشير الصحابة -رضي الله عنهم-.
- استشار الصحابة، فقام أبو بكر، ثم استشارهم مرة ثانية، فقام عمر، فكأن سعد بن معاذ -رضي الله عنه- فهم الرسالة.
- ما هي الرسالة؟ يريد أحد من الأنصار أن يتكلم؛ لأن الأنصار عاهدوه على النصرة أين؟ في المدينة، فخشي النبي -عليه الصلاة والسلام- أن لا يكون مثل هذا الخروج داخلاً في بنود النصرة.
- فقام سعد -رضي الله عنه- وقال: "يا رسول الله، اغزوا بنا حيث شئت، فوالله لو بلغت بنا "بَرْكَ الغَمَاد" -وهو موضع بعيد- لخضناه معك"
- فَسُرَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذا الكلام، وهذا ترويه كتب السير، ولا يخلو مثل هذا المشهد من جهة الرواية من كلام يسير، لكن كما ذكرنا ورددنا أكثر من مرة، مثل أخبار السير، إذا لم يكن فيها حكم، حلال وحرام، أو حكم عقائدي، أو شيء من هذا القبيل، ولا يخالف الأحاديث الصحاح، فإن أهل العلم لا يشددون في هذه الأخبار، ويمشونها.
- ثم ذكر قصة أبا جهلٍ، وما أراده، وقوله: لن نرجع، إلى آخره، وفي هذا درس آخر، وهو: أن الله -عز وجل- إذا أراد خذلان عبدٍ، ساقه إلى حتفه، وسبحان الله، انظروا إلى الفرق بين موقف أبي جهل، وبين موقف أبي سفيان، أبو جهل أخذته العزة بالإثم، وقال نفعل ونفعل، بينما أبو سفيان، كان أعقل منه، لما رأى أن القافلة الاقتصادية نجت، خلاص، ليس من الحكمة أن تبتدئ حروباً، مع خصومك، الحروب وقودها دماء، ووقودها ترميل نساء، وتيتيم أطفال، وقد تنكسر عسكريًّا، فلا يقوم لك بعد ذلك قائمة، انظر إلى مآل أبي

جهل، وانظر إلى مآل أبي سفيان، أراد الله بأبي سفيان خيرًا، فبقي، حتى دخل في الإسلام في فتح مكة، سنة ثمانٍ من الهجرة ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213].

- ثم ذكر مشهدًا آخرًا، وهو: مشهد الاستشارة، وهو أن الحباب بن عمرو بن المنذر، سأل النبي -عليه الصلاة والسلام-، هذا ذكره ابن كثير، ولاحظوا أن ابن كثير لم يتعقبه، مع أن إسناده ضعيف، بل قال عنه الذهبي: إنه منكر من جهة السند، لكن كما ذكرت لكم ابن كثير جارٍ على سنن الأئمة في إيراد أخبار السير، دون التقصُّد لهذا، وأمر الشورى لا نحتاج فيه إلى هذه القصة، بل هو ثابت في القرآن الكريم، في قوله -عز وجل-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38]، لكن هذه مشاهد تطبيقية، لا يشدد فيها العلماء -كما قلت لكم- لأنها لا تخالف أصولاً، ولا يوجد شيءٌ يُستنكر فيها.
- ثم ذكر قضية المشاورة، وقال: إننا نقترح أن نأتي إلى موقع الغزوة؛ لنحول بينهم وبين المياه والآبار الموجودة في منطقة بدر.
- انظروا إلى الصورة الآن التي سأعرضها كيف جاء المسلمون، لاحظوا الصورة الآن، يعني مشهد المعركة بهذا الشكل، لاحظوا في أعلى الصورة من اليسار فوق، هذا العريش، وهو مكان يُشبه الخيمة، جلس فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- طيلة الغزوة يناجي ربه -عز وجل-: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض» ، وكان يدعو الله -عز وجل- كثيرًا، بالنصرة، وحصلت مواقف كثيرة.
- هنا بمشورة الحُباب التي أوردها الحافظ -رحمه الله-، تقدَّم المسلمون حتى دفنوا ما قبلهم من الآبار، كما تذكر كتب السير، حتى لم يُبقوا إلا الآبار القريبة منهم، لماذا؟ ليحولوا بين المشركين وبين الماء، وإذا نفذ الماء في تلك الصحراء القاحلة، فماذا تتوقع من الجيش؟ يهلك، عندك نوق، وإبل، وعندك رجال، فإذا ضعفوا وخاروا، خلاص هذا انهيار معنوي، وإذا انهارت الأبدان، وانهارت المعنويات، فهذه علامة الهزيمة.
- صورة أخرى لمشهد المعركة، وهي التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: 42] ما المقصود بالعدوة الدنيا؟ يعني جهة الوادي الدنيا، أي إلى الشمال، تذكرتم موقع بدر أين؟ تقريبًا هي شمال غرب تقريبًا المدينة، لاحظوا الآن في الصورة السابقة المدينة هنا، لاحظوا السهم هذا الأعلى، المدينة في هذا الاتجاه، ومكة في هذا الاتجاه، هنا الصورة الأخرى التالية، توضح لنا أرض المعركة تمامًا، هنا ماء بدر، في هذا الموضع، هذا ماء بدر، وهذا العريش، وهو مكان يُشبه الخيمة، من سعف النخل، ليُظل النبي -عليه الصلاة والسلام-، كان الجو حاراً، وهنا معسكر المسلمين الأول، قبل الإشارة، يعني كان أول ما جاء المسلمون إلى غزوة بدر، كانوا في هذا الموضع، بجانب كلمة "العدوة الدنيا"، هذا الموضع الأول، فلما اقترح الحباب بن المنذر، الاقتراح الذي سبق، تقدَّموا، لاحظوا هنا حوض، وهنا مياه، فتقدموا إلى هذا الموقع، وكانوا قرابة ثلاثمائة وأربعة عشر مجاهدًا، -رضوان الله عليهم أجمعين-.
- هنا نلاحظ ستأتي قصة المبارزة بعد قليل، الشاهد: هنا قدِم المشركون من مكة، من هذه الجهة، من جهة أسفل الصورة، واقتربوا إلى هذا الموضع، ليس أمامهم من المياه حوض واحد، وكانوا قرابة تسعمائة وخمسين مقاتل، كما ترون في هذا الموضع من الخريطة. إذن هذه الصورة الآن.

- إذا تصورنا هذا، ننتقل إلى تعليق الحافظ ابن كثير، يقول: مشى النبي -صلى الله عليه وسلم- في موضع المعركة، بعد أن بذل كل الأسباب المادية والحسية والتحفيز المعنوي للصحابة، وكان يقول: «لا يقاتل أحد هؤلاء فيُقتل صابراً محتسباً إلا أدخله الله الجنة»، ولما سمع عمير بن الحمام -رضي الله عنه وأرضاه- كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا، وكان بيده تمرات، لا تكاد تتجاوز الخمس أو السبع، فلما سمع هذا، قال: "لئن بقيت لأن حتى آكل هذه التمرات، إنها لحياة طويلة". سبحان الله، رأى أن المدة التي يبقى فيها ليأكل خمس تمرات، يمكن ما تكلف ثلاث دقائق، لكنها إذا كانت عقبة دون الجنة، فهي حياة طويلة، لاحظتم، هذا مقصوده.
- فلما بذل النبي -صلى الله عليه وسلم- هذه الأسباب كلها، ورتب الجيش، واستشار، وشيء من هذا القبيل، هذا: «هذا مصرع فلان»، هذا أيضًا تحفيز معنوي آخر، رغَّبهم في الجنة، وبيَّن لهم أن مصارع القوم قريبة، وفي تحفيزه -صلى الله عليه وسلم- للصحابة بذكر الآخرة، درس تربوي للآباء والأمهات، للمعلمين، للمدرسين في حِلق القرآن، لا تستطيع أنت أن تُغري الناس دائمًا بالدنيا، وقد لا تملكها أصلاً، لكن أعظم ترغيب وتحفيز، تكره على أولادك ومن تحت يدك من الطلاب، هو تعليقهم بالآخرة، فهذه هي طريقة الأنبياء. انظر ماذا قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: 39]، إبراهيم -عليه السلام- لما ذكر الله -عز وجل- له عند دعوات، قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 41]، التعليق بالآخرة هو من أعظم الأساليب التي يعلق بها المربون من تحت أيديهم، مهما أردت، ومهما حاولت أن تعطيه أموال، أو تعطيه كذا، ستبدأ نفسه تتطلع إلى ما هو أعظم، ثم أنت تتوقف وتعجز، فيا أيها المربون والمربيات، احرصوا على تربية من تحت أيديكم، وتحفيزهم بالمطالب العالية، بالآخرة، بالله عليكم، لو علَّقتم الابن والبنت بأنه إذا كفَّ عن الحرام، أو فعل الواجب، أن الله -عز وجل- يرضى عنه، وأنه سيدخل الجنة، التي سيجد فيها النبي -عليه الصلاة والسلام-، ويجد فيها إبراهيم وموسى وعيسى، فيجد فيها أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وهؤلاء الصحب الكرام، أيها أعظم؟ أم تقول له: سأعطيك خمسين ريال، أو مائة ريال، اليوم تعطيه مائة، لكن بكرة كم ستأتيه؟ مائتين، بكرة وبعده ثلاثمائة ألف، ثم تتوقف، تقول: انتهت الحوافز التي عندي، وأنا لا أنكر الحوافز المادية المحسوسة، لكن لا تكن هي الغالبة، ولا هي الطاغية، علِّقهم برضا الله، علِّقهم بالجنة، علِّقهم بالخوف من النار، هذه التي تبقى معهم في حياتك، وبعد مماتك.
- يقول -رحمه الله- بعد ذلك: "بات النبي -صلى الله عليه وسلم- يصلي إلى جذم شجرة هناك". يعني إلى أصل شجرة، إذن هذه من الاستعداد لقتال الأعداء، وهو حُسن الصلة بالله -عز وجل-، والدعاء، فلا أحد يسخر من الدعاء، ولا يقلل من شأنه، بل هو أحد الأسباب التي يُستنصر بها، قال الله -عز وجل-: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 9]، وكان من دعائه -عليه الصلاة والسلام-: «اللهم هذه قريش قد أقبلت في فخرها وخيلائها، تحادك وتحاد رسولك» -صلى الله عليه وسلم-.
- المهم أنه -عليه الصلاة والسلام- لما أعد الجيش للقتال، وتهيأ الصفان، خرج ثلاثة من كفار قريش، عتبة، والوليد، ورجل ثالث، وهو قيل شيبة، وقيل عتبة، فاختلفوا أو طلبوا البراز، عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، هؤلاء الثلاثة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، عوف، ومعوَّذ بن عفراء، وعبد الله بن

رواحة، قالوا: من أنتم؟ قالوا: فلان، وفلان، وفلان، قالوا: من الأنصار؟ قالوا: أكفاءٌ كرام، ولكننا نريد بني عمنا، نحن الآن خرجنا لنقاتل بني عمنا، يقصدون من قريش، فبرز إليهم علي بن أبي طالب، الأسد، الضرغام، وخرج إليه عبيدة بن الحارث، وخرج إليه أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنهم-، هذا ابن عمر الرسول، وهذا عم الرسول، ورضوان الله عليهم أجمعين.

- أما علي، فقتل الوليد، وأما حمزة فقتل عتبة، وقيل شيبة، وأما الثالث وهو الوليد، فقد اختلف هو وعبيدة بن الحارث ضربتين، كلاهما لم يقتل صاحبه، فجاء علي وحمزة، فحملا على الوليد فقتلاه، وأما عبيدة -رضي الله عنه- فبقي أياماً ثم لحق بربه شهيداً -رضي الله عنه وأرضاه-، هذا من المشاهد التي ابتدأت فيها هذه المعركة، وعلي -رضي الله عنه- يقول: أنا أول من يجثوا للخصومة عند الله -عز وجل-، ثم تلا هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: 19].
- هنا نلاحظ نموذجاً من نماذج تحقيق الحافظ ابن كثير، في هذا الكتاب، حينما قال: "ولاشك أن هذه الآية في سورة الحج، وهي مكية، ووقعت بدر بعد ذلك، إلا أن برازهم من أول ما دخل في معنى الآية". يعني يقول: إن علي -رضي الله عنه- لا يقصد أن الآية ما نزلت إلا ذلك اليوم، ولكن يقول: الآية تشمل ما وقع لي أنا ومن بارزناهم الثلاثة، فنجثوا يوم القيامة للخصوم بين يدي الله -سبحانه وتعالى-.
- ثم ذكر حمي الوطيس، والدعاء، وشيء من هذا القبيل، وأن الشيطان تبدى في صورة سراقة بن مالك، وأن الشيطان هرب، وزيَّن لهم الذهاب إلى أموالهم وأولادهم إلى آخره.
- يقول ابن كثير: فذلك قول الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: 48]، وهذا مثال من عدة أمثلة في القرآن الكريم، تدل على أن الشيطان يخذل من أطاعه في أحرج اللحظات، وليس هذا هو الموضع الوحيد، في آخر سورة الحشر، قال الله -عز وجل-: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: 16، 17]، والشيطان نفسه -أعاذنا الله منه، ومن حبائله، وطرقه-، يخطب يوم القيامة في النار، يقوم خطيبًا: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: 22]، أهل الجنة دخلوا الجنة، وأهل النار دخلوا النار ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22]، انظر الخبيث، الآن اعترف بأن وعد الله حق، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: 22]، أنا ما غصبت أحد، لم أضع في رقابكم حبالاً، وأقول تعالوا، طيب ماذا عملت؟ ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: 22]، وهذا مصداق قول الله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 25].
- إذن، لنحذر من نزغات الشيطان، لنحذر من إغوائه، كم زيَّن الشيطان من إثم، وذنب، ومعصية، ثم في الأخير خذله الشيطان، أحوج ما يكون إليه.

- ثم انتقل المؤلف -رحمه الله-، ذكر بعض التفاصيل، ومن المشاهد التي أشار لها الحافظ: أن عدد القتلى والأسرى من الكفار سبعين، وسبعين، قُتل سبعون، وأُسر سبعون، وهذا معنى قول الله -عز وجل- في منَّة على الصحابة يوم انكسروا في أحد، قال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: 165] أصبتم يعني: أدركتم وحصلتم مثليها في بدر، في أحد قُتل سبعون من الصحابة، في بدر قتل الصحابة سبعين، وأسروا سبعين، فذكَّرهم الله، يقول: تذكرون يوم بدر، قتلتم سبعين، أصبتم مثليها الضعف، قتلتم في بدر سبعين، وأسرتم سبعين، وأنتم الآن تتساءلون بعد أن قُتل منكم سبعين ﴿أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165] إن الله على كل شيء قدير.
- المشهد الثاني: مشهد قتل أبي جهل، وهو مشهد عظيم، فيه عِبر، لكن من العِبر فيه: أن هذا الرجل بلغت به الكبرياء، والجبروت إلى آخر لحظة، قتله معاذ ومعوَّذ ابني عرفاء، لكن الذي أجهز عليه نهائياً من هو؟ عبد الله بن مسعود، جاء عبد الله بن مسعود، وكان قصير القامة -رضي الله عنه-، فارتقى على صدر أبي جهل، فقال له أبو جهل: **"لقد ارتقيت مُرتقاً صعباً يا رويعي الغنم"**، انظر **"رويعي الغنم"**، حتى ما قال: "يا راعي الغنم"، تصغير، احتقار، فقال: **"لمن الدائرة اليوم؟"** قال: **"لله ورسوله، وقد جاءك ما يسوؤك يا عدو الله"**، فأجهز عليه، وكان في هذا الشفاء في صدر عبد الله بن مسعود، فإنه كان أحد الذين يعذِّبهم أبو جهل في مكة.
- فَسُرَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا، وحمد الله -عز وجل-، ثم اجْتُرَّ صناديد قريش إلى قليب بدر، وقال لهم: **«هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا؟»**، فقال الصحابة: يا رسول الله، كيف تكلِّم أناسًا قد جيفوا؟ قال: **«ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»**، وهذه حياة برزخية، فأراد الله -عز وجل- أن يُري هؤلاء خزيهم في الدنيا قبل الآخرة، وليشف صدور قوم مؤمنين.
- ثم أنزل الله -عز وجل- في غزوة سورة الأنفال، ثم ذكر قصة، وفي بعض هذه التفاصيل قصص وأخبار، لا تثبت ولا تصح، لا نريد أن نطيل فيها؛ لأن قراءة كل حرف، قد يطيل، أو يخرج بنا عن المقصود.
- المشهد الأخير من مشاهد غزوة بدر: هي مسألة الاختلاف في الأسرى، هل يُمَنُّ عليهم؟ يعني يُسامحون، ويذهبون بالفداء، أم يُقتلون؟
- كان رأي عمر -رضي الله عنه- أن يُقتلوا، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر يميلان إلى مسألة الفداء، فنزل القرآن مؤيداً لقول عمر ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: 67- 70] إلى آخر الآيات الكريمات، فكان النبي -عليه الصلاة والسلام- يهوى أن يفادي، لكن كان رأي عمر أن لا يُفعل شيءٌ من ذلك.
- والسؤال: ما سبب ترجيح قول عمر؟

- السبب أن هؤلاء أئمة في الكفر، لا يصلح معهم خطاب اللين، وفي قتلهم زجر لبقية الرءوس، التي مازالت تشم الهواء في ذلك الوقت، فإنهم إذا علموا أن مصير هؤلاء القتل، فسيكونوا خائفين، ومرتعدين، فكان من الحكمة التي نزل القرآن بتصويبها في رأي عمر، أن يُقتلوا، ونحن نقول: إن المسألة كانت اجتهادية، يعني بمعنى لا يقول قائل أننا نقدح في رأي النبي -صلى الله عليه وسلم-، حاشا، لا، لكن كانت المسألة لم ينزل فيها نص، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- سأل أبا بكر، وسأل عمر، استشارهم، هؤلاء وزراؤه الكبار، فلما حصلت الاستشارة، نزل القرآن بتسديد رأي عمر، فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة مؤزًّا منصورًا، بمن معه من الصحابة، الذين لم يُقتل منهم إلا عدد قليل، فاختار الله منهم من اختار للشهادة، واصطفى منهم من اصطفى للقتال معه، وبقي منهم من بقي، حتى أدرك بعضهم سنوات متأخرة، كعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-، وعاشوا بعد ذلك رِدْحًا من الزمن.
- ثم ذكر ابن كثير عدة المهاجرين: ستة وثمانين رجل، ومن الأوس واحد وستين، ومن الخزرج مائة وسبعون، ثم ذكر سبب قلة الأوس، مع أنهم أشد، والسبب أن مخرج الصحابة -رضي الله عنهم- كان في جهة العوالي، وهي أقرب إلى منازل الخزرج منها إلى الأوس، وأيضاً كما قلنا لم يكن هناك داعٍ للجهاد، إنما كان تلقيًّا للعير فقط، ولذلك لم يُعاتب النبي -صلى الله عليه وسلم- أحدًا تخلَّف أحدًا تخلَّف عن غزوة بدر، بخلاف الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك؛ لأن داعي الجهاد قد قام، كما سيأتينا -إن شاء الله- في موضعه.
- هنا ذكر عدتهم، وعدة المشركين، وغير ذلك في تفاصيل تُراجع في موضعها.

أبرز الدروس والعبر التي تُستفاد من هذه الغزوة.

❖ **أولاً:** أثر التربية الصادقة القوية، على المتربين إذا جاءت الشدائد والمواجهات، من أين نأخذ هذا؟

هؤلاء الصحابة -رضي الله عنهم- الذين أبلوا بلاءً عظيماً، هل كانوا أُخبروا بأن هناك معركة أو قتال؟ أبدًا، ومع ذلك ظهرت بطولاتهم، من أين ظهرت بطولاتهم؟ هناك تربية سابقة، لهذا أقول أيها الإخوة والأخوات، وأنا أتحدث إلى أناس ينتشرون على خريطة العالم، لا أقول العالم الإسلامي، بل العالم كله، الله الله في تربية أبنائكم، أعدوهم للمرحلة القادمة، فإن الأيام القادمة عظيمة، وحُبلى، أعدوهم، املئوا قلوبهم بالإيمان، املئوا قلوبهم بالصدق، املئوا قلوبهم بمحبة هذا الدين، بنصرته ولو بكلمة طيبة، أضعف الإيمان أن تنصروا هذا الدين باستقامتكم عليه، هؤلاء تربوا في مكة ثلاثة عشر سنة، وفي المدينة سنتين تقريبًا، على قال الله، قال رسوله.

كان الله -سبحانه وتعالى- يربيهم على قصص الأنبياء، يربيهم على تعظيمه -سبحانه وتعالى-، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يربيهم بالقرآن المكي، وبأوائل ما نزل من القرآن المدني، على الاستسلام لله -عز وجل-، ولأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم-، كان يربيهم على البذل لهذا الدين، على التضحية لهذا الدين، على الاستسلام لكل ما يرد إليهم، وعدم التلكؤ أو التباطؤ، ولهذا قال الله -عز وجل- لما نزلت هذه السورة العظيمة، سورة البقرة، مع ما كثرت ما فيها من الشرائع: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: 285]، ماذا قال اليهود؟ ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: 93].

انظر إلى الفرق، مع أن اليهود لم تكثر عليهم الشرائع، كما كانت على الصحابة -رضي الله عنهم-، وليس هذا أول موضع يفضل فيه الصحب الكرام على أتباع موسى -عليه السلام-، أبدًا، انظر مثلاً في سورة المائدة، ذكر الله -عز وجل- أتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وذكر أتباع موسى -عليه السلام-، وأتباع عيسى -عليه السلام-، أما أتباع موسى -عليه السلام- فتعرفون ما قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: 24]، أما أتباع عيسى، ماذا قالوا؟ ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: 114] قبلها ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: 113]، إلى الآن الطمأنينة ما بلغت ذروتها، بينما الصحابة -رضي الله عنهم- يُحرَّم عليهم الصيد حال الإحرام، وتعرف الإنسان إذا كان في مسير، في طريق، ويمر عليه الصيد، وطعم لذيذ، لحم الظباء، وحمار الوحش، أطيب ما يكون، ومع ذلك يقول أبو قتادة: **"والله إن حمار الوحش، لَتَسْتَكُّ بفخذ أحدنا، والله ما يقربها أحدنا؛ ليعلم الله من يخافه بالغيب"**، فصدقوا -رضي الله عنهم-، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: 94]، يعني لو تلمسه بيدك لاستطعت أن تقبض عليه، أو تمسكه، ومع ذلك ما اقتربوا من الصيد -رضي الله عنهم-، الذي حُرِّمَ عليهم.

أرأيت الفريق بين أتباع الأنبياء؟ حتى تعلم كيف أن الله اختار لأفضل رسول أفضل أتباع وأصحاب.

إذن، نقول: على الآباء والأمهات أن يجتهدوا في التربية، وأن يحذروا من اليأس، بسبب المتغيرات الدولية، أو بسبب الثقافات التي غزت البيوت، والفضائيات إلى آخره، نعم هذا شر، لكن لم يجعل الناس في شر محض، بل ما يوجد في هذه الفضائيات السيئة، وهذه التقنية من آثار سيئة ومفاسد، هناك آثار ممتازة جدًّا، كم سهَّلت على المربين الحريصين على تربية أولادهم.

❖ **ثانياً:** إعمال الرأي والمشورة كما سبق ، فلا يستبد الإنسان برأيه ويقول: أنا أفهم كل شيء، وأنا أريد كل شيء، أقول هذا؛ لأن بعض الدعاة، وبعض طلاب العلم -هداهم الله- أحيانًا يكون في بيئة معينة، ويقول: أنا قصدي حسن، وأنا غرضي طيب، وحسن، ثم يتجاوز العقلاء، ويتجاوز الذين أكبر منه سنًّا، أو أكثر من خبرةً وعلماً، بحجة أنه غيور، وأنه حريص على دين الله -عز وجل-، لم تكن هذه معايير كافية لأن يتقدَّم الإنسان وحده، لو كان أحد يستغني عن الاستشارة، لكان النبي -عليه الصلاة والسلام-.

❖ **ثالثاً:** فعل الأسباب الشرعية، أو الحسية والمعنوية، الحسية بإعداد الجيوش ونحو ذلك، والمعنوية بالدعاء، وقد سمعتم قول الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: 9].

❖ **رابعاً:** أيضًا على المُربِي أن يستخدم أسلوب التحفيز، كما ذكرنا قبل قليل، الربط بالآخرة، التحفيز بذكر فضائل هذا العمل الذي يفعله الآن، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«ما بينكم وبين أن يدخل أحدكم الجنة، إلا أن يقتله هؤلاء»**.

❖ **خامساً:** أن دولة الباطل قد تنتفش زماناً، ووقتاً من الأوقات، لكنها لا تدوم، يُسلِّط الله عليها دولة الحق، فتكسر شوكتها، وتخضدها، وتنكِّس رايتها، كم بقي الكفار في مكة؟ وهم يؤذون المؤمنين، ويسومونهم سوء العذاب؟ خمس عشرة سنة، ثلاثة عشر في مكة، وسنتان في المدينة، فكسر الله

شوكتهم في يوم واحد، وفي أضحية واحدة، وهي اليوم السابع عشر، من شهر رمضان في يوم الجمعة، فيوم مبارك، وشهر مبارك، وغزوة مباركة.

- **سادساً:** أن شهر رمضان من أشهر الجد والنشاط والعزم، لا كما للأسف رسخ في نفوس كثير من الناس أنه شهر كسل، وشهر نوم، أو شهر تقليص للإنتاج، كلا، رمضان في تاريخ حفل بغزوات كبرى وعُظمى على رأسها غزوة بدر، وبعض الناس اليوم ما عنده استعداد يقرأ عشرة أجزاء في اليوم بحجة أنه في رمضان، وأنه في النهار صائم، وفي الليل نائم أو سهران، متى تقرأ؟ إذا كان رمضان عجزت أن تلحق فيه بركب العُبَّاد، فماذا تصنع بالجهاد لو أُقيم في رمضان، أو أُعلن في رمضان؟ ماذا تصنع؟ تقول: والله صايمين تعبانين، هذا لا يقوم الدين على أناس هذا طموحهم.

- **سابعاً:** ظهور الولاء والبراء في هذه الغزوة، بشكل واضح، الولاء لأهل الإيمان، وقبل ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقبل ذلك لله -عز وجل-، والبراءة من أعدائهم.

انظر كم اجتمع في هذه المعركة من آباء وأبناء وأقارب، مثلاً أبو حذيفة -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، أحد الصحابة البدريين، قاتل مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبوه في صف المشركين، الذي قتله مَن؟ حمزة، أو علي -رضي الله عنه-، كما تقدَّم قبل قليل، ومما يُذكر أن أبا عبيدة كان في صف المسلمين، وأبوه كان في صف المشركين، هنا إذا وصلت المسألة إلى هذا الحد، يبقى الولاء لله ولرسوله، فمادام أنه اضطر وبقي في صف يقاتل فيه أهل الإيمان، فهنا يظهر الولاء والبراء لله ورسوله، الولاء لأوليائه، والبراءة من أعدائه.

- **ثامناً:** أن التعقيب القرآني على قصة غزوة بدر، جاء بدروسٍ بالغة الأهمية جدًّا، ينبغي أن ينتبه لها الدعاة.

أول تعقيب لمن قرأ سورة الأنفال، يلحظ فيه التأكيد على قضايا كبرى، لاحظوا ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ التي هي الغنائم، قال الله -عز وجل-: ﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 1]، أين الجواب؟ هم يريدون كيف تُقسم، فما جاء الجواب إلا بعد أربعين آية، في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

ما الذي جاء به القرآن هنا في أوائل الآيات؟ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 1، 4].

كلمة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فيها إشارة إلى ماذا؟ إلى أنه لا يمكن تنتصروا على عدوكم، وأنتم لم تنتصروا على أنفسكم، لم تنتصروا على حظوظها، هذه واحدة.

ثانيًا: فيها إشارة إلى أن دخول الحسابات المادية بين الدعاة، بين المجاهدين، هذا يقول: أنا أريد أن أصير أمير، وهذا يقول أريد أن أصير لي كذا من الغنيمة، وأنا أولى، وأنا أحق، وأنا المفروض أصير كذا

وأصير كذا، وأصير كذا، هذه بداية النزاع، وبداية الفشل، ولهذا قال الله -عز وجل-، في ثنايا آيات سورة الأنفال، التي هي سورة غزوة بدر كما يقول ابن عباس: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46]، ولا أظني بحاجة إلى ذكر أمثلة في الواقع، انظروا إلى بعض الحركات التي ابتليت بغزو جائر من بعض بلاد الكفر، كيف كان القتال في بداية الأمر ضد هذا العدو، تقريبًا شبه موحد نقول، فلما خرج العدو مُنكسراً، رجعوا واقتتلوا بينهم، لماذا؟ لأن الدنيا حضرت، والحظوظ الشخصية حضرت، ولهذا حصل القتل، وحصل القتال، والبغي، فذهبت بركة وثمرة ذلك الجهاد، وأصبح الناس خصوصاً الأعداء يشمتون بأمثال هؤلاء، ويقولون: أثر قتالهم السابق، إنما كان لأجل المكاسب هذه، فصاروا يقتتلون، وتجد جماعات، وكل إنسان يستقل بإمارة، وكل إنسان يستقل بجماعة، ويقول: أنا أولى، وأنا أحق، وأنا أقدم، وأنا أكبر، وأنا فعلت، وأنا لم أفعل.

إذن في هذا التعقيب القرآني، درس عظيم جدًّا لأهل الإسلام، بأن يحذروا من حظوظ النفس، وأن يجتهدوا في إصلاح ذات البين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: 1]، فإن لم يوجد إصلاح لذات البين، فقد استراح العدو، إذا كنا نريد أن نقاتل عدواً مُجمعاً عليه، كافر، غزى البلد، أو نحو ذلك، كيف نقاتله، ونحن في أنفسنا متنازعون؟ لا يمكن،

أيضًا إشارة إلى أن دخول المال في الحسابات هذه مُفسد، انظر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: 1]، انتظر، لم يأتك الجواب بعد، ثم تلاحظ كم وصية في التقوى، وكم وصية في ذكر الله -عز وجل-، والصبر، وعدم النزاع، وأن النزاع سبب الفشل، وذهاب الريح، وضعف القوى، ثم تسلُّط العدو وهكذا.

❖ **تاسعاً:** أثر التربية البيتية أو المنزلية -إن صح العبارة- أو تربية الوالدين لأولادهم، وهذه وإن لم نذكرها بالتفصيل، لكن جاء في ثنايا غزوة بدر، في سياقات كثيرة، منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، من حديث عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- قال: "كنت يوم بدر بين غلامين، تمنيت أو قال: وددت لو كنت بين أجلد منهما، الرجل الكبير يحب أن يكون مع الكبار، فغمزني أحدهما، وقال: يا عم، أين أبو جهل؟ قال: وما حاجتك به يا ابن أخي؟ قال: إني سمعت أنه يسب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يقول: فلم يكد ينتهي من مقالته، حتى غمزني الذي على يساري، وقال: يا عم، أين أبو جهل؟ قال: وما حاجتك يا ابن أخي؟ مثل الكلام السابق، يقول: فما كدت أجيبه، حتى رأيت أبا جهل يزول في الناس، يعني يمشي، وقلت: هذا صاحبكم الذي تنشدان، قالا: فانطلقا تخط أسيافهما في الأرض، قِصار، السيف إذا وضعه في الوسط يسحب في الأرض، يخط، قال: فقتلاه، معاذ ومعوَّذ ابنا عفراء، حتى جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- «كلاكما قتله» ، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «كلاكما قتله».

السؤال: هذه النفوس الشابة القوية، التي تعلَّقت بالجهاد، وتعلَّقت بقتل عدو الله ورسوله، هل هذا خرج من فراغ؟ أم هناك تربية سابقة؟

هناك تربية سابقة، إذن البيت يتحمل كِفلاً عظيماً، أو جزءاً كبيراً من مسئولية التربية، خصوصاً ما قبل دخول المدرسة، وأنا أهنئ كل أمٍّ بقيت في بيتها، أو حتى ولو ارتبطت بعمل، لكنها أولت صغارها

التربية الإيمانية، التي تظهر آثارها في الشدائد، والله إن أول من ينتفع أيها الإخوة والأخوات من تربية أبنائه وبناته، على معالي الأمور، وعلى مكارم الأخلاق، وعلى الديانة، وعلى الإيمان، أول من ينتفع بذلك أنتم، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث» ، وذكر منها: «أو ولد صالح يدعو له».

هذا الابن أو البنت، إذا كبروا وصلحوا، فكل خيرٍ يعملونه بسبب تربيتكم لكم فيه أجر ونصيب.

❖ **عاشراً:** ظهر في هذه الغزوة مصداق قول الله -عز وجل-: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

عدد المسلمين أقل من ثلث المشركين، وليس هذا تهوُّرًا، هذا أصلاً لم يكن مُرتَّبًا له -كما قلنا أكثر من مرة-، لكن إذا بذل المسلمون السبب، سخَّر الله لهم جنود السماوات والأرض، ومما سخَّر الله له المسلمين في هذه المعركة، الملائكة، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث ابن عباس، وفي آية الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]، الملائكة يأتمرون بأمر من؟ بأمر الله، وقتال الملائكة ليس كقتال أي أحد، الملك عن مئات وآلاف المقاتلين.

- وكان الصحابة يعرفون الرجل الذي تقتله الملائكة، بماذا؟

بعلامة في أصبعه، حتى قال الراوي الذي حدَّث عن ابن عباس أظنه الزبير، قال: "لم أشعر إلا ورجل قد نَدَرَ رأسه" ألتفت أرى أحد، ما وجدت أحدًا، هؤلاء الملائكة، وأنا أقول: والله الذي لا إله غيره، إننا إن صدقنا مع الله -عز وجل-، ونصرنا دينه حقًّا، كما يريد، ليمدنا الله -عز وجل- بجنود من عنده، نحن لا نحدد هذه الجنود، قد تكون رياح، قد تكون أمطار، قد تكون نكبات على العدو، قد تكون، وقد تكون، لكن المهم أن نصدق مع الله -عز وجل-، ونصلح علاقتنا به.

- هذه أيها الإخوة والأخوات إشارات عابرات، لهذه الغزوة العظيمة، غزوة بدر الكبرى، التي سماها الله -سبحانه وتعالى-: "يوم الفرقان"، فرَّق الله فيها بين الحق والباطل، وكان لهذه الغزوة آثارها بعد في قوة دولة أسسها النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة، وفي ظل تناميها وقوتها، انكسرت دولة المشركين في مكة.
- ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 13]، للحديث بقية.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كان الحديث قد توقف بنا أيها الإخوة والأخوات، والإخوة الحضور قبل هذا في الاستوديو، عند أواخر، أو نهاية كلام الحافظ ابن كثير عن غزوة بدرٍ، ثم بعد ذلك تلا غزوة بدرٍ بعض الغزوات التي تسمى غزواتٍ صغيرةً، أو غزواتٍ لم يحدث فيها قتالٌ، فأشار الحافظ ابن كثير، ونحن قد نضطر إلى بعض المرور السريع على بعض الغزوات اليسيرة هذه، ومن أراد أن يقرأها في الكتاب، فالحافظ ابن كثير يعلِّق عليها باختصارٍ شديدٍ.
- لكنه ذكر ثلاث غزواتٍ، غزوة بني سليمٍ، وغزوة ذي أمر، وغزوة بحران، كل هذه الغزوات الثلاثة ذهب فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع جملةٍ من أصحابه، وفي جميعها يقول ابن كثير: ذهب أو رجع ولم يلق حربًا، وهذه نستفيد منها فائدةً، وهي: أن الغزوة لا يُشترط أن يكون فيها قتالٌ، وإنما يكون فيها عزمٌ على القتال، فإن وُجد، وإلا فلا ينتفي عنها وصف الغزوة.
- ومن الغزوات التي تلت غزوة بدرٍ، هي غزوة ما تُعرف بغزوة السويق. وفكرتها أو قصتها أن أبا سفيان لما رجع إلى مكة بعد غزوة بدرٍ أوقع الله -عزَّ وجلَّ- في أصحابه ببدرٍ بأسه -سبحانه وتعالى-، كما تلاحظون في الشاشة الآن، لمن لم يكن معه الكتاب، فنذر أبو سفيان أن لا يمس رأسه بماءٍ، وهذه طريقةٌ من طرق النذور عند الجاهلية، حتى يغزو النبي -صلى الله عليه وسلم-، فخرج في مائتي راكبٍ، فنزل طرف العريضة، وبات ليلةً واحدةً في بني النضير عند سلَّام بن مشكم.
- لاحظ الآن التحالفات، المشركين مع اليهود، ضد المسلمين، فهذه سُنَّةٌ ماضيةٌ، وسيأتينا -إن شاء الله- في أُحد التحالفات بين المنافقين وبين اليهود، وبين المشركين، كلهم ضد الإسلام والمسلمين، فهذه قضايا واضحةٌ جدًّا التاريخ يسطِّرها بوضوحٍ.
- يقول: سقاه، وبطن له من خبر الناس، يعني أعطاه بعض الأسرار، ثم أصبح في أصحابه، وأمر فقطَّع أسوارًا من النخل، والمقصود بالأسوار هي النخل الصغار، أو المجتمعة، وقتل رجلًا من الأنصار، وحليفًا له، ثم رجع أبو سفيان، ولم يصنع شيئًا، لكن حرص النبي -عليه الصلاة والسلام- على اللحاق به، فخرج في طلبه، والمسلمون، فبلغ قرقرة الكدر، وفاته أبو سفيان والمشركون، نظرًا لأنهم كانوا يحملون معهم السويق، وخشية من التعطل في الطريق، شقوا هذه الأكياس لينتثر السويق في الأرض، ولهذا سميت غزوة السويق، نظرًا

لسقوط السويق في الأرض؛ لأنهم أرادوا أن يتخففوا بأزوادهم، وكانت هذه في السنة الثانية من الهجرة، لكن في شهر ذي الحجة، ورجع النبي -عليه الصلاة والسلام- وكان قد استخلف عليها أبا لبابة.



- نلاحظ في الخريطة الآن يُظهرها المخرج مشكورًا، تحديد موقع القرقرة هذه التي مرَّت معنا، قرقرة الكدر، تلاحظون الآن في الخريطة المؤشر عند اللون الوردي هذا، هذا موقع القرقرة، التي ذكرها الحافظ ابن كثير قبل قليلٍ، حينما خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- يطلبه والمسلمون، اتجه أبو سفيان، يعني هذه الجهة، وهو يريد مكة، لكن طبيعة المراوغة في الحرب تقتضي نوعًا من الميلان، إما ذات اليمين، وإما ذات اليسار، لا تكون على الطرق المسلوكة والمعروفة، وإلا سهل اقتناصه والظفر به.
- لما بلغ هذه الموضع خففوا أزوادهم، وشقوها كما قد تقدم، هذه موقعة أو غزوة السويق، هي تقريبًا في الجنوب الشرقي من المدينة.
- ثم بعد ذلك يقول ابن كثير -رحمه الله-: ثم أقام النبي -صلى الله عليه وسلم- بقية ذي الحجة، ذكر قصة ذي أمر، أو غزوة بحران، ثم انتقل إلى غزوةٍ أكبر، وهي غزوةٌ مشهورةٌ، وهي غزوة بني قينقاع.
- وسببها: أن بني قينقاع هؤلاء، وهم أحد طوائف اليهود الثلاثة، بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، هؤلاء كانوا تجارًا، وكان عددهم سبعمائة مقاتلًا، فخرج النبي -عليه الصلاة والسلام- لحصارهم واستخلف على المدينة بشير بن عبد المنذر، وهذه سنةٌ نبويةٌ، في الاستخلاف سار عليها الخلفاء من بعده، إذا خرج الحاكم أو الأمير أو الوالي على البلد من دولته ومن مكانه فإنه ينيب عنه شخصًا يقوم بشئون الدولة كما هو معلومٌ، وهذا عرفٌ سائدٌ، وهو ما يعرف بعد بولي العهد، أو نائب الرئيس، أو نحو ذلك، ليقوم بمهام الدولة، حتى لو حصل أي إشكالاتٍ، وإذا هم يجدون من يقوم بحلها.
- يقول: فحاصرهم النبي -عليه الصلاة والسلام- خمس عشرة ليلةً، فنزلوا على حكمه -عليه الصلاة والسلام-.
- انظر الآن التحالف النفاقي مع اليهودي، يقول: فشفع فيهم عبد الله بن أبي بن سلول؛ لأنهم كانوا حلفاء للخزرج في الجاهلية، وهو سيد الخزرج، فشفَّعه النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما ألح على النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقد كانوا في طرف المدينة.
- من الأحداث المهمة التي وقعت في هذه الفترة بعد غزوة بدرٍ، وبعد شهر ذي الحجة أيضًا: قصة مقتل كعب بن الأشرف، وهي ثابتةٌ في الصحيحين، عرض لها ابن كثير باختصارٍ، ونحن كذلك نمر عليها باختصارٍ.
- كعب بن الأشرف كان أحد سادات اليهود، وهو رجلٌ من طيءٍ، يعني أصوله من جهة حائل، لكنه يهودي الديانة، فكان يؤذي النبي -عليه الصلاة والسلام-، ويؤذي الله -عزَّ وجلَّ-، ويؤذي نساء المؤمنات بالتشبيب بهن، التغزل والكلام بهن بطريقة فجَّةٍ وفاجرةٍ.

- فقال النبي -عليه الصلاة والسلام- مستنفرًا الصحابة: **«من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله»** ، فنفر جماعةٌ من الصحابة، منهم: محمد بن مسلمة، كما ذكرهم ابن كثير، وعبَّاد بن وقش، وسلكان بن مشكم، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وهذه كان لها دورٌ في عملية المكر والخديعة، وهو أن يأتي شخصٌ، لا يتوقع أن يؤتى من جهته، وكان معهم أيضًا الحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر -رضي الله عنهم-.
- استأذنوا النبي -عليه الصلاة والسلام- من باب الخديعة أن يتكلموا في الرسول عند كعب بن الأشرف، فقالوا له: هذا رجلٌ جاء وفرَّق جماعتنا، وسفَّه آلهتنا، وهذا الكلام كُفرٌ، في الأصل كُفرٌ لا يجوز، لكن لما أذن النبي -عليه الصلاة والسلام- فيه، صار جائزًا، بل قد يكون مشروعًا، كما أن السجود لغير الله -عزَّ وجلَّ- لا يجوز، إلا إذا أذن الله -عزَّ وجلَّ- فيه، كما سجد الملائكة طاعةً لله لآدم، فلما أعرض إبليس عن هذا صار كافرًا.
- المهم، أنهم استدرجوه من الأُطم، من الحصن، وتعرفون اليهود لهم حصونٌ، يعني كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: 14]، وكعب بن الأشرف حصنه مازالت آثاره موجودةً في المدينة إلى الآن، وقد زرته أنا، وربما زاره بعضكم، وهو موجودٌ، لو كتب أحدكم "حصن كعب بن الأشرف" في جوجل، سيرى آثاره موجودةً، حصونٌ غليظةٌ -سبحان الله- يعني متينةٌ جدًّا.



حصن كعب بن الأشرف

- الغريب ما هو؟ قالت زوجته في تلك الليلة: إني أشم رائحة الدم. المهم أنهم في قصةٍ مطولةٍ يراجعها من شاء في الصحيحين، وطوَّل فيها الإمام مسلم -رحمه الله-، وحصل قتله ولله الحمد، ثم لما أصبح الصباح، نعى الناعي أنعي سيد بني قريظة كعب بن الأشرف.
- ثم الحمد لله، يعني كان ممن أصيب أبو عبس -رضي الله عنه-، وتقدَّم إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، فرقاه، فرجعت قدمه كأن لم يصبها شيءٌ، ببركة دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- ثم بعد ذلك يأتي الحديث المفصَّل عن غزوة أحد، وهي التي الحقيقة نحتاج أن نتوقف معها قليلًا.
- غزوة أحد، كما هو معلومٌ، جاءت بعد موقعة بدرٍ بسنةٍ وشهرٍ تقريبًا، ثلاثة عشر شهرًا.

- المشركون صُدموا، ومازالوا يعيشون مرارة الهزيمة التي أصابتهم يوم بدرٍ، فأقسموا أن ينتقموا لساداتهم وأشرافهم. معلومٌ أن ساداتهم وأشرافهم عامتهم قد قُتلوا، وكثيرٌ منهم أُلقي في القليب، كما تقدَّم معنا في الدرس الماضي، وجاءت غزوة السويق، التي أشرنا إليها قبل قليلٍ، كنوعٍ من المناوشة والتحرك للانتقام للمشركين، لكن لم يحصل لأبي سفيان ومن معه شيءٌ من ذلك، وهنا عجائب جدًّا، أبو سفيان حاول وحاول وحاول، أبى الله -عزَّ وجلَّ- إلا أن تدور الأيام، ليُسلم هذا الرجل، ويكون من أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام-.



- المهم أن المشركين جاءوا واقتربوا من جبل يُقال له عينين، وهذا الجبل هو الذي كان عليه الرُّماة في غزوة أحد، وهذه صورة له، لعل المخرج يتكرم بإظهار الصورة، تلاحظون المؤشر الآن، هذا هو الجبل، لاحظوا، الآن الذي يزور الموقع سيجد هناك مسجدًا، ويجد مقبرة الشهداء هذه، الجبل هذا هو، هذا الذي يدور عليه المؤشر، هذا جبل عينين، اقترب منه المشركون، من أجل الانتقام كما قلنا.
- النبي -عليه الصلاة والسلام- لما عرف بقدوم المشركين، استشار الصحابة كعادته، وفي ثنايا سياق غزوة أحد في سورة آل عمران، قال الله -عزَّ وجلَّ- فيها: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، لأن الأمر هنا يتعلق بالأمة كلها، ومن شأن الحاكم، ومن شأن المسئول، ومن شأن الأب في البيت أن يُفعِّل مبدأ الشورى، وإذا كان النبي -عليه الصلاة والسلام- استشار في هذه القضايا، فهذا ليس نقصًا فيه -عليه الصلاة والسلام-، الله قد يسدد بالوحي، ويقول: امض لكذا، ويمضي، لكن أراد الله أن تكون سنةً له وللخلفاء والقادة الذين يأتون من بعده، أن لا يستبد بالأمر، بل يستشير، والعاقل من الناس هو من يضيف إلى عقله عقولًا أخرى، ولا يستبد ويقول: أنا عالمٌ، أنا فاهمٌ، أنا سياسيٌّ محنَّكٌ، أنا اقتصاديٌّ خبيرٌ، أنا عالم اجتماعٍ، أنا طبيبٌ، ما أحتاج أستشير، يستشير الإنسان ثم يتوكل على الله -سبحانه وتعالى-، وهذا أحد الأسباب التي يُستجلب بها الخير، ويُستدفع بها الشر.
- وفيه فائدةٌ أخرى، قضية الشورى، وهي: أن تتحمل الأُمَّة تبعة القرار، تصوروا لو أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قرر رأيًّا ثم حصلت الهزيمة التي حصلت، ماذا سيُقال؟ قد يقول أناسٌ: هذا رأي الرسول، لو أطاعنا لحصل كذا وكذا مثلًا، كما قال المنافقون: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: 168]، يعني لو بقوا في المدينة ما خرجوا، ما حصل ما حصل، لكن هذا المقصود منه: أن الإنسان العاقل يستشير في كبير الأمور وما هو أقل منها. يستشير في الأمر بالذات الذي يتعلق به شأنٌ في الأُمَّة، وأعرف بعض أهل العلم أحيانًا إذا أراد أن يكتب مقالًا، أو يكتب كما يقال تغريدةً، أو منشورًا على الفيس بوك، له صلةٌ بالأُمَّة، وتخاطَب به الأُمَّة يعرضه على

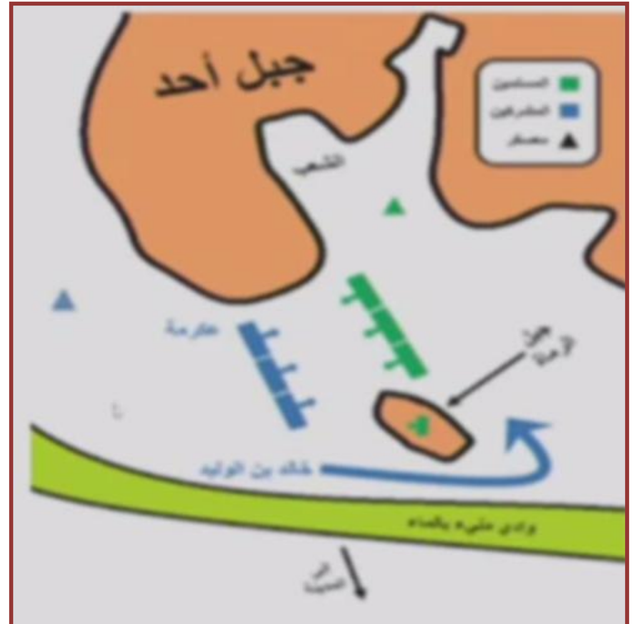
أربعةٍ، أو ثلاثةٍ، أو خمسةٍ، إلى سبعة أشخاصٍ أحيانًا، من أجل أن يشيروا إليه، حتى لا يفوت عليه شيءٌ، أو يقول كلمة غير مناسبةٍ.

- فكان النبي -عليه الصلاة والسلام- استشار الصحابة، الذين تخلَّف منهم في غزوة بدرٍ ألحوا بالخروج، طلبًا للشهادة، ومنازلة المشركين، عبد الله بن أبي بن سلول، وجماعةٌ من الصحابة الصادقين، ليسوا منافقين، كان رأيهم أن يبقوا في المدينة، وأن لا يخرجوا إلى خارجها، نظرًا لأن المدينة يمكن الإحاطة بها من قريبٍ، ودفع العدو، فلما كانت الغلبة، وأكثرهم من الشباب، الذين فاتهم شرف بدرٍ، رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الكثرة، يريدون ذلك، خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد لبس لأمته -صلى الله عليه وسلم-، وظاهر بين درعين، كما سيأتي، يعني كأن الصحابة الذين أشاروا عليه بالخروج، كأنهم قالوا: لعل الرسول يريد البقاء، إذن يا رسول الله ادخل، لا نخرج، قال: **«ما كان لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها، حتى يقضي الله بينه وبين عدوه»**.
- وأوتي -عليه الصلاة والسلام- برجلٍ من الأنصار، فصلى عليه، وكان هذا الكلام كله يوم الجمعة، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، لاحظوا الاستخلاف، حتى لا تبقى المدينة شاغرةً من أحدٍ يقوم بالأمر، وانظروا أيها الإخوة والأخوات، ليس هناك من الأُمَّة أحدٌ يمكن أن تتعطل طاقته، ولا يُنتفع به، ابن أم مكتوم أعمى، لكنه كان رجلًا صالحًا وحكيمًا، ولولا أن النبي -عليه الصلاة والسلام- عرف فيه القدرة على إدارة البلد، والدولة المدينة وما حولها باقتدارٍ، ما كلَّفه بذلك، فلا يقلق إنسانٌ أن فاته شيء من هذه الجوارح، البصر أو السمع، بل يستطيع أن يخدم الإسلام، ولو فقد شيئًا من بعض الجوارح.
- إذن، ما الذي يُخشى على الإنسان؟ أن يفقد هَمَّ نُصرة هذا الدين، فالعبرة ليست بأن تفقد قدمًا، أو تفقد يدًا، أو سمعًا أو بصرًا، كلَّا، بل عرفنا في الأُمَّة المعاصرة اليوم، من كان مشلول الأربع أطراف تمامًا، لا يتحرك إلا بعربةٍ، ومع ذلك هو قائدٌ من قواد هذه الأمة، الذين دوَّخوا أعداءها، ونعرف من أئمتنا المعاصرين، من أهل العلم، من كان رأسًا في العلم، والفتوى، والإمامة في الدين، وهو كفيف البصر، إذن ليس هناك عذرٌ للإنسان، المهم أن لا يموت قلبك، أن لا يموت عقلك في التفكير لخدمة هذا الدين، كذلك الأخوات في بيوتهن، ليس هناك أحدٌ معذورٌ في نصرة هذا الدين، إذا وُجد الهم، ترجم الإنسان هذا في نصرة الدين.
- قال -رحمه الله-: وخرج إلى أحد في ألف من الصحابة، فلما كان ببعض الطريق، انخذل عبد الله، لاحظوا خذلان المنافقين للأُمَّة أحوج ما تكون إلى النصرة.
- انخذل عبد الله بن أُبيّ، بنحو ثلاثمائةٍ، تصور أن تخرج بجيشٍ، فيعود ثلثه، قاسمةٌ للظهر، ولكن هذا صحيحٌ أنه يؤثر، لكن هذا درسٌ عظيمٌ في خذلان المنافقين للأُمَّة، في أحوج ما تكون للنصرة، وحرصهم على طعن الأُمَّة في ظهورها، إذا وجدتْ هذه الأزمات، وانظروا كم يستغل المنافقون كثيرٌ من الأزمات التي تمر بها الأُمَّة، فيخذلونها، أو يستعينون بعدوٍّ خارجيٍّ، من أجل إحداث البلبلة والخلخلة في صفوف المسلمين.

- عبد الله بن عمرو بن حرام، والد جابر -رضي الله عنه-، رجع يوّبخهم، ويقول: ارجعوا، و و، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فلما أبوا رجع عنهم، وسمّهم -رضي الله عنه وأرضاه-.
- يقول: استقل النبي -عليه الصلاة والسلام- بمن بقي معه، حتى نزل شِعب أُحد، في عدوة الوادي إلى الجبل، يعني جلس في العدوة القريبة من الجبل، وليست العدوة التي هي المفتوحة، جهة الجنوب إلى مكة، بل اتخذ الجبل حصنًا خلفيًّا يحميه، وجعل الجهة المفتوحة التي يبقى فيها الكفار، وجعل الرماة على الجبل؛ ليكونوا أيضًا حصنًا لو انقلبت موازين المعركة، وإذا السند يكون من جهة أعلى وأقوى؛ لأن رمي النبال إذا جاء من أعلى، ليس كما لو جاء من أسفل، والقدرة على تسديد الهدف أقوى.
- انظروا ماذا فعل النبي -عليه الصلاة والسلام-، لما أصبح يوم السبت تعبًّأ للقتال، ووضع خمسين فارسًا على الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير الأوسي من الأوس -رضي الله عنه-، وقال لهم، انظروا العبارة، أمرهم أن لا يغيّروا مكانهم، وأن يحفظوا ظهور المسلمين، أن يؤتوا من قِبلهم، وقال لهم، كما في السير، قال: **«لا تبرحوا مكانكم ولو رأيتم الطير تتخطَّفنا»**، يعني لا أحد ينزل إلى أن نأتي.



- انظروا إلى الصورة أيها الإخوة والأخوات الآن، توضح موقع المسلمين وموقع المشركين، المسلمون يمثِّلون اللون الأبيض، هنا، والمشركون يمثِّلون اللون الأحمر، لاحظوا الآن، المسلمون هنا وجبل الرماة هنا، والمدينة في هذه الجهة، إذن، المسلمون الآن تحصَّنوا بالجبال، كحاجزٍ طبيعيٍ قويّ جدًّا، وكانوا قريبين من حرماتهم؛ حتى لا يبغتهم المشركون، ويهجموا على المدينة.
- بقيت هذه هي الجهة المفتوحة، وهي التي أتى منها المشركون، وهم أصحاب اللون الأحمر.



هنا خريطةٌ أخرى قد تكون أوضح قليلًا، الآن المسلمون باللون الأخضر، والمشركون باللون الأزرق، جبل أحد الآن تلاحظون أنه في خلف المسلمين، هنا جبل الرماة، الذي هو القطعة البنية هذه، أو البرتقالية المستقلة، هنا قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«لا تبرحوا مكانكم، ولو رأيتم الطير تتخطَّفنا»**، وهذا وادٍ من الأودية اللون الأخضر، وادي من الأودية. ما الذي حصل؟

في أول المعركة انتصر المسلمون، كما سيذكر ابن كثير

بعد قليلٍ. نقرأ ماذا يقول -رحمه الله-.



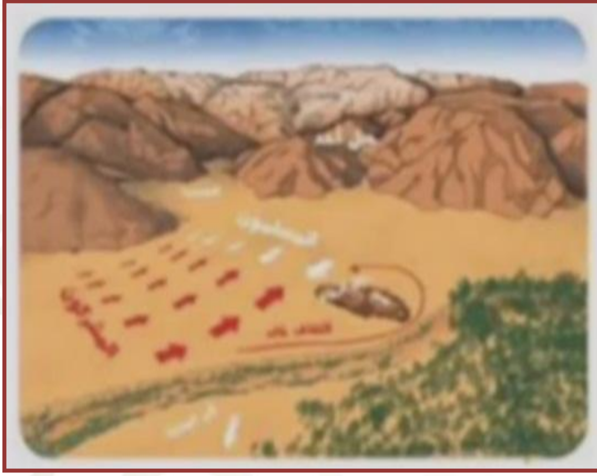
- يقول: "وظاهر النبي -صلى الله عليه وسلم- يومئذٍ بين درعين". الدرع أريكم صورته الآن، انتبهوا له، هذه صورة الدرع، عبارةٌ عن ثوبٍ حديديٍّ، لبس النبي -صلى الله عليه وسلم- ثوبين من الحديد -إن صحت العبارة- وهو الذي يسمى الدروع، هذا هو، أما الذي فوق الرأس هذه ماذا تسمى؟ خوذةً، نحن نتحدث عن الدرع، وهو من الكتف فما دون، هذا يسمى درعًا.
- ظاهر النبي -صلى الله عليه وسلم- بين درعين، وفي هذا فعلُ الأسباب، ما يأتي واحدٌ ويقول: توكلت على الله، سأقاتل، ولا أتقي، ولا أفعل، لا، وبهذا نفهم ضلال بعض أهل البدع، الذين يعطِّلون الأسباب، ويقولون: نحن متوكلون على الله، التوكل على الله فيه جانبان: هو التعلق بالله -عزَّ وجلَّ-، مع فعل الأسباب المشروعة، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].
- إذن، ظاهر النبي -صلى الله عليه وسلم- بين درعين، أعطى اللواء، وهذا أحد كما يُقال الأعراف العسكرية، أعطاه مصعب بن عمير وهو من بني عبد الدار، وجعل على المجنبة اليمنى، الزبير بن العوام، والمجنبة اليسرى، المنذر بن عمرو، وهو المعروف بـ"المعنق ليموت"، وهذا سيأتي ذكره -إن شاء الله تعالى- في قصة "بئر مئونة"، لماذا سمي "المعنق ليموت".
- واستعرض الشباب، فأجاز منهم من جاز الخمس عشرة، منهم سمرة بن جندب، ورافع بن خديج، ورد الذين لم يكونوا يومئذٍ قد بلغوا الخمس عشرة، منهم أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، وعرابة بن أوس وغيرهم.
- وهذا من الناحية الفقهية استفاد منه العلماء، كما ذكر الإمام مسلم في صحيحه، عن عمر بن عبد العزيز، أن هذا الحد بين سن البلوغ، وما قبله، فاعتبر جماهير أهل العلم أن من علامات البلوغ، بناءً على قصة أحد هذه، من علامات البلوغ، أن يبلغ الإنسان خمس عشرة سنةً، بدليل أنه -عليه الصلاة والسلام- أجاز بعض هؤلاء كعبد الله بن عمر، وكذلك البراء بن عازب، أجازهم يوم الخندق، وكانت سنة خمس، كما سيأتي، لكن في أحد كانوا أقل من خمس عشرة، فلم يجزهم -صلوات الله وسلامه عليه-.
- وفي هذا درسٌ آخر نستفيده، وهو: هذه النفوس المتوقدة، هذه النفوس والشباب الذين ملئت نفوسهم حبًّا لهذا الدين، ورغبةً في نصرته والدفاع عنه، هؤلاء الشباب تقدَّموا للجهاد، وهم يعلمون أن التبعة قد تكون قطع رقبةٍ، وإراقة دمٍ، لكن كل ذلك يهون، إذا كان في سبيل الله، والدفاع عن دينه، وعن رسوله -صلى الله عليه وسلم-. فنسأل ما هذا الجو الذي رُبِّيت فيه هذه النفوس، حتى هان عليها الموت، وهو في مقتبل العمر، هؤلاء ليسوا كبارًا في السن يا إخوان، هؤلاء شبابٌ، يعني بالمصطلح المعاصر أمامهم عمرٌ، كان بإمكانه يقول: أستمتع بحياتي أولًا، وأنبسط وكذا وكذا، ثم بعدين أذهب إلى الجهاد، لا، هؤلاء بادروا، وهذا يكشف أن من وراء هذه النفوس الكبيرة، نفوسٌ أكبر ربَّتهم على حب الله، وحب رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والرغبة في الدفاع عن دينه.
- تعبأت قريش بثلاثة آلاف ثم جُعل على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

- وتلاحظون أيها الإخوة والأخوات، أن خالدًا وعكرمة، كانا في أحدٍ من أعداء الله ورسوله، لم يمر إلا خمس سنواتٍ حتى أصبح هؤلاء في صفوف المسلمين، إذن لا نستغرب في ما يُحدثه الله -عزَّ وجلَّ- من إلقاء الإيمان في قلوب أناسٍ كانوا يومًا من الأيام أعداءً لهذا الدين، ولذلك تلاحظ التعبير القرآني عجيبًا جدًّا ومُدهشًا، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: 167]، كان بعض المنافقين، كان عند بعضهم ميلٌ، وبعضهم للكفر أقرب منهم للإيمان، لم يقل الله -عزَّ وجلَّ- عنهم أنهم كفارٌ، فأسلم من أسلم، وتاب من تاب، وقضى الله -عزَّ وجلَّ- أمره في من حقت عليه الضلالة والعياذ بالله.
- أول من برز من المشركين، أبو عامر الفاسق، ثم ذكر قصته، لا تهم كثيرًا هنا، لكن كان شعار الصحابة -رضي الله عنهم- في غزوة أحد "أَمِتْ، أَمِتْ"، وهذا ما يُعرف اليوم بالشفرة العسكرية، بين الجيش الواحد، يكون بينهم شفراتٌ، حتى لا يعلم بهم العدو، والظاهر من كتب السير أن هذه اللفظة، أو أن هذه الجملة "أَمِتْ، أَمِتْ" هذه كانت مستعملةً في عدة غزواتٍ، كما يُقال شفرةٌ، ما فائدتها؟ أنا مثلًا قد أسير في الليل، وقد يدخل علينا إنسانٌ بالغلط، ما نعرفه، فأقول له: ما الشعار؟ إن أعطاني الشعار عرفت أنه من المسلمين فتركته، إن لم يعطني الشعار، عرفت أنه دسيسةٌ أو عينٌ، أو جاسوسٌ يريد أن يتجسس، وهنا يُمسك به المسلمون.
- من الذين أبلوا بلاءً حسنًا في هذه الغزوة: أبو دجانة، سماك بن خرشة -رضي الله عنه-، وحمزة عم النبي -عليه الصلاة والسلام-، وعليٌّ بن أبي طالب، وجماعة من الأنصار، منهم أنس بن النضر، عندكم مكتوبٌ في الكتاب النضر بن أنس، وهو: أنس بن النضر، يصحح يعني، وسعد بن الربيع -رضي الله عنهم أجمعين-.
- كانت الدولة، يعني دولان المعركة في أول النهار المسلمين على الكفار، فانهزموا راجعين، حتى وصلوا إلى نسائهم، لاحظوا الآن من أين أُتي المسلمون، من أين جاء الخلل، في أول النهار، يوم السبت، كانت الغلبة للمسلمين، فلما رأى ذلك أصحاب عبد الله بن جبير، الذين كانوا على جبل الرماة، قالوا: يا قوم، الغنيمة، الغنيمة. هنا يأتي التعقيب القرآني، ليصحح الخطأ ويقول: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152]، عبد الله بن جبير ذكَّرهم: يا قوم، احفظوا وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. قالوا: خلاص، انفضَّ القتال، انتهت المعركة، قال: لم يأذن لنا بعد -عليه الصلاة والسلام- بالنزول، اصبروا، اصبروا، فما سمعوا هذا الكلام، ظنًّا منهم، ليس تعمُّدًا للمعصية، أبدًا، لكن ظنًّا منهم أن المعركة انتهت، حتى ابن كثير يقول: "فظنوا أن ليس للمشركين رجعةٌ، وأنهم لا تقوم لهم قائمةٌ بعد ذلك، فذهبوا في طلب الغنيمة".



- هنا أتت العبقرية الخالدية، من خالد بن الوليد، في ذلك الوقت، فلما رأى الجبل هذا الذي كان حصنًا قويًّا للمسلمين، وترسًا يحول دون الكر على المسلمين، رأى هذه الثغرة قد شغرت، كرَّ ورجع إليها، وهنا يعني يختلف المعاصرون في تفسير الكرَّة، هل جاءت، يعني ولنعد قليلًا إلى الصورة التي ذكرناها قبل قليلٍ، الصورة الآن السهم الأزرق الذي سيظهر الآن، لاحظوا

الآن كثير من أهل العلم يقول، حتى بعض المعاصرين، يقولون: خالد رجع من وراء جبل الرماة، ومنهم من يقول: لا، إن خالدًا رجع من خلف جبل أُحد، ما الذي جعله يرجِّح هذا؟ يقول: لو كانت كرَّة خالد؛ لأن الجبل هذا صغيرٌ، لو حصل كرَّةٌ، لرآه المسلمون، واستدركوا الأمر بسرعةٍ، لكن خالد من عبقريته، لم يأت من على الجبل الصغير، ولكن جاء من خلف الجبل، من الجهة الأخرى؛ حتى الجبل يغطيهم، ولو ثار نقع الغبار لم يره أحدٌ، فجاء من خلف جبل أُحد من هناك، ويقدِّره بعض المعاصرين بقرابة ساعةٍ إلا ربع، أو ساعةٍ تقريبًا، الكرَّة هذه، احتاج خالد أن يلتف على جبل أُحد من الخلف، لماذا؟ يقول: لو كانت الكرَّة كما في الصورة السابقة باللون الأزرق هذا، لو كانت الكرَّة بهذه الصورة يقول: لكُشف هذا للمسلمين، ولاستطاعوا أن يدفعوهم مباشرةً، وخاصة وقد أُثخنوا في أول النهار.



- فعلى كل حالٍ، أنا أذكر هذا؛ لأن المستقر في أذهان كثيرٍ من المعاصرين أن الكرَّة بهذه الصورة التي ترون لونها، السهم هذا، الصورة الثانية ممكن تكون أيضًا أدق، بهذا الشكل أيضًا، لاحظوا، لاحظوا هذه أقرب للواقع، يقولون: إن خالدًا جاء مع الخط الأخضر هذا، الممتد إلى نهاية الصورة، كرَّ خالد من هذا الجبل، فيقول بعض الذين يخالفون هذا القول: إن خالدًا لم يأت من هذه الجهة، إنما أتى من الجهة التي خلف المدينة، ثم كرَّ عليهم من الخلف من هناك؛ لأن المشركين لما ولوا الدُّبر في ألو النهار، ذهبوا إلى جهة مكة، ولما رأوا الجبل مُنكشفًا، ما يمكن يرجعون من نفس الطريق، وإلا لخُذلوا مباشرةً، أو على الأقل وجدوا مقاومةً شرسةً، لكن لم يحصل هذا، بل جاءوا من الخلف، وعلى كل حالٍ أنا أضع هذا الأمر؛ لأجل أن تتأملوه وتنظروا فيه.
- قال -رحمه الله-: فلما رأى ذلك أصحاب عبد الله بن جبير، قال: الغنيمة إلى آخره، فذهبوا في طلب الغنيمة، وكرَّ الفرسان من المشركين، فوجدوا تلك الفُرْجة قد خلت من الرماة، فجاوزوها، وتمكنوا، وأقبل آخرهم، فكان ما أراد الله كونه، فاستشهد من أكرمهم الله بالشهادة من المؤمنين، فقُتل جماعةٌ من أفاضل الصحابة، وتولى أكثرهم، وخلص المشركون، لاحظوا أثر هذه المعصية الآن، التي حصلتْ من الرماة، حصل المشركون إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فجُرح في وجهه الكريم، فكُسرت الرباعية هذه، اليمنى والسفلى بحجرٍ، وهُشمت البيضة على رأسه الشريفة -عليه الصلاة والسلام-، ورشقه المشركون بالحجارة، حتى وقع على شقه -عليه الصلاة والسلام-، في حفرةٍ من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق حفرها يكيد بها المسلمين.
- فأخذه عليٌّ بيده، واحتضنه طلحة بين عبيد الله -رضي الله عنه-، وكان الذي قد تولى أذى النبي -عليه الصلاة والسلام- هو عمرو بن قمأة، وعتبة بن أبي وقاص، ويقال: إن عبد الله بن شهاب، جد الإمام الزهري المشهور، هو الذي شجَّ النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقُتل مصعب بن عمير بين يديه -عليه الصلاة والسلام-، فدفع النبي -عليه الصلاة والسلام- اللواء إلى عليّ بن أبي طالب، ونشبت حلقتان من حِلق المِغفر الذي كان في وجهه -صلى الله عليه وسلم-، فانتزعهما أبو عبيدة بثنيتيه، فانكسرت الثنيتان، انكسرت، فكان في أبي عبيدة -رضي

الله عنه- كما نقول نحن "أثرم"، كان إذا أراد أن ينطق السين، ينطقها ثاءً، فكانت مُستملحةً فيه -رضي الله عنه-؛ لأن سببها نزع الحلقتين من وجهه الشريف -صلى الله عليه وسلم-.

- وجاء مالك بن سِنان، والد أبي سعيد الخدري الصحابي الجليل، فلما رأى الدم ينزل من وجهه الشريف -صلى الله عليه وسلم-، امتصه، من أجل أن يسكِّنه، وأدرك المشركون النبي -عليه الصلاة والسلام-، يعني حاولوا أن يخلصوا إليه، لم يكن بينه وبينهم إلا مسافة قريبة، وبقي بينه -عليه الصلاة والسلام- وبين المشركين سبعة، وقيل عشرة، كلهم من الأنصار، إلا واحدًا وهو طلحة بن عبيد الله، فتقدَّم الأنصار ليدافعوا عن النبي -عليه الصلاة والسلام-، واحدًا واحدًا، هذا يُقتل، ثم الثاني، ثم الثالث؛ لأن المشركين كرُّوا كرَّةً شديدةً، فلما رأى طلحة بن عُبيد الله أن الأمر وأن الخطر أحدق برسول الله -عليه الصلاة والسلام-، قوَّس عليه هكذا، يعني الرسول هكذا، هو أعطى ظهره للمشركين وقوَّس عليه هكذا؛ حتى لا يصيبه شيءٌ -رضي الله عنه وأرضاه-.
- فأصبح ظهره من كثرة السهام كأنما هو قنفذٌ، فقال -عليه الصلاة والسلام-: **«أوجب طلحة»**، يعني وجبت له الجنة، فكان بعض الصحابة يقول: من شاء أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنة يمشي على الأرض، فلينظر إلى طلحة -رضي الله عنه وأرضاه-.
- هذا الفداء من الصحابة -رضي الله عنهم- لم يكن فقط، يعني كان الصحابة -رضي الله عنهم- عظيمي الدفاع عن الدين، عظيمي الدفاع عن النبي -عليه الصلاة والسلام-، صدقوا ما عاهدوا الله عليه حقًّا، أقسموا أن ينصروه، وأن يدافعوا عنه -صلوات الله وسلامه عليه-.
- وكانوا حينما يقولون: "فديناك بآبائنا وأمهاتنا وأنفسنا" كانوا صادقين قولًا وعملًا، وظهرت آثار بطولاتهم -رضي الله عنهم وأرضاهم- في غزوة أُحد، وكان ممن وقف بين يديه -عليه الصلاة والسلام- سعد بن أبي وقاص، وكان يذود عن النبي -عليه الصلاة والسلام- بنبله، وكان راميًا حاذقًا، فقال له -عليه الصلاة والسلام-: **«ارمِ، فداك أبي وأمي»**، وممن أصيب من الصحابة قتادة بن النعمان الظفري -رضي الله عنه-، أصيبت يومئذٍ عينه، فسقطت، فجاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- وعينه بيده، فردَّها النبي -عليه الصلاة والسلام- على موضعها، فرجعت أحسن من الأولى، وهو الذي كان يقول، كان ابنه يتمدح ويقول:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه   فرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسن الردِّ

- المهم، أن هذه المشاهد، رغم ما حصل فيها، من أثرٍ عظيمٍ، نفسيٍّ وجسديٍّ على الصحابة، لكن ظهر فيها مناقب أخرى كثيرةٌ للصحابة -رضي الله عنهم-، أثبتت أنهم قوم صدقٍ، وأنهم -رضي الله عنهم- صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقعت نقاط ضعف، وقعت أخطاء، صححها القرآن الكريم، كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- في كلام الحافظ.
- يقول -رحمه الله-: **"وصرخ الشيطان -لعنه الله- بأعلى صوته: إن محمدًا قد قُتل، قال: ووقع ذلك في قلوب كثيرٍ من المسلمين، وتولى أكثرهم، وكان أمر الله".**
- يقول ابن القيم -رحمه الله- في "زاد المعاد": "إن هذه القصة، كانت بمثابة التمهيد لوفاته -عليه الصلاة والسلام-"، كيف؟ أراد الله -عزَّ وجلَّ- أن يلقِّن الصحابة -رضي الله عنهم- درسًا عظيمًا في أن القضية الآن

متعلقةٌ بدينٍ، وليست متعلقةً بشخصه -عليه الصلاة والسلام-، ولذلك قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144] يعني مات بدون قتالٍ، أو قُتل في المعارك، ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]، أنتم تعبدون الرسول؟ أو تعبدون الله؟ أنتم اتبعتم الدين لمتعلقٍ بشخصٍ معينٍ؟ أم متعبدون بالدين لله -عزَّ وجلَّ-؟ ولهذا أبو بكر -رضي الله عنه- أخذ هذا المعنى يوم مات النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقال: "من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت". وهذا منهجٌ عظيمٌ لجميع الدعاة، وجميع المسلمين، أن لا يعلِّقوا قلوبهم بشخصٍ مهما كان، لا عالمٍ، ولا قائدٍ، ولا مجاهدٍ، ولا رئيس دولةٍ صالحٍ، ولا غير ذلك، هؤلاء أسبابٌ لاشك لنصرة الدين لكن السبب الأعظم، والمؤيد الأعظم، هو ربنا -عزَّ وجلَّ-.

- فيقول ابن القيم، وهذا ملحظٌ جميلٌ: أن فيه تربيةٌ مبكرةٌ للصحابة -رضي الله عنهم-، انتبهوا، سيأتي يومٌ من الأيام فيموت النبي -عليه الصلاة والسلام-، ماذا ستصنعون؟ تتركون الدين، ولهذا قال أنس بن النضر -رضي الله عنه- حينما مر بقومٍ من المسلمين قد ألقوا بأيديهم، يعني خارت قواهم بعدما سمعوا هذه الصرخة الشيطانية، قال: ما تنتظرون؟ قالوا: قُتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: ما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما ماتوا عليه، ثم استقبل الناس، وشجَّعهم بهذه الكلمة، ولقي سعد بن معاذ، قال: يا سعد، والله وأنس قد فاته القتال ببدرٍ، قال: والله إني لأجد ريح الجنة من قِبَل أحد، فقاتل حتى قُتل -رضي الله عنه-، ووجدت به سبعون ضربةً.
- وعبد الرحمن بن عوف جُرح، وغيرهم كذلك من الصحابة -رضي الله عنهم-، وأقبل النبي -عليه الصلاة والسلام- على الصحابة بعدما سلَّمه الله من سِهام المشركين، فعرفه أول من عرفه كعبٌ بن مالك، بعدما رآه، وهو تحت المِغفر؛ لأن المِغفر يغطي معالم الوجه، لكنْ كعبٌ بن مالك عرفه بمشيته، عرفه بجسده الشريف -عليه الصلاة والسلام-، فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأشار إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- أن اسكتْ، فاجتمع إليه المسلمون، ونهضوا معهم إلى الشِعب الذي نزل فيه، فيهم أبو بكر، وعمر، وعليٌّ، والحارث بن الصمة الأنصاري، فلما أسندوا إلى الجبل، يعني اتجهوا إلى الجبل، جاء أُبيٌّ بن خلف هذا الشقي، على جوادٍ يُقال له العود، فزعم هذا الخبيث أنه يقتل النبي -عليه الصلاة والسلام-، فلما اقترب تناول النبي -عليه الصلاة والسلام- الحربة من يدي الحارث بن الصمة، فطعنه بها، فجعلها في الترقوة، فَكَرَّ هذا الرجل منهزمًا، فقال له المشركون: ما بك من بأسٍ، قال: والله لكأن ما بي بأهل ذي المجاز، الذين هم في أحد أسواق الجاهلية، إذا اجتمعوا، يقول: والله لو أصاب أهل ذي المجاز ما أصابني، والله لماتوا أجمعين، والله إنه لقاتلي، والله إنه لقاتلي، ولم يزل حتى مات في طريقه إلى مكة، قبَّحه الله.
- المهم، لما الدم لم يستمسك من وجهه الشريف -صلوات الله وسلامه عليه- بعد نزع الحلقتين، جاء عليٌّ -رضي الله عنه-، وهو ابن عمه، وزوج ابنته، بماءٍ ليغسل عنه الدم، لكن هذا الماء كان آجنًا يعني متغيّرًا، فردَّه -عليه الصلاة والسلام-، ولم يأخذه، وأراد -عليه الصلاة والسلام- أن يصعد على صخرةٍ، لكن لم يستطع بأبي هو وأمي للتعب الذي أصابه، ولأنه كان ظاهرَ بين درعين، ثوبين من حديدٍ، هذه لاشك أنها تُثقل جسد المجاهد، فجلس تحت طلحة -رضي الله عنه-، وحانت الصلاة، يعني صعد على كتف طلحة -عليه رضوان

الله-، ثم حانت الصلاة، فصلى جالسًا، ثم مال المشركون إلى رحالهم، واستقبلوا طريق مكة منصرفين، وكان هذا كله يوم السبت.

- المسلمون حصل فيهم جراحاتٌ عظيمةٌ، قُتل منهم سبعون، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ في أحد يعني ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ في بدرٍ، أنتم قتلتم في بدرٍ سبعين، وجرحتم سبعين، هذه المصيبة لما أصابتكم ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾، تساءلتم من أين أصبنا بهذه الهزيمة؟ قال الله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165]، وهذه تربيةٌ قرآنيةٌ للصحابة، وهي منقبةٌ لهم، حيث نقلوا هذا الخلل الذي وقع منهم -رضي الله عنهم-، ونقلوا تربية الله -عزَّ وجلَّ- لهم، فلا مطعن، لا للرافضة ولا لغيرهم من أهل البدع، الذين يطعنون في الصحابة -رضي الله عنهم-، بأمثال هذه المواقف، وسيأتي -إن شاء الله- تعليقٌ بعد قليلٍ على مسألة فرار بعض الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم-.
- قال -رحمه الله-: واستشهد يومئذٍ نحو سبعين، منهم حمزة، الذي قتله وحشي، ووحشي هذا أراد أن يُكفِّر، أسلم بعد ذلك -رضي الله عنه- فأراد أن يُكفِّر عن خطئه، فقتل مسيلمة الكذاب في اليمامة، يقول: لعلي ألقى هذا بهذا.
- يقول: ممن قُتل أيضًا: عبد الله بن جحش، حليف بني أمية، وكذلك مصعب بن عمير، وعثمان بن عثمان، ويسمى شمَّاس المخزومي؛ لأنه حسن الوجه، فقُتل أربعةٌ من المهاجرين، والبقية، الذين هم ستةٌ وستون كلهم من الأنصار، فدفنوا في دمائهم وكلومهم، ولم يصلِّ عليهم يومئذٍ، وهذه من الأحكام الفقهية المستفادة في القصة، وهو أن الشهيد شهيد المعركة، يُدفن بثيابه، ولا يُصلى عليه.
- فإن قلت: ألم يصلي النبي -عليه الصلاة والسلام- عليهم في آخر حياته؟
- فيُقال: بلى، ثبت هذا في صحيح مسلم، لكن صلاته في آخر حياته، ليست صلاة جنازةٍ؛ لأن صلاة الجنازة تكون بعد وفاة الإنسان، وإنما هذه كما ثبت في مسند أحمد وغيره، هي صلاة رحمةٍ، أو دعاءً لهم، لا علاقة لها بصلاة الجنازة، هذا هو الثابت في الصحيح. جاء في بعض الروايات خارج الصحيح، أنه صلى عليهم، ولكنها شاذةٌ، وهذا اختيار جمع من المحققين كابن كثير، وابن القيم، وشيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمة الله عليهم أجمعين-.
- هنا يقول ابن كثير، وهذا لاحظوا من إنصاف أهل السنة -رضي الله عنهم-، لا يكتمون، ولا يكذبون، ولا يطعنون، خلافًا لبعض أهل البدع قبَّحهم الله، الذين يطعنون في الصحابة -رضي الله عنهم- لوجود أخطاءٍ وقعت من بعضهم، فيطعنون فيهم جميعًا، أو لا يغفرون لهم.
- يقول -رحمه الله-: وفرَّ يومئذٍ من المسلمين جماعة من الأعيان، منهم عثمان بن عفان، لاحظ ابن كثير هنا، وقد نصَّ الله -عزَّ وجلَّ- على العفو عنهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: 155] ما الذي بعدها؟ ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155]، ولهذا لما جاء بعض الطاعنين في خلافته كما في صحيح البخاري، إلى ابن عمر -رضي الله عنه-، قالوا: ألم يفر عثمان؟ قال: بلى، لكن ألم تسمعوا قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، قالوا: لم يبايع في بدرٍ، قال: أشهد، يعني لم يحضر ابن عمر، لكن يشهد بما علم، أن النبي -عليه

الصلاة والسلام- أرسل عثمان إلى أهل مكة لمكانته فيهم، فلما جاءت البيعة، قال، عفوًا بيعة الرضوان، أرسل عثمان إلى أهل مكة، فقال: «هذه يد عثمان» -رضي الله عنه-، فهذه صارت منقبةً له، ولكن من في قلبه مرضٌ، يريد أن يقلب بعض المواقف الحسنة إلى سيئةٍ، ومن أراد أن يطعن أو يتكلم في أحد، سواءٌ كان من الصحابة أو غيرهم، الصحابة أمرهم عظيمٌ؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- زكَّاهم وترضى عنهم، ووضعهم يختلف؛ لأنهم حملة الشريعة، فالطعن فيهم طاعنٌ في ما نقلوه لنا من الشريعة، لكن عمومًا، من أراد أن يتكلم في أحدٍ فليتكلم بعلمٍ وعدلٍ، وأن يجمع جميع النصوص، أو جميع المواقف، وجميع الأقوال حتى يحكم عليه بعلمٍ وعدلٍ.

- قال: وقُتل يومئذٍ من المشركين اثنان وعشرون، وقد ذكر الله -عزَّ وجلَّ- هذه الوقعة في سورة آل عمران، حيث يقول: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 121] الآيات، وهي آية مائةٍ وواحدٍ وعشرين وما بعدها.
- وهنا أنصح إخواني وأخواتي أن يقرؤوا هذه السيرة من خلال سورة آل عمران، ومن أحسن من تكلم عليها، وبسط القول فيها: الإمام ابن القيم -رحمه الله- في "زاد المعاد"، في الجزء الثالث صفحة مائتين وإحدى عشر، وما بعدها، ذكر الفوائد المستنبطة من هذه القصة، ذكر فوائد فقهيةً، ذكر فوائد مقاصديةً، في السياسة الشرعية، في الجهاد، في الأمور التربوية، ومن أجمل وأروع التعليقات عنده، تعليقه على قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: 154].
- وهنا السؤال الكبير: هل كانت أُحد هزيمةً محضةً؟
- إذا أردنا أن ننصف، فإننا نستطيع أن نقول: إن أُحدًا لم تكن هزيمةً محضةً، بل كان فيها هزيمةٌ وكان فيها نصرٌ، أما الهزيمة فبالمقياس العسكري، نعم صارت هزيمةً، باعتبار مآل الغزوة، وأنها انتهت بهذه المأساة التي حصلت، أما النصر الذي وقع فيها، فهو نصرٌ معنويٌّ، نصرٌ تربويٌّ، نصرٌ إيمانيٌّ، حيث جاء القرآن ليعالج ما وقع فيه الصحابة -رضي الله عنهم- من أخطاءٍ، وفيه تأكيدٌ على قضيةٍ مهمةٍ جدًّا أيها الإخوة والأخوات ننتبه لها، وهو أنه لا تستقيم نصرة الدين، وفي القلوب شيءٌ لغير الله -عزَّ وجلَّ-، الله تعالى عاتب الصحابة أو بعضهم، قال: ﴿مِنكُم﴾ لم يكونوا كلهم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152]، ذكر الله -عزَّ وجلَّ- في أثناء الحديث عن غزوة أُحد، التحذير من أكل الربا؛ لأن من حارب الله بأكل الربا، وحارب رسوله -عليه الصلاة والسلام- بأكل الربا، فلا ينتظر أن ينتصر على أعدائه الذين يفوقونه قوةً وعددًا، وفي هذا تنبيهٌ على أثر المعصية في خذلان الأمة.
- إذن، الدروس التربوية العظيمة، التي ربَّى الله -عزَّ وجلَّ- بها الصحابة في هذه الغزوة، من العتاب، من التنبيه على الأخطاء، من من من، هذه في الواقع نصرٌ معنويٌّ، ونصرٌ تربويٌّ إيمانيٌّ . كيف عرفنا أنه نصرٌ؟ هل هذا كلامٌ عاطفيٌّ؟ الجواب: لا، بدليل أنهم لم يُهزموا بعد هذه الغزوة إلى أن مات النبي -عليه الصلاة والسلام-، في أي غزوةٍ، أليس هذا نصرًا؟ تصوَّر أنت الآن لو أن الغزوة في أُحد حصل فيها النصر عسكريًّا ومعنويًّا، حصل فيها النصر مع وجود هذه الأخطاء التي وقعت من الصحابة، كيف سيكتشف الصحابة -رضوان الله عليهم- هذه الأخطاء في الغزوات القادمة؟ لا يستطيعون أن يكتشفوها، ولهذا كانت أُحد من هذه الزاوية نصرًا، ومن قرأ الآيات بتدبرٍ وتأملٍ، والله سيجد في ذلك معانيَ عظيمةً تحلِّق روحه فيها مع الآيات وكأنما عاشها، وينظر:

يا أيها الذين آمنوا كذا وكذا وكذا، ونجد هناك تركيزٌ عظيمٌ على إصلاح ما في القلوب، على قضية التقوى، على قضية كظم الغيظ، على قضية التوبة من الذنوب، ولهذا الله قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 146، 147]؛ لأن الإنسان إذا أسرف على نفسه، أو أذنب فإنما هو يفتح جبهةً مع نفسه، مع الشيطان، فكيف سينتصر هنا، وهو لم ينتصر على نفسه؟.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- أوصي إخواني بأن يقرؤوا السيرة النبوية من القرآن الكريم، كما ذكرها الله -عزَّ وجلَّ-، وأن يلحظوا ما هي الزوايا التي طرقها الآيات القرآنية الكريمة في كل غزوةٍ، مرت معنا غزوة بدرٍ، ومرت معنا في الحلقة الماضية غزوة أحد، كيف تحدث القرآن عنها، ما هي مواضع الخلل؟ ما هي مواضع التميز؟ ما هي الأشياء التي أثنى القرآن عليها؟ ما هي الأشياء التي نبَّه القرآن عليها؟ فإن هذا أعني طرق السيرة، أو تأمل السيرة النبوية من خلال القرآن الكريم، بابٌ عظيمٌ من أبواب العلم، غفل عنه كثيرٌ من الناس، وركَّزوا على كتب السير، دون الانتباه لسياقات الآيات الكريمة، التي من ورائها أسرارٌ وعبرٌ لا يمكن اكتشافها، أو الوصول إليها من الجرد، أو النظر السريع في السيرة النبوية.
- ابن كثير -رحمه الله- بعدما أنهى الكلام على غزوة أحد، في الدرس الماضي، انطلق إلى الكلام على غزوة حمراء الأسد، وهي غزوةٌ متصلةٌ اتصالًا وثيقًا جدًّا بغزوة أحد، وذلك أن الصحابة -رضي الله عنهم- لما وقع ما وقع، كما سبق الكلام عنه، جاء جبريل إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-. يقول ابن كثير: إنه لما صار يوم الأحد، تعرفون الغزوة وقعت يوم السبت في شهر شوال من السنة الثالثة، هذا يوم السبت، فلما كان يوم الأحد، ندب النبي -عليه الصلاة والسلام- المسلمين إلى النهوض في طلب العدو، إرهابًا لهم؛ حتى لا يظنوا أن انكسارهم في غزوة أحد، أنه انكسارٌ نهائيٌّ، بل ليُشعروهم أنه مازال بهم قوةٌ وقدرةٌ على مطاردتهم، ولو خارج المدينة، فندب النبي -عليه الصلاة والسلام- الصحابة لذلك، ولم يأذن إلا لمن حضر أحدًا، وعذر جابرًا -رضي الله عنه- لأن أباه قد قُتل وترك خلفه سبع بناتٍ، أو تسع بناتٍ، على اختلاف الروايات.
- فخرجوا -رضي الله عنهم-، إلى حمراء الأسد، وهي منطقةٌ قريبةٌ من المدينة.

ابن كثير يقول: إنها على ثمانية أميالٍ من المدينة، وبعضهم يعبِّر عنها بالكيلوات تقريبًا سبعة عشر كيلو، ستة عشر كيلو، هذا معنى قول الله -عزَّ وجلَّ- في الثناء على الصحابة: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: 172] يعني الرسول يناديهم، الجراح شديدةٌ الآن، وأُثخنوا بالجراح، وكما يقال المعنويات منهارةٌ بعد ما حصل، ومع ذلك لم يتخلفوا -رضي الله عنهم-، بل استجابوا، ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 172].

- ثم ذكر قصة مرور معبد الخزاعي، في سياقٍ موجودٍ، يعني ذكره الحافظ -رحمه الله-، فيُرجع إليه.
- ثم بعد ذلك، يعني بعد أحد، بعث النبي -عليه الصلاة والسلام- ما يُعرف ببعث الرجيع، وهي قصةٌ مؤلمةٌ، أوجعت النبي -عليه الصلاة والسلام-، وضاق منها صدره، وقد وقعت في سنة أربعةٍ من الهجرة، في شهر صفر تحديدًا، وذلك أن جماعةً من هؤلاء القوم، الذين هم قوم عُضَل، والقارة، وهم من الهول من خزيمة بن مدركة، وكذلك موقعهم بين مكة والمدينة، وهم إلى مكة أقرب.
- سألوا النبي -عليه الصلاة والسلام- حينما قدِموا عليه، ذكروا أن فيهم إسلامًا، فبعث ستة نفرًا في قول جماعةٍ من المؤرخين، وهو ابن إسحاق الآن كما هو موجودٌ، وبهو قول ابن القاسم السهيلي، أو صححه أبو القاسم السهيلي، أنهم كانوا عشرةً من الصحابة -رضي الله عنهم-، قال السهيلي: هو على الصحيح، وهو الذي ذكره البخاري، فأمَّر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان معهم خُبيْب بن عدي، فذهبوا، فلما كانوا بالرجيع، وهو ماءٌ لهذيل، وهذيل هم قبيلة عبد الله بن مسعود، بناحيةٍ من نواحي الحجاز، غدروا بهم، واستصرخوا عليهم القبيلة هذيل، فجاءوا بهم، وأحاطوا بهم، وغدروا -والعياذ بالله-، وكان منهم أيضًا عاصم بن ثابت -رضي الله عنه-، الذي قاتل حتى قُتِلَ، وكان قد أقسم بالله، أن لا يمس مشركًا، وأن لا يمسه مشركٌ، فبرَّ الله -عزَّ وجلَّ-، قسمه جاءت حوله دبابير، التي هي ذكور النحل، تحمي جسده، فلما رأى المشركون هذا منه، تركوه، فلما جاء الليل، جاء مطرٌ كثيرٌ في الوادي، فجرف جثته، ولا يُدرى أين هي إلى الآن، فحمى الله جسده، وأبرَّ يمينه.
- فأحاطوا بهم، وكان ممن استأُثر به خبيب بن عدي، وكذلك زيد بن الدثنة -رضي الله عنهما-.
- ماذا صُنع بهما؟ يقول ابن كثير: أما خبيب فمكث عندهم مسجونًا، ثم أجمعوا لقتله، فلما أرادوا أن يقتلوه، خرجوا به إلى التنعيم، فصلبوه، وقبل أن يقتلوه، استأذنهم، وقال: إن أذنتم أن أصلي ركعتين، فصلى ركعتين، وقال: والله لولا أن تقولوا إن بي جزعٌ من الموت، والله لزدتُ، ثم قال أبياته المشهورة:

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا	على أيّ شقّ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يبارك على أوصال شلوٍ ممزع

- وله قصةٌ مطوَّلةٌ، فيها كرامةٌ، كان يأتيه عنبٌ، في وقتٍ لا يُعرف العنب في ذلك الوقت، كرامةً من الله -عزَّ وجلَّ- له.
- أما زيد بن الدثنة -رضي الله عنه-، فإنه قُتل بأحد رءوس، ابتاعه صفوان بن أمية، قبل أن يُسلم طبعًا، فقتله بأبيه، وكانت هذه نوعٌ من المقايضة للقتلى الذين قُتلوا في بدرٍ.
- هنا مشهدٌ مؤثرٌ أشار له ابن كثير، لعل المُخرج يُخرجه مشكورًا، وهو: أن أبا سفيان قبل أن يُسلم: أيسرُّك أن محمدًا في مكانك عندنا هنا تُضرب عنقه وأنك في أهلك آمنٌ؟ فقال: "والله ما يسرُّني أنّي في أهلي، وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه، تصيبه شوكةٌ تؤذيه" -رضي الله عنهم وأرضاهم-، هذا حبٌّ صادقٌ، حبٌّ عظيمٌ، فما أحوجنا أيها الإخوة والأخوات أن نملأ قلوب أبنائنا وبناتنا، بركنين عظيمين، لا يتم بل لا يصح إيمان عبدٍ إلا بهما: الأول: حب الله -عزَّ وجلَّ-، وهو الأصل، والثاني: حب النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهو تبعٌ لحب الله -عزَّ وجلَّ-، فنحن لسنا نحب النبي -عليه الصلاة والسلام- لأنه محمدٌ بن عبد الله، بل نحن نحبه لأنه رسول الله

-عليه الصلاة والسلام-، الحب هذا أصلٌ من الأصول، وركنٌ من أركان الإيمان، لا يصح إيمان أحدٍ، إلا أن يكون قلبه عامرًا بحب الله -عزَّ وجلَّ-، يحب الله ويحب رسوله -عليه الصلاة والسلام-.

- لماذا أقول من المهم جدًّا أن نبني أبناءنا وبناتنا على هذا؟ نحن اليوم أيها الإخوة والأخوات في عصرٍ كثرت فيه المغريات، وكثرت فيه الصوارف، وكثرت فيه النوازع إلى الشر، مهما كنت قوي المراقبة لأولادك، فلن تستطيع أن تكون دائم المراقبة لهم، سيخلون بأنفسهم، سيكبرون، سيذهبون عنك، ستذهب عنهم أنت، لكن اغرس فيهم حب الله وحب الرسول -عليه الصلاة والسلام-؛ لينقادوا إلى الطاعات بيسرٍ وسهولةٍ، انظر إلى تعبير خبيبٍ -رضي الله عنه- هذا، الذي قال هذه الكلمة: والله ما أحب أنّي في بيتي، عند أهلي يعني، والنبي -عليه الصلاة والسلام- تصيبه شوكةٌ، وليس يُصلب ويُقتل -صلى الله عليه وسلم-، وقد رأيتهم في غزوة أحد، كيف ظهرت بطولات الصحابة -رضي الله عنهم-، التي ترجمت حبهم الصادق له -صلى الله عليه وسلم-.
- هذه ما تُسمَّى بغزوة الرجيع، أو بعثة الرجيع. البعثة أنا قلت التي أثرت في النبي -صلى الله عليه وسلم- ليست هذه، هي التي سيذكرها، وهي قصة بئر معونة، وهذه أيضًا كانت في شهر صفر، في نفس العام، سنة أربعٍ، وذلك أن أبا البراء عامر بن مالك، الذي يُعرف بملاعب الأسنة، قدِم على النبي -عليه الصلاة والسلام- في هذا الشهر، فدعاه النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى الإسلام، فلم يُسلم، ولم يُبعد، يعني ما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ولم يُظهر العداوة، لكن قال: يا رسول الله، لو بعثتَ أصحابك إلى نجدٍ، يعني أشهر ما تكون بالمنطقة الوسطى، وجهة الشمال منها، يعني حائلٌ وهذه المناطق تقريبًا، في السعودية حاليًا.
- فقال: لو بعثت أصحابك إلى نجدٍ يدعونهم إلى دينهم، لرجوت أن يجيبوهم، قال: «إني أخاف عليهم أهل نجدٍ»، مازال هناك تكتلاتٌ وثنيةٌ، موجودةٌ في الجزيرة العربية، لم تُسلم بعد، ولم تؤمن، تلاحظون نحن الآن في السنة الرابعة من الهجرة، مازالت الدولة الإسلامية في ذلك الوقت لم تتمدد، ولم تقوَ بعد، ومازال المناوئون موجودين، مازالوا.
- فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم، ما معنى جارٌ لهم؟ أنا أجيرهم، يعني هؤلاء النفر الذين ستبعثهم، هم في ذمتي، أو في جواري، فلا أحد يعتدي عليهم.
- فبعث النبي -عليه الصلاة والسلام- سبعين رجلًا على الصحيح، هذا الذي ثابتٌ في الصحيحين، وأمَّر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي، ولقبُه المعنق ليموت، قلنا في الدرس الماضي: ما معنى المعنق ليموت؟ لما أرادوه بعد أن غدروا بهؤلاء السبعين، لما أرادوا أن يقتلوه، أسرع هو إلى قتالهم، ليموت في سبيل الله، فسُمِّي المُعنق، الذي مدَّ عنقه طلبًا للشهادة، فلحقه هذا اللقب، المعنق ليموت، وإلا اسمه هو المنذر بن عمرو، فأنت لو كتبت في محركات البحث، أو في الوسائط الإلكترونية، المعنق ليموت، وجدت أن سبب هذا اللقب، هو هذه القصة؛ لأنهم لما غُدر بهم، أصبحوا الآن، إما أن يستسلموا، وإما أن يستأسروا، يعني يستأسروا، وإما أن يقاتلوا، فأبوا -رضي الله عنهم- أن يستسلموا، فقاتلوا، وحزن عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- حزنًا عظيمًا، فبقي شهرًا كاملًا يدعو، يقنت في الصلاة على عُصية، ورعلٍ، وذكوان، الذين غدروا بهم وقتلوهم.
- وكان مما وقع، طبعًا من أسباب الحزن، أن هؤلاء كانوا جماعة من القُرَّاء، ومن سادات الصحابة، ما معنى القُرَّاء؟ ما نعبِّر عنهم اليوم بطلبة العلم، أو بالمشايخ، أو بالعلماء، أنت تصور الآن مجموعةً تذهب دفعةً،

كاملةً سبعون عالمًا، أو سبعون طالب علمٍ، ثم يُغدر بهم ويُقتلون، كارثةٌ هذه، لأن قتْل العالم، أو قتْل طالب العلم، يُقتل به أمةٌ، وليس دم المسلم رخيصًا أيًّا كان، لكن يعلو الأثر، أو يعظم الأثر بعِظم منزلة المقتول.

- فلما نزلوا بئر معونة، وهي أرضٌ يقول بين بني عامر، وحرة بني سليم، ثم بعثوا منها حرام بن ملحان، حرام بن ملحان هذا خال أنس بن مالك، وهو أخو أم سليم أم أنس، بعثوا بكتابٍ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر به فقتله رجلٌ ضربةً بحربةٍ، من الخلف، جاء إلى حرام بن ملحان، فطعنه من الخلف، فنفذ الرمح أو السيف من الخلف وظهر مع صدره، وفار الدم، فجعل يضعه على رأسه ويقول: فزتُ وربَ الكعبة، سبحان الله، والله يا إخوة، كلما قرأت هذا المقطع، إني أتساءل وأتعجب وأقول: أي فوزٍ وقد ذهبت نفسه؟ لكنه رأى مصداق وعد الله -عزَّ وجلَّ-، فاز، إي والله فاز، فاز بالجنة، ونحن نشهد لهؤلاء بالجنة؛ لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- أخبر عنهم، ودعا لهم إلى آخره.
- وبهذا نعلم أيها الإخوة أن الفوز الحقيقي هو كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185].
- هذا المعنى أيها الإخوة، الشعور بالفوز، مع إدبار الدنيا، والإقبال من الآخرة، لا يذوقه إلى المؤمنون، لا يذوقه إلا الصادقون، أما غير هؤلاء، فإنهم يجعلون الخسارة هي فقد الدنيا، ويجعلون الفوز هي أن تسلم له دنياه، ويسلم له ماله، أما هؤلاء -رضي الله عنهم- فيقولها: فزتُ، وهو لا يمثِّل، هذه لحظةٌ لا تمثيل فيها، كل اللحظات تستطيع أن تلعب على الناس وتمثِّل، إلا لحظات خروج الروح، لا يظهر فيها إلا ما استقر في القلب، قال: فزت ورب الكعبة -رضي الله عنهم وأرضاهم-.
- المهم، ذكر قصة أن هؤلاء قُتلوا جميعًا، ولم يسلم منهم إلا كعب بن زيدٍ -رضي الله عنه-، وهو من بني النجار، فإنه بقي في القتلى، وكأنه منهم، فلما رأى أن العيون اختفت عنه هرب، ورجع إلى المدينة، فعاش حتى قُتل في غزوة الخندق -رضي الله عنه-.
- ثم ساق قصة عمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن محمد بن عقبة، كانوا في سرح المسلمين، فلما يعني كانوا في جهة المسلمين، فلما رأى الطير تحوم حول هذه الجثث الطاهرة الزكية، جاء فوجد المشركين قد قتلوا الصحابة -رضي الله عنهم-، كلهم، ولم يسلم منهم إلا رجلٌ واحدٌ.
- يقول -رحمه الله-: فنزل منذر بن محمد هذا، فقاتل المشركين حتى قُتل، أما عمرو فأُسر، فلما أخبر أنه من مُضر، جز عامرٌ ناصيته، وأعتقه في ما زعم عن رقبةٍ كان على أمه، ورجع عمرو بن أمية.
- طبعًا القاتل الآن عمرو، وليس هو المقتول؛ لأن عمرو -رضي الله عنه- رجع، فلما كان في مكانٍ يقال له القرقرة من صدر قناة، والقرقرة مكانٌ قريبٌ من المدينة، لكن جنوب شرق، ليس جهة مكة مباشرةً، لكن تميل إلى الشرق قليلًا، نزل فجاء رجلان من بني كلابٍ، وقيل من بني سليم، الذين غدروا بالصحابة -رضي الله عنهم-، فوجدها عمرو فرصةً، فلما ناموا تحت شجرةٍ، اخترط سيفه وقتلهما، لكنه لم يشعر -رضي الله عنه- بأن هؤلاء معهم كتابٌ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلما جاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: لقد قتلتَ قتيلين، لأديهما، لأنه ما كان يعرف -رضي الله عنه-، كان يظن أن هؤلاء من هؤلاء الذين

غدروا، فيستحقان أن يقتلا، ولهذا يقول ابن كثير -رحمه الله-: كان هذا سبب غزوة بني النضير، كما ورد هذا في الصحيح.

- بعد هذا ينتقل ابن كثير -رحمه الله- إلى غزوة بني النضير، وقبل أن أنتقل أشير فقط إلى غزوة بني النضير، وما فيها، سواء غزوة بني النضير أو الرجيع، التي قُتل فيها الستة، خبيب بن عدي وأصحابه، ومرثد بن أبي مرثد، وعاصم بن ثابت -رضي الله عنهم-، أو بئر معونة التي قُتل فيها القُرَّاء، فإن هذه فيها دروسٌ وعبرٌ وفوائد، منها:
- أن أمر الدعوة لا يقوم بالقتال فقط، بل بالقتال والعلم، وتثبيت دعائم الدعوة، إنما هو بالعلم أساسًا؛ لأن الله أول ما أنزل "اقرأ"، ثم بعد ذلك القتال يأتي تبعًا، وليس العكس، كما يفهمه بعض الجهَّال، أو يظن أن القتال هو الأصل، لا، القتال تابعٌ، والعلم هو الأصل، بدليل أن الله تعالى أمر المسلمين ثلاث عشرة سنةً أن لا يرفعوا سيفًا واحدًا في مكة، بل "أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة". فالقتال ليس مقصودًا لذاته، وإنما مقصودٌ لغيره ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39]، هذه نقطة.
- النقطة الثانية: مشروعية صلاة ركعتين عند القتل، فإن قلت: كيف صار مشروعًا، والنبي -عليه الصلاة والسلام- ما رأى هذا الموقف؟ فيقال: بلغه فأقرَّه -صلوات الله وسلامه عليه-، وفي هذا ما كان عليه النبي -عليه الصلاة والسلام- من الحزن والتفجُّع لما يصيب أصحابه -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وفيه أيضًا مشروعية القنوت، التي أشرنا إليها قبل قليلٍ، وإن لم يذكرها ابن كثير، فإنه بقي -عليه الصلاة والسلام- يقنت شهرًا ويقول: «اللَّهُمَّ الْعَنْ بَنِي لِحْيَانَ، وَرِعْلًا وَذَكْوَانَ، وَعُصَيَّةَ عَصَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» ، اللهم عليك بفلانٍ، وفلانٍ، وفلانٍ، و فلانٍ، اللهم انج كذا.
- وكذلك أيضًا منها: الصحابة -رضي الله عنهم- في هذه المواقف عبَّروا عن صدق حبِّهم لرسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ومن ذلك ما قاله خبيب، لما سأله أبو سفيان: أتحب أن يكون محمدٌ في مكانك؟
- قصة بني النضير باختصارٍ، لما أراد النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يذهب إلى بني النضير في قصة مقتل عمرو بن أمية للرجلين، من أجل أن يستعين على دية هذين القتيلين.
- يقول ابن كثير: لما بينه وبينهم من الحِلف، يعني يُفترض في الحلف أنه إذا احتاج المتحالف معك إلى شيءٍ، أن تعينه، قالوا: نعم، فجلس النبي -عليه الصلاة والسلام-، وأبوبكر، وعمر، وعليٌّ، وطائفةٌ من الصحابة تحت جدارٍ لهم، وهم في الخفاء، وفي الخلف، اجتمعوا اجتماعًا قرروا فيه الغدر، لاحظ، فقالوا: فرصةٌ الآن، الرسول، وأبو بكر، وعمر، وهؤلاء تحت الجدار، فرصةٌ لنقتلهم، أرادوا أن يأتوا برحى، الرحى هذه التي يُطحن فيها القمح والعيش، مَنْ يُلقي الرحى على رأسه من أجل أن يموت، فجاء الوحي ليُخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- عما همُّوا به، فقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «انهضوا» ، وكان هناك رجلٌ اسمه عمرو بن جحاشٍ -لعنه الله- هو الذي انتدب لهذه المهمة، لكن أنجى الله -عزَّ وجلَّ- رسوله، فلم يبلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة، حتى عبَّأ الصحابة -رضي الله عنهم-، وحثَّهم على القتال، فخرج إليهم، واستخلف ابن أم مكتومٍ، في ربيع الأول، فحاصرهم النبي -عليه الصلاة والسلام- ست ليالٍ، وفي تلك الفترة حُرِّمت الخمر، كما ذكره ابن حزم هنا، ويقول: لم أره لغيره، فكأنه يشير إلى أنه ليس بالقوي.

- هنا لاحظ صورةً من صور التحالف بين المنافقين واليهود، جاء عبد الله بن أبيّ، وهذا ترى ذكره الله -عزَّ وجلَّ- في سورة الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: 12]، يقول -رحمه الله-: إن عبد الله بن أبيّ قال لبني النضير: أنا معكم، سأقاتل معكم، إن خرجتم خرجنا معكم، فهؤلاء المساكين، اغتروا بهذا الكلام، فتحصنوا في الآطام، التي هي الحصون، فأمر النبي -عليه الصلاة والسلام- بقطع النخيل، وإحراقها، وفي هذا يقول حسان بن ثابت:

وهان على سراة بني لؤيٍّ حريق بالبويرة مستطيرُ

- فسألوا النبي -عليه الصلاة والسلام- نوعًا من التخفيف؛ لأنهم شعروا أن الأمر الآن متجهٌ إلى القضاء عليهم وهلاكهم، فسألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يُجليهم، انظر سبحان الله ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: 96] وأن يحقن دماءهم، ما هو الشرط؟
- أن يخرجوا وليس لهم إلا ما حملت إبلهم، غير السلاح، يعني احملوا ما تشاءون من الأمتعة على الإبل، ما سوى ذلك يبقى.
- فقبِل النبي -عليه الصلاة والسلام- ذلك، وخرج أكابرهم، حُيي بن أخطب، وسلَّام بن أبي الحقيق، بأهليهم وأموالهم إلى خيبر، فبقيت لهم هناك، يعني ذهبوا، وبعضهم ذهب إلى الشام، ولم يُسلم منهم إلا رجلان، كما ذكر ابن كثير، سعد بن وهب، ويمين بن عمرو بن كعب.
- استطرد -رحمه الله- في هذا الموضع كثيرًا، لكن يقول -رحمه الله-: وقد كان جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- لمن قتل عمرو بن جُحاشٍ جُعلًا، لما قد همَّ به من الفتك بالنبي -عليه الصلاة والسلام-، في القصة التي قبل قليلٍ، فأحرز أموالهم، وقسم النبي -صلى الله عليه وسلم- أموال الباقين بين المهاجرين الأولين خاصةً، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حيي بن الأنصار، أعطاهم لفقرهم، وقد كانت أموالهم مما أفاء الله على رسوله، والتي ذكر الله -عزَّ وجلَّ- في سورة الحشر، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: 7]، ثم قال الله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾، هذا أيضًا نوعٌ لبيان نصيبهم -رضي الله عنهم-.
- قال: فما أوجف المسلمون عليهم بخيلٍ ولا ركابٍ، يعني ما حصل هناك قتالٌ، وهذه منَّةٌ امتنَّ الله -عزَّ وجلَّ- عليهم بها في سورة الحشر، وفي هذه الغزوة نزلت سورة الحشر، وكان عبد الله بن عباس يسميها غزوة بني النضير، وهذه السورة من السور التي ذُكر لها أكثر من اسمٍ، وهذا معروفٌ في لسان الصحابة، أحيانًا يسمون بعض السور بحسب الأحداث التي نزلت بها، ومر معنا نموذجٌ لهذا، تذكرون؟
- سورة القتال.
- يقول: وقنتَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو على الذين قتلوا القُرَّاء أصحاب بئر معونة.
- **في غزوة بني النضير دروسٌ وعبرٌ، منها:**

- أن اليهود قومٌ بُهتٌ، أصحاب غدرٍ، وهذا طبعٌ فيهم، ولا يحتاج إلى تأكيدٍ، وأحداث اليوم التي نراها شاهدةٌ للعيان، فهم لا يكادون يستمرون على هدنةٍ، متى ما رأوا أن الأمور مواتيةٌ لهم غدروا، وهذا طبعٌ فيهم ودينٌ.
- لما تكلم على قصة التحريق، أن تحريق ذوات الأرواح، إذا كان تبعًا لا قصدًا، فإنه جائزٌ، من أين نأخذها؟ من تحريق النبي -صلى الله عليه وسلم- للنخيل، ومعلومٌ أن النخيل فيها حشراتٌ، وفيها نوامس، وفيها دويباتٌ صغيرةٌ، من ذوات الأرواح، لكنها ليست مقصودةً لذاتها، إنما جاءت تبعًا، أما إحراق ذوات الأرواح أصالةً، فإنه لا يجوز؛ لقوله -عليه الصلاة والسلام-: **«لا يعذِّب بالنار إلا ربُّها»**.
- أن ما ربحه المسلمون من غنائم العدو دون قتالٍ، فمصرفه للإمام، ولا يجب تقسيمه بين الجيش؛ لأنه قد مرَّ معنا قبل قليلٍ أنه خصَّ بذلك المهاجرين الأُول، وإنما أعطى أبا دجانة، وصحابيًّا آخر لفقرهم.

إذن، الفيء الذي يأتي بدون قتالٍ، يتصرَّف الإمام في قسمته، بينما الفيء الذي فيه قتالٌ، فقد قسمه الله -عزَّ وجلَّ- في سورة الأنفال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 41]، إلى آخر الآية الكريمة.

- أن نقض العهد يعني إعلان الحرب، فهؤلاء بنو النضير، لما همُّوا بقتل النبي -صلى الله عليه وسلم- في قصة عمرو بن جُحاش، وأخذ الرحى، اعتبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هذا نقضٌ للعهد، ومعناه إعلان الحرب، ولهذا هنا لا يُقال لهم: ترى سنقاتلكم، من الذين يجب أن يُرسل إليهم؟ هم الذين بيننا وبينهم عهدٌ، ونريد أن نلغي هذا العهد، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: 58] يعني قل لهم: ترى العهد انتهى، حتى لا يُظن بالمسلمين السوء، وأنهم قومٌ غُدرٍ، وأنهم لا يفون بالعهود والمواعيد، والله -سبحانه وتعالى- أعلم.

- ثم انتقل المؤلف -رحمه الله تعالى- إلى الكلام على غزوة ذات الرِّقاع، وهي غزوةٌ في جمادى الأولى من السنة الرابعة.
- استعمل فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا ذرٍّ الغفاري.
- يقول ابن كثير: سار حتى بلغ نخلًا. نخل هذه أو نخلة، موضعٌ بين مكة والطائف، ومعلومٌ الطائف جهة نجدٍ، وذات الرِّقاع أصلًا المعركة كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- هي في جهة نجدٍ، فلقي جمعا من غطفان، غطفان يتواجدون في تلك المناطق، ولكن لم يكن بينهم وبينهم قتالٌ، لكن أشار الحافظ إلى قضية متى فُرضت صلاة الخوف، ولكن هذا ليس موضعه، سيأتي -إن شاء الله- ذكره، والإشارة إليه في غزوة الخندق، الصحيح أنها فُرضت بعد غزوة الخندق، وليست في غزوة ذات الرِّقاع، وأهل السير اختلفوا، هل غزوة ذات الرِّقاع قبل غزوة الخندق؟ أم بعدها؟ بينهم خلافٌ قديمٌ، وهذا فيه تفاصيل، لكن ليس هذا موضعها، إنما ابن كثير نفسه، لما جاء إلى غزوة ذات الرِّقاع في "البداية والنهاية"، قال: وكنا ذكرناها في أحداث سنة أربعٍ للهجرة، تبعًا لمن أظن قال لموسى بن عقبة، أو غيره من المؤرخين، ثم قال: فلتنقل هاهنا، فجعلها في أحداث سنة ستٍّ من الهجرة، وهذا هو الأقرب، لكن يبدو أن ابن كثير في هذا السياق تابع جماعةً من أهل العلم.

- على كل حالٍ، يقول -رحمه الله-: ومما رجَّح فيه أن غزوة ذات الرِّقاع في سنة ستٍّ من الهجرة، أن أبا موسى الأشعري، أحد الذين حضروا هذه الغزوة، وأبو موسى لم يكن حاضرًا قبل غزوة الخندق، وهذا بالمناسبة مما يُستفاد منه، وهو إعمال القرائن التاريخية، في الترجيح بين الأقوال عند الاختلاف، من هذه القرائن ما أشار إليه ابن كثير -رحمه الله- هاهنا، ولذلك هو استطرد كثيرًا، وليس هذا الحقيقة موضعٌ للكلام، لكنه قال هنا: وقد عُلم بلا خلافٍ، أن غزوة عسفان، كانت بعد الخندق، فاقتضى هذا، أن ذات الرِّقاع بعدها، بل بعد خيبر، لاحظ، إذن بعد خيبر فستكون في السنة السابعة، قال: ويؤيد ذلك أن أبا موسى الأشعري، وأبا هريرة -رضي الله عنهما- شهداها، وأبو هريرة في قول جماهير أهل العلم لم يُسلم إلا عام خيبر، وخيبر في قول الجمهور أيضًا لم تقع إلا شهر محرم السنة السابعة، اضبطوا هذا.
- ولهذا أبو موسى الأشعري يقول في الصحيحين: شهدت غزوة ذات الرِّقاع، والسبب أنهم كانوا يلفون على أرجلهم الخِرق لما نقبتْ، يعني حصل فيها خُرُوق.
- ثم استطرد في ما يتعلق بحضور أبي هريرة، ثم قال: وقد قال بعض أهل التاريخ: أن غزوة ذات الرِّقاع أكثر من مرةٍ، وهذا ليس بصحيحٍ، هذا من الأساليب التي يلجأ إليها بعض العلماء عند تعذر الجمع عنده، وهو ما يُعرف بتعدد القصة، والواقع أن مثل هذه الغزوات الكبار، لا يصلح أن يُقال فيها: إن القصة قد تعددت، خاصةً أنها ارتبطت بحدثٍ كبيرٍ، بل يلجأ، والأولى اللجوء إلى الترجيح.
- ثم ذكر أن بعض المؤرخين ذكر أن قصة جمل جابر، وقعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذه الغزوة، قال: وفي ذلك نظرٌ؛ لأنه جاء أن ذلك كان في غزوة تبوك، إلا أن هذا أنسب، لما أنه كان قد قُتل أبوه في أحد، وترك الأخوات، فاحتاج أن يتزوج سريعًا، لا يهمه الترجيح هنا؛ لأن من العلماء من رجَّح أنها في غزوة ذات الرِّقاع، وليس في تبوك، كما ذكر الحافظ.
- ومنها حديث جابر في الرجل الذي سبوا امرأته، فحلف ليهريقن دمًا في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فجاء ليلًا، وقد أرصد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجلين، ربيئةً للمسلمين من العدو، وهما عباد بن بشر، وعمار بن ياسر.
- يقصد بالربيئة هنا: أشبه ما يكون بالطليعة، الذي يحرس القوم، وفي تلك القصة جاء سهمٌ غربٌ، فأصاب عباد بن بشر، وهو قائمٌ يصلي، فنزعه، ولم يبطل النبي -عليه الصلاة والسلام- صلاته، ويحتج بهذا من يحتج من الفقهاء الذين يقولون إن الدم إذا أصاب بدن المصلي، فإنه لا ينجس، ولكن جماهير أهل العلم بل حُكي إجماعًا أن هذا الدم نجسٌ، ولكن عُفي عنه للضرورة.
- ثم أيضًا جاء قصة غورث بن الحارث، وهو الرجل الذي جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ووجده مستظلًا تحت شجرةٍ، فاستل سيفه، فقال: من يمنعك مني؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«الله»**، فسقط السيف من يده، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«من يمنعك مني؟»**، فقال: كن خير آخذٍ، طيب أين الأخلاق قبل قليلٍ، ليست موجودةً، فعفا عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-، بعد أن دعا الصحابة، وقال: إن هذا الرجل اخترط سيفي، و و، فعفا عنه النبي -عليه الصلاة والسلام-، وأطلقه -صلوات الله وسلامه عليه-.

- المهم أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يعني كأنه يميل إلى ماذا؟ إلى أن غزوة ذات الرِّقاع كلها جاءت متى؟ بعد غزوة خيبر، فكون في السنة السابعة.
- ثم بعد ذلك أشار إلى غزوةٍ تُسمَّى بدر الصغرى، الآن مر معنا بدرٌ، وبدرٌ، وهذه الثالثة أيضًا، مرت معنا قديمًا، وذلك أن أبا سفيان لما انتهت غزوة أحد، قال: موعدكم وإياكم بدرٌ العام المقبل، فأمر النبي -عليه الصلاة والسلام- بأن يجيبه بنعم، فلما كان شعبان في هذه السنة يقول: نهض الرسول -صلى الله عليه وسلم-، حتى أتى بدر الموعد، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبيّ، عبد الله صحابيٌّ جليلٌ، وأبوه رأسٌ في النفاق، لتعلم أن الله يخرج الحي من الميت، فبقي ثماني ليال، ولكنه لم يلق كيدًا، وذلك أن أبا سفيان خرج بقريش، فلما كان ببعض الطريق، بدا لهم أن يرجعوا، لأجل الجدب الذي أصيبوا به، وهذه تُسمَّى بدر الثالثة، أو بدر الموعد.
- جاءت بعد ذلك غزوة دومة الجندل، وهذه وقعت في ربيع الأول من سنة خمسٍ، كذلك رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها، ولم يلق حربًا، وقد استعمل على المدينة سِباع بن عرفطة -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-.
- هذه أشهر أحداث السنة الرابعة، إلى غزوة الخندق، فإن أشهر غزوةٍ في سنة خمسٍ، هي غزوة الخندق، وهي المعروفة بغزوة الأحزاب، ومن المعلوم أن غزوة الأحزاب سميت بهذا لتحزُّب الأحزاب، كما سيشير الحافظ -إن شاء الله تعالى- بعد قليلٍ لتحزُّب الأحزاب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، من القبائل الذين كانوا حول المدينة، وممن أيضًا كانوا خارج المدينة.
- يقول -رحمه الله-: وفصلٌ يشتمل على ملخص غزوة أحد، التي ابتلى الله فيها عباده المؤمنين، وزلزلهم، وثبَّت الإيمان في قلوب أوليائه، وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق، وفضحهم، وقرَّعهم، يعني وبَّخهم، ثم أنزل نصره، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وأعز جنده، وردَّ الكفرة بغيظهم، ووقى المؤمنين شر كيدهم، وذلك بفضله ومنِّه.
- ثم قال: وحرَّم عليهم شرعًا وقدرًا أن يغزوا المؤمنين بعدها، يشير بذلك إلى قول النبي -عليه الصلاة والسلام- في صحيح البخاري، من حديث سليمان بن صرد: **«الآن نغزوهم ولا يغزونا»**، فكانت غزوة الخندق تعتبر من الغزوات التي حصل فيها تحوُّلٌ كبيرٌ في السيرة النبوية، وفي الغزوات العسكرية، ما هو التحوُّل؟: أنه لم يستطع المشركون بعد غزوة الخندق أن يغزوا المدينة أبدًا، بل كان الغزو كما يقال باتجاهٍ واحدٍ، يعني في أول الأمر كانت الحروب كما قال أبو سفيان، لما كان عند هرقل: الحرب بيننا وبينه سجالٌ، كانوا يُغزون ويَغزون، لكن بعد غزوة الخندق، وقد وقعتْ سنة خمسٍ، وفي شهر شوال تحديدًا، لم يقع بعد هذه الغزوة من الكفار غزوٌ للمسلمين، بل كان الغزو بعد ذلك من المسلمين لهم.
- أشار ابن كثير -رحمه الله- إلى أن الصحيح أنها وقعت في شهر شوال من سنة خمسٍ، وأشار إلى خلافٍ، قال: والصحيح الذي لاشك فيه: أنها سنة أربعٍ، في قول موسى بن عقبة.
- أنا فقط أشير فقط لأنا لا نريد أن ندخل في التفاصيل، هذا يشتتنا في موضوع متى ومتى، أود أن أشير فائدةً لطلاب العلم، في ما يتعلق بمغازي موسى بن عقبة، هو إمامٌ، وكان الإمام مالك -رحمه الله- يُثني على مغازي موسى بن عقبة، لكن للفائدة وأظن هذا نبَّهت عليه في أوائل الدروس، وهو أن موسى بن عقبة -رحمه الله-،

كان عنده تأخيرٌ في السنوات سنةً واحدةً، فكان يؤرخ بدر في السنة الأولى، وكان يؤرخ أحد في السنة الثانية، فلما جاء إلى الخندق، أرَّخها في السنة الرابعة، فإذا عرفنا منهجه في هذا، أمكننا أن نرد قول موسى بن عقبة إلى قول الجمهور فقط.

- ثم ناقش ابن حزم -رحمه الله- كلامًا لسنا بحاجةٍ إليه، لكن الذي يهمنا هنا حديثه -رحمه الله- عن سبب الغزوة، ما سبب غزوة الخندق؟
- سبب الغزوة كما ترون في الشاشة، أن نفرًا من يهود بني النضير، الذين أجلاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من المدينة إلى خيبر، الذين مر ذكرهم قريبًا، لما أخرجهم بما حملت دوابهم، غير السلاح فقط، الذين أجلاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى خيبر، كسلَّام بن حقيق، وابن مشكم، وغيرهم، خرجوا إلى قريش بمكة، فألبوهم على حرب النبي -صلى الله عليه وسلم-، انظر، قومٌ غُدر، يعني يفترض أن يقابلوا قبول النبي -عليه الصلاة والسلام- بالسماح عنهم، وعدم قتلهم، وإجلائهم إلى خيبر، أن يقابلوا ذلك بالشكر، لكنهم قومٌ غُدر، قومٌ لا يفون بعهدٍ، وقومٌ فيهم حقدٌ عظيمٌ على المسلمين، وهذا ثابتٌ، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ [المائدة: 82]، لاحظ، اليهود التقوا مع المشركين، فاجتمع كما يقال الضعث والإبانة.
- فقال هؤلاء اليهود -قبَّحهم الله ولعنهم-: نحن معكم، وسننصركم، فتورَّط المشركون في هذه الدعوة، فخرجوا إلى غطفان أيضًا، وهم من القبائل التي تقترب من الطائف، وهم الذين قاتلهم النبي -عليه الصلاة والسلام- بعد، كما سيأتي -إن شاء الله- في غزوة حنين.
- فدعوهم أيضًا، وخرجت قريش، وقائدهم أبو سفيان، سبحان الله، في أكثر من غزوةٍ يقف أمام النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم يئول أمره إلى الإسلام بعد.
- وعلى غطفان عُيينة بن حصن الفزاعي، كلهم في نحو عشرة آلاف رجلًا، فلما سمع النبي -عليه الصلاة والسلام- بمسيرهم إلى المدينة، أمر بحفر الخندق، وكان هذا اقتراحًا من سلمان، لاحظتم بركة المشورة؟
- وفيه سلمان اقترح، من الذي نفَّذ؟ المسلمون، إذن نؤكد على المعنى هذا أيها الإخوة والأخوات، الذي مر معنا أكثر من مرةٍ، ليس بالضرورة أنك لا تخدم الدين إلا إذا نفذت بنفسك، اقترح ولو فكرةً، اكتب ولو فكرةً، اخدم الإسلام ولو بفكرةٍ، فكِّر للإسلام، اخدم دينك ولو بتدوين بعض المقترحات، ودع غيرك ينفِّذ، ليس بالضرورة أن تنفذ كل الفكرة، تنفذ بعضها.
- فيقول: وكان هذا بشارةٍ من سلمان، فعمل المسلمون مبادرين هجوم الكفار.
- يقول: وكان في حفره آياتٌ مفصَّلةٌ يطول شرحها، وقد بُسطت هذه في كتب السير، وذكر الإمام مسلم في صحيحه، والبخاري جملةً من هذه الأخبار، وأهل السير أيضًا يذكرون شيئًا من ذلك، من ضمنها أنه -عليه الصلاة والسلام- لما كانت الشدة قد بلغت مبلغها، عرضت لهم كديةٌ، فدعوا النبي -عليه الصلاة والسلام- فضربها بمعوله الذي معه، فانهالت كثيبًا، فقال -عليه الصلاة والسلام-: **«الله أكبر! إني أرى قصور بصرى»**، هذه في سوريا الآن، وهو في المدينة، الله أكبر! أي درسٍ أبلغ من هذا في الفأل أثناء الأزمات، فلا نامت أعين المتشائمين.

- اليوم كثيرٌ من المسلمين بعضهم دعاةٌ أحيانًا وطلبة علمٍ، حينما يرى ما أحيط بالمسلمين من شرورٍ، وأحيط بالمسلمين من ضعفٍ، وهوانٍ، و و و، يقف ويقول: خلاص، والله قبل يومين اتصل بي طالب علمٍ من مصر، يشكو الحال الذي يعيشونها، قال: نتوقف عن الدعوة، قلت: يا رجل، اتق الله ولا تقف، ادع إلى الله بما تستطيع، أرأيت لو أن الوادي الذي أنت فيه، لو كنت ساكنًا في واد، أو جلستَ في وادٍ، ثم سمعت من بعيد، أو جاءك خبرٌ، أن الوادي قد جرى بالماء، وأمامك عشرةٌ أنفس، واستطعت أن تنقذ واحدًا من هؤلاء العشرة، أيليق بك شرعًا أو عقلًا أن تترك هذه النفس الواحدة التي تستطيع أن تنقذها لأنك لا تستطيع أن تنقذ التسعة؟ لا يجوز، أنقذ ولو نفسًا واحدةً، لا يكلِّفك الله أكثر مما تستطيع.
- إذن، لا تشاؤم، كيف تتشاءم ورسولك -عليه الصلاة والسلام- يتفاءل في أحلك الظروف؟ ويكبِّر، ويأتيه خبَّاب بن الأرت، وهو متوسِّدٌ ببردةٍ في ظل الكعبة، في مكة، ويقول: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا، ألا ترى ما نحن فيه؟ ثم يعاتبه النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو يبشِّره ويقول: **«والله ليتمنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»**.
- ثم هنا الله يقول: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، ثم يقول: **«الله أكبر!، أوريت قصور كسرى»**، وهنا ينقسم الناس في أوقات الشدائد إلى قسمين، المجتمع ينقسم إلى قسمين، المؤمنون ماذا يقولون؟ ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: 22]، كل ما اشتدت الأزمة على المسلمين، تزداد يقينًا، بأن هذا إيذانٌ بقرب النصر، ولذلك ابن القيم في تعليقه على فوائد غزوة أحد، في "زاد المعاد" قال: وفي هذا من الدروس أيضًا: أن أعداء الله ورسوله، إذا اشتد بغضهم، وفعل المسلمون ما بوسعهم، انتصر الله -عزَّ وجلَّ- لهم، وتكلَّم بكلامٍ على قضية سوء الظن إلى آخره، في غزوة الخندق، القسم الثاني من الناس ماذا قالوا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].
- فإياكَ إياكَ أخي وأختي، أن يتسرَّب إلى قلبك داءُ اليأس، أو داءُ القنوط، أو داءُ الإحباط، اعمل بما تستطيع، بكلمةٍ، اعمل بالتزامك، باستقامتك على أمر الله، المسلم الرجل في مظهره، المرأة في مظهرها، بحفاظها على حجابها، بحفاظها على عفَّتها وحشمتها، اعتزازها بدينها، كل هذه وسائل من وسائل الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، وتثبيت المؤمنين، أما أن نتخلى أو نقصِّر بحجة أننا لا نستطيع أن نكسب في هذه الفترة إلا عشرةً بالمائة أو عشرين، دعنا نكسب ولو واحدًا بالمائة، أهم شيءٍ أن نلقى الله ونحن ثابتون على الطريق، ثابتون على دينهم، ثابتون على مبادئنا، ولا يكلِّف الله -عزَّ وجلَّ- لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.
- فيقول: فنزلوا حول المدينة، كما قال الله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأحزاب: 10]، وخرج النبي -صلى الله عليه وسلم-، فتحصَّن بالخندق، في ثلاثة آلافٍ على الصحيح من أهل المدينة.
- وزعم ابن إسحاق أنهم كانوا في سبعمائة، وهذا غلطٌ من غزوة أحد، والله تعالى أعلم.
- يقول: فجعلوا ظهورهم إلى سلعٍ، وسلعٌ جبلٌ معروفٌ في المدينة، وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنساء والذراري فجُعلوا في أطام المدينة، ما الأطام؟ الأسوار المرتفعة، أشبه ما تكون بالقلاع، كل ذلك صيانةً

للأعراض، حتى لو وقع، لأنه تذكرون في غزوة أحد، قبل سنتين يُخشى أن يلتف المشركون، وعددهم هذه المرة، ثلاثة أضعاف العدد السابق، كانوا في أُحد ثلاثة آلافٍ، هنا عشرة آلاف، يعني ثلاثة أضعاف والثلث، والعدد هذا ضخمٌ وكبيرٌ، لك أن تتصوره في بلدٍ أشبه ما يكون بالمدينة الصغيرة اليوم، بلدٌ حوله عشرة آلاف، فكان هذا غاية ما يكون من الحكمة، بينما العدد في أحد كان أقل، ومع ذلك احتاط النبي -عليه الصلاة والسلام- وجعل مكانه في أحد قريبًا من المدينة، في ما لو حصل ما حصل، وإذا المسلمون يذودون عن أعراضهم.

- يقول: فجُعلوا في آطام المدينة، واستخلف عليها ابن أم مكتوم، انظر إلى هذا الرجل المبارك، الذي عاتبه الله -عزَّ وجلَّ- فيه، فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: 1، 2]، لا تحتقر أحد، لا تقول هذا مشلول، هذا أعرج، هذا أعمى، هذا أصم، والله إن من هؤلاء من يخدم الإسلام أكثر من أولئك النشيطين المتمعين بجوارحهم، فالمسألة مسألة قلبٍ وهَمٍّ وعقلٍ يعمل لهذا الدين.
- قال: وانطلق حيي بن أخطب النضري، يعني من بني النضير، إلى بني قريظة، فاجتمع بكعب بن أسد رئيسهم، فلم يزل به حتى نقض العهد، انظروا الآن بني النضير، ثم بني قينقاع الآن، فنقضوا العهد الذي كان بينه وبين النبي -عليه الصلاة والسلام- ووافق كعب المشركين على حرب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فسُرُّوا بذلك، وبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- السعدين بن معاذ وابن عبادة، وخوات بن جبير، وعبد الله بن رواحة، ليعرفوا يتأكدون، وهذا فيه درسٌ، وهو التَّثبُّت، لا يحملنك حال الحرب، أو حال البُغض أن تحكم قبل أن تتثبت؛ لأن المسألة ليست بالسهلة.
- فهل نقضوا أو لم ينقضوا، فلما قربوا منهم وجدوهم مجاهرين بالعداوة، والغدر، فتسابُّوا، ونال اليهود -عليهم لعائن الله- من النبي -عليه الصلاة والسلام-، فسبَّهم سعد بن معاذ، وانصرفوا عنهم.
- وقد أمرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إن كانوا نقضوا أن لا يفتوا في أعضاد المسلمين، يعني لا يُعلنوا هذا الخبر، حتى لا يقع في قلوب المسلمين وهن، لئلا يقع وهنٌ، وأن يلحنوا لحنًا، يعني يشيرون إشارةً.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

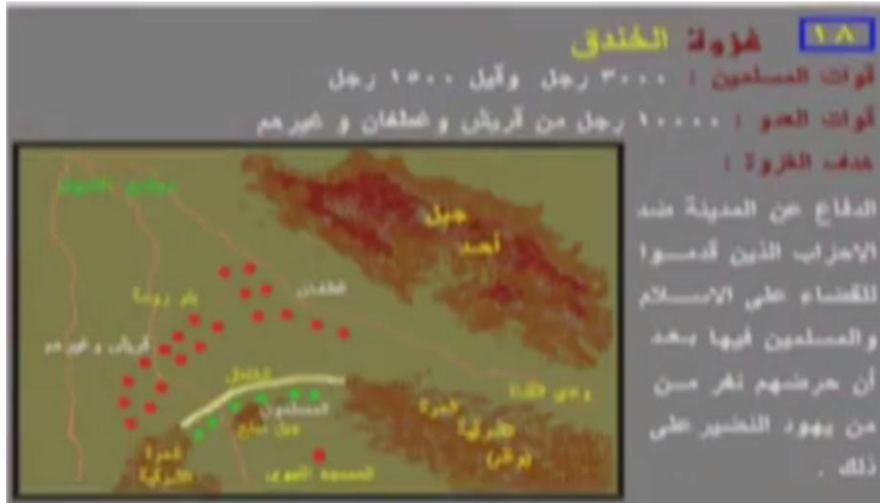


الدرس الحادى عشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كان الحديث وقف بنا أيها الأحبة، عند ذكر سبب غزوة الخندق، وقد أشار الحافظ ابن كثير -رحمه الله- إلى ذلك، وهو أن نفرًا من يهود بني النضير الذين أجلاهم النبي -عليه الصلاة والسلام- من المدينة إلى خيبر، تحالفوا مع قريش، ونقضوا العهد، فتجمعوا وألبوا القبائل التي حول المدينة النبوية، حتى اجتمع من ذلك عددٌ كبيرٌ جدًّا، بلغوا عشرة آلاف مقاتلًا.
- فلما علم النبي -عليه الصلاة والسلام- بهذا العدد الكبير من المقاتلين، وبهذا التآلب، وبهذه الخيانة التي حصلت، شاور المسلمين ما الذي يفعله، فأشار سلمان الفارسي -رضي الله عنه-، وهذه من بركة المشورة، وأن الإنسان لا يحتقر شيئًا يقدِّمه لدين الإسلام ولو بفكرةٍ، ليس بالضرورة أن تنفِّذ كل فكرةٍ، بل اقترح، وقد ينفِّذ غيرك، فاقترح عليهم فكرة الخندق، وهي حيلةٌ من حيل الفرس في القتال، فاستحسنها النبي -صلى الله عليه وسلم- وبقي الصحابة مع النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يشاركهم، ويكابد ما يكابدون من الجوع والألم والترقُّب، فكان -عليه الصلاة والسلام- بقي مع الصحابة قرابة أربعين يومًا، وهم يحفرون، يواصلون الساعة بالساعة، ليل نهار، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، حتى إن أفواج الكفر لما اقتربت من المدينة، دُهشوا من هذه المكيدة العسكرية، التي لم تكن العرب تعرفها من قبل.
- والنبي -عليه الصلاة والسلام- قال في موضعٍ آخر: **«الحرب خدعةٌ»**، فأي وسيلةٍ يمكن خداع العدو بها عمومًا، والتحوُّط لصيانة الدماء والأموال والأعراض، فإنها من الحيل المشروعة، وهي صورةٌ من صور إعداد القوة.
- لما خرج النبي -عليه الصلاة والسلام- أو حصل الاستعداد هذا والتحصُّن، جعل النبي -عليه الصلاة والسلام- ظهور المسلمين إلى جبل "سلع"، المخرج الآن يُظهر لنا الصورة التي توضِّح خارطة أو موقع المسلمين من المدينة، وكيف ساروا، تلاحظون الآن في الشاشة هنا، الجبال الآن من جبل أحد الكبير هناك، ها ذاك وقعت فيه غزوة أحد، لاحظوا أسماء القبائل عندنا، هذه غطفان، وهذه قريش وغيرهم، هنا الخط الأصفر الصغير هذا يشير إلى الخندق، المسلمون كانوا جعلوا جبل "سلع" هذه البقعة الصغيرة هذه التي يدور حولها المؤشر، بجانب النقط الخضراء، هذا الجبل الصغير، استدبره المسلمون، لأجل أن تتجه العيون إلى هذه المنطقة.

وإلى ما بين "سلع" و"الحَرَّة الشرقية" حتى لا تكون هذه المنافذ الضيقة منتهى النقطتين من الخط الأصفر، لا تكون منافذ ينفذ منها المشركون.



- الحصار طبعًا بلا شكٍّ كان شديدًا على المسلمين، وقد وصفه القرآن أبلغ وصفٍ، فكان كما قال الله -جلَّ وعلَا-: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[(١)]، لكن هذا الابتلاء لم يزد المؤمنين إلا ثقةً بموعود الله -جلَّ وعلَا-، كما قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[(٢)].
- أما القسم الآخر، وهو المنافقون: لما رأوا الأحزاب، وتجمعهم، وظنوا أن الدائرة ستكون على المسلمين، قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[(٣)]، والعياذ بالله، وكان قائلهم يقول: محمدٌ يعدنا أننا سنفتح قصور كسرى، وقيصر، وأحدنا من الخوف لا يستطيع أن يقضي حاجته، ولكن هذا شأن القلوب المهتزة، هذا شأن القلوب التي لم تؤمن حق الإيمان، ولم تصدق في إيمانها، تجد أن الشدائد تهزها، وربما تسقطها، واليوم نجد هذا يتكرر، تجد بعض الناس أدنى فتنةٍ، أدنى شدةٍ يسقط معها، بينما المؤمنون، لا تزيدهم الشدائد إلا ثباتًا، ولا تزيدهم الشدائد إلا يقينًا بموعود الله -جلَّ وعلَا-.
- وأنا أقول للإخوة والأخوات: اليوم الأمة تمر بشدائد، لم تمر بها قط من قبلُ، فالمؤمنون يقولون: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ولا تزيدنا هذه المحن إلا يقينًا بأن دين الله منصورٌ، ولكن يجب علينا أن نبحث عن وسائل النصر، وأن نتجنَّب أسباب الإخفاق وتسلُّط الأعداء علينا، التنازع التفرق العداوة، ال ال إلى آخره، وحينئذٍ يأتي النصر بتحقيق أسبابه.
- أشار ابن كثير، وأنا كما قلت مضطرٌ للاختصار، لكن أشير إلى بعض الفقرات، والكتاب بين أيدي الإخوة والأخوات، لكن نشير إلى أهم الدروس.
- يقول ابن كثير: لبث المشركون محاصرين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شهرًا، ولم يكن بينهم قتالٌ، لأجل ما حال الله به من أمر الخندق، بينهم وبينهم، بين المسلمين، وبين المشركين والأحزاب عمومًا، وهذه الغزوة

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتين 10، 11.

(٢) سورة الأحزاب: آية 22.

(٣) سورة الأحزاب: آية 12.

تُسمَّى بالاسمين، غزوة الأحزاب، نظرًا للتجمع الذي حصل بين قريش، وبعض قبائل العرب ضد المسلمين، وتُسمَّى غزوة الخندق، باعتبار ما حصل بين الحفر.

- ثمة مناوشاتٌ حصلت حول الخندق، في أطرافه، حاول بعض فوارس الكفار مثل ابن قمئة وغيرهم، وعكرمة بن أبي جهل قبل أن يُسلم، أن يدخلوا مع هذه الفتحات، لكن كانت جنود المسلمين لهم بالمرصاد، حتى أن عليّ بن أبي طالب لما قابل ابن قمئة، وقد قارب المائة كما يقول ابن كثير، قال: أنا لا أريد أن أقتلك، أنا توّك شابٌّ صغيرٌ، قال: ولكني، والله أحب أن أقتلك يا عدو الله، فنزل له عليٌّ، وقتله، ففرت بقية الفوارس، راجعين خائبين.
- ثم ذكر شعار المسلمين "حم، لا يُنصرون"، وقد ذكرنا فائدة هذه الشعارات، أشبه بما تكون بالشفرة العسكرية المستخدمة اليوم.
- ثم حصل ما حصل من الشدة حتى على المشركين، طال الأمد عليهم؛ لأن بقاء ليلةً واحدةً، أو يومًا واحدًا، معناه أن هذا فيه مزيدٌ من استنزاف المؤن، واستنزاف الأرزاق، ومزيدٌ من القلق في نفوس الأعداء، وأشد ما تكون الهزيمة، حينما تبدأ من الداخل، هذه التي لا دواء لها، ولذلك بدأت كما يُقال بدأت رياح الهزيمة المعنوية تدب في نفوس المشركين، منذ أن بدأت الرياح تقلب قدورهم، وتقتلع خيامهم، وأصبحت المسألة فيها صعوبةٌ، وقضية الخوف والقلق موجودةٌ بين الطائفتين، وهنا تقف بإكبارٍ وإجلالٍ لمواقف الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم-، فمع هذه الشدة، ثلاثة آلافٍ، ماذا يصنعون بعشرة آلافٍ؟ وفي منطقةٍ ضيّقةٍ وصغيرةٍ، لو نفذ هذا الجيش من أي فتحةٍ، لاستئصلت المدينة، ومع ذلك، لم تقع من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وحاشاهم أي خيانةٍ، وأي غدرةٍ.
- لقد كان عثمان -رضي الله عنه- بإمكانه أن يراسل ابن عمه، أبا سفيان بن أبي حرب في ذلك الوقت، ويقول له: أنقذنا، ابحث لنا عن مَخرج، أبدًا، وأُقسم بالله، لئن يُشوى أحدهم بالنار، أهون من أن يمر بخاطره أن يغدر برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو أن يتركه وحيدًا، حاشاهم -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وهذه من المواضع التي تزيد المؤمن حُبًّا في أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- ثم حصل ما حصل، وأرسل الله -جلّ وعلَا- على قريش ما أرسل من الرياح التي أكفأت قدورهم، كما قلنا، واقتلعت خيامهم، وأرسل النبي -عليه الصلاة والسلام- حذيفة بن اليمان من أجل أن يستطلع الخبر في قصةٍ مشهورةٍ، فجاءهم بالخبر، فلما أصبح النبي -عليه الصلاة والسلام- بعد أن أُرسلت عليهم الرياح التي ذكرنا وصفها، انكفأ جيش المشركين منهزمًا راجعًا، خاسئًا لم يظفر بشيءٍ، حتى إنه لم يُذكر أن هناك أحدٌ من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- قُتل في تلك المعركة، بخلاف من قُتل من المشركين، فقد قُتل منهم أعدادٌ.
- فلما أصبح النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقد انفلَّت جموع المشركين، رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة، وقال له جبريل: "وضعتم السلاح؟" قال: **«نعم»**، قال: "أما نحن، فلم نضع السلاح بعد، اغدوا إلى بني قريظة"، وهؤلاء هم الذين ألَّبوا كفار قريش على المسلمين في غزوة الأحزاب، وهؤلاء لابد أن يؤدَّبوا على خديعتهم، وعلى نقضهم العهد، وبالفعل نهض النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقال لأصحابه القصة المشهورة: **«لا يصلينَّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة»** ، وحصل ما حصل من اجتهاد الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- في صلاة بعضهم في الطريق، وبعضهم صلاها بعد المغرب، كلٌّ منهم أخذ مأخذًا.

- فأعطى النبي -عليه الصلاة والسلام- الراية عليَّ بن أبي طالب، وحاصرهم -عليه الصلاة والسلام- خمسًا وعشرين ليلةً، فلما اشتد الحصار عليهم، عرض عليهم سيدهم كعب بن أسد، سيد بني قريظة ثلاثة خصالٍ: الأولى: إما أن يُسلموا، ويدخلوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإما أن يقتلوا ذراريهم، ويخرجوا بدون شيءٍ، حتى يُقتل آخرهم، وإما أن يهجموا على النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه يوم سبتٍ، لماذا يوم السبت؟ لأن الصحابة سيكونون حينئذٍ آمنين، اليهود لا يقاتلون يوم السبت، فرفضوا كل هذه العروض، ولم يعطوا سيدهم منها شيئًا.
- المهم أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أراد أن يخاطبهم بعد هذه المدة من الحصار، وأرسل إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر، وحصل ما حصل في قصةٍ بسطها الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-.
- يقول: ثم إن بني قريظة نزلوا على حكم النبي -صلى الله عليه وسلم- في الأخير، فاستطاعوا أن يصمدوا، فنزلوا على حكمه، فأسلم في تلك الفترة بعض هؤلاء اليهود، ولما نزلوا على حكمه -صلى الله عليه وسلم- قالت الأوس: قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخوتنا الخزرج، وهؤلاء موالينا، يعني بيننا وبينهم أحلافٌ وعلاقاتٌ قديمةٌ في الجاهلية، فقال لهم: «ألا ترضون أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟» ، قالوا: بلى، فأنزلهم على حكم سعد بن معاذٍ -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، فحكَّم فيهم بذلك الحكم الذي شهد النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه حكم الله من فوق سبع سماواتٍ، حكم بأن تُقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم ونساؤهم، فقتل النبي -صلى الله عليه وسلم- منهم قرابة الستمائة، وقيل: سبعمائة يهوديًّا، ولم يستبق إلا من كان صغيرًا، أو كانت امرأةً.
- وممن سلم محمد بن كعب القرظي -رضي الله عنه وأرضاه-، فإنه كان صغيرًا يومئذٍ، ولم يُقتل، فأكرمه الله -جلَّ وعلَا- وصار من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-.

  وقسَّم النبي -صلى الله عليه وسلم- أموال هؤلاء بين المسلمين، للراجل سهمٌ، وللفارس ثلاثة أسهمٍ.
- ثم لما حكم فيهم سعد، قال دعوته المشهورة: "اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريشٍ شيئًا، فأبقني لها"، انظر الهمة، والرغبة في إعلاء دين الله -جلَّ وعلَا-، والانتصار من أقوامٍ قاتلوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وآذوه، وطردوه، وأخرجوه، "وإن كنت رفعت الحرب بيننا وبينهم، فافجرها". ماذا يقصد بـ"افجرها"؟ كان قد أصابه في أكحله، في أسفل قدمه أصابه جرحٌ، كواه النبي -صلى الله عليه وسلم- على إثره، لكنه لم ينتفع -رضي الله عنه- بذلك، ولكن قال أمنيةً واحدةً: لا تمتني حتى تشفيني من بني قريظة، الذين هم مواليه السابقين، أو من كان بينهم وبينهم حلفٌ، لكنهم نقضوا العهد، كان ممتلئًا قلبه غيظًا عليهم، كيف نقضوا العهد، وحصل ما حصل بسببهم.
- وسبحان الله، مات -رضي الله تعالى عنه- بعد أن أصدر هذا الحكم، فأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه اهتز لموته عرش الرحمن، كم تتوقعون أيها الإخوة والأخوات عمر سعد بن معاذ -رضي الله عنه- حينما مات؟ عمره ست وثلاثين سنةً فقط، وأنت تقرأ سيرته تظن أن عمره سبعون، أو ثمانون، ما هذا الرجل الذي مات، واهتز لموته عرش الرحمن، وهو لم يبلغ أربعين سنةً؟ يا له من رجلٍ عظيمٍ! ولنتساءل أيها الإخوة والأخوات، ما هي الأعمال التي قام بها هذا الرجل العظيم سعد بن معاذ حتى يبلغ هذه المنزلة العالية؟ أن يهتز لموته عرش الرحمن، وأعجب من هذا: أن ما بين إسلام سعد، إلى أن مات -رضي الله عنه- سبع سنواتٍ فقط، سبع

سنواتٍ في الإسلام، ومع ذلك سطَّر هذه السيرة العطرة، حتى خُتم له بهذه الخاتمة العظيمة، أن اهتز لموته عرش الرحمن.

- فيا أيها الإخوة، كم لنا في الإسلام؟ عشرين سنةً، ثلاثين سنةً، أربعين خمسين سنةً، ستين سنةً، ماذا قدَّمنا لديننا؟ وإذا متنا، وما الذي سيحدث من فراغٍ بتركنا لمواقعنا؟ لنعمل لدين الله -جلَّ وعلَا-؛ لأن في ذلك العز كله.
- ثم ذكر الحافظ ابن كثير قصة مقتل أبي رافع، سلَّام بن أبي الحقيق، ثم أشار إلى غزوة بني لحيان، وقد وقعت في السنة السادسة من الهجرة، في الشهر الخامس، وهو شهر جُمادى الأولى.
- ولعل المخرج يساعدنا على هذا، يُخرج الصورة غزوة بني لحيان، أريد أن أوضح الموقع، لعل المخرج يتكرم علينا بهذا، ويأذن لنا، نرجع قليلًا، لو كبَّرت الشاشة مشكورًا، لنريكم فقط موقع بني قريظة، كان موقعهم هاهنا، لاحظوا المؤشر، في الزاوية السفلى من اليمين، هذا موقع بني قريظة، الذين أتاهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، ونزلوا، وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلةً، كانوا هنا، في هذه النقط السوداء، وهذا المسجد النبوي، وهذا جبل "سلع" الذي استدبره المسلمون في غزوة الخندق، التي مر ذكرها قبل قليلٍ. فجاءهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذه الجهة إلى هنا، وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلةً حتى قُتلوا.



- ثم جاءت غزوة بني لحيان، في جمادى الأول، في سنة ستٍّ، ويُقال لها: "غُرَّان"؛ لأن الموقع التي وقعت فيه هذه الغزوة، هي في هذا الموضع، انظروا إليها في الشاشة، في المربع الزهري هذا الصغير، ولاحظوا هنا، "غُرَّان"، وهو؟؟ بعد "خُليص" و"عسفان"، قرب قريةٍ تُسمَّى "المقر" تبعد عن مكة تسعين كيلو تقريبًا، اسمها القديم يُعرف بـ"الأزرق"، ويبعد عن "عُسفان" خمسة كيلو. خمسة كيلو "عُسفان" وأنت متجهٌ الآن من مكة إلى المدينة، ستجدها في الطريق، هناك كانت غزوة بني لحيان.



- ثم غزوة ذي قرَد أيضًا أغار بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بليالٍ عيينة بن حصن في بني عبد الله بني غطفان على لقاحٍ للنبي -صلى الله عليه وسلم-، التي في الغابة، فاستاقها، وقتل راعيها، وأسر المرأة، ثم بعد ذلك لحق بهم سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه-، وكان رجلًا عدَّاءً قويًّا، حتى إنه قال: "أنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرُّضَّع"، يوم اليوم يوم اللئام، سأريكم ماذا أفعل، فرضي الله عنه لحق بالإبل كلها فاستاقها وأرجعها، وهم في الطريق راجعون، قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: **«خير رجالتنا اليوم، سَلمة، وخير فرسالننا أبو قتادة»**، ونحر النبي -صلى الله عليه وسلم- جزورًا في الطريق، وأطعم الصحابة -رضي الله عنهم-.
- ثم جاءت غزوة بني المصطلق أيضًا، المخرج المكرم يعرض لنا الخريطة، نريكم فقط موقع غزوة ذي قرَد، هي كانت في هذا الموضع، لاحظوا الشاشة، هنا، هذه المدينة، ولاحظوا جهة مكة هنا، هي كانت شمال شرق المدينة، غزوة ذي قرَد، وذو قرَد هذا جبلٌ أسود بأعلى وادي النقمة، شمال شرق المدينة، تقريبًا خمسةٌ وثلاثين كيلو، كما تلاحظون في الشاشة، لاحظوا المدينة الآن باللون الأخضر الفاتح، ذي قرَد باللون الأصفر هذا، المسافة بين النقطة هذه والنقطة هذه قرابة خمسةٍ وثلاثين.
- والغابة موضع في شمال المدينة، تقريبًا ست كيلو فقط عن الحرم، تُعرف اليوم بالخليل، ولكن هؤلاء اقتادوها حتى أدركهم سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- بعد خمسة وثلاثين كيلو، وكان رجلًا عدَّاءً.
- أنا قست مسافة المشي عنده، ممكن أن يصل في الكيلو الواحد ربما يقطع قرابة ما أدري خمسة عشر كيلو، أو اثنا عشر كيلو، سريع جدًّا، وقد بسط الإمام مسلم قصته مطوَّلة في صحيحه، فمن أراد أن يقرأ شجاعة سلمة، وماذا صنع، فليرجع إلى صحيح مسلم، بابٌ في غزوة ذي قرَد.



- ثم جاءت غزوة المصطلق، أو غزوة المريسيع، تُسمَّى غزوة بني المصطلق، باعتبار القبيلة، التي غزاهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتسمى المريسيع باعتبار الموضع والمكان الذي جاءهم فيه النبي -عليه الصلاة والسلام- ، وهو ماءٌ لخزاعة، يقع بين وادي قديد، الذي يبعد عن مكة مائة وعشرين كيلو، ويبعد عن المدينة ثلاثمائة كيلو.
- تلاحظون الموقع هذا، انظروا المريسيع باللون الأصفر، هذا موقع الغزوة، اليوم وأنت قادمٌ من المدينة إلى مكة، ستجد في اللوحات مكتوبًا "وادي ستارة" وهو "قُدَيْد"، وعلى يمينك الجُحفة، وأنت متَّجهٌ إلى مكة، وعلى يسارك المريسيع، هنا وقعت الغزوة.



- الغزوة هذه وقعت في شعبان في السنة الثامنة من الهجرة، وقيل غير ذلك، وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- قد سبى في تلك الغزوة جويرية بنت الحارث -رضي الله تعالى عنها- التي صارت بعد ذلك أُمًّا للمؤمنين -رضي الله عنها-، وببركة جويرية -رضي الله عنها- كما تقول عائشة أو حفصة: "ما رأيت امرأةً أكثر بركةً على قومها من جويرية" إذ لما سباها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم أعتقها، تزوجها، أعتق الصحابة -رضي الله عنهم- كل السبايا الذين عندهم، وقالوا: لا نأسر أصهار رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكانت مباركةً على قومها.
- وفي تلك الغزوة، قال سيد المنافقين: "لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"، وحصلت القصة المشهورة.

- وفي هذه الغزوة وقعت قصة الإفك، وهي قصةٌ معروفةٌ طويلةٌ، تستحق أن تُفرد بمجلسٍ مستقلٍ، ولكن كما قلنا: الوقت يضيق عن التفاصيل في ما نحن بصدده.
- ولكن من أبرز الدروس والعبر التي تُستفاد من قصة الإفك: أن الله -جلَّ وعلَا- إذا أراد رفعة إنسانٍ ابتلاه، وهذا الابتلاء قد يكون جسديًا، وقد يكون نفسيًا، والابتلاء النفسي، قد يكون أعظم وأشد على الإنسان، وخاصةً إذا كان هذا الابتلاء في تشويه عِرضه، وفي هذا أيضًا من الدروس: أن المنافقين في كلِّ عصرٍ لا يألون جهدًا في تشويه سمعة أهل الإيمان، وخصوصًا منهم أهل العلم والدعوة، فيلفِّقون عليهم التُّهم؛ من أجل إسقاط سمعتهم، وهذا ما يُعرف اليوم بالاصطلاح الإعلامي، بإسقاط الرموز، ولذلك تجد أعداء الإسلام، وكذلك أيضًا الغُلاة، الذين ابتليت الأُمَّة اليوم بهم، تجدهم يسعون إلى إسقاط قيمة العلماء في نفوس الناس، وفي نفوس الشباب، وفي الطرف الآخر، المنافقون، العلمانيون وغيرهم، يسعون أيضًا إلى إسقاط قيمة هؤلاء الرموز، لماذا؟ حتى يبقى الشباب لا ينظرون، ولا يعترفون بأحدٍ يقودونهم، أو يوجهونهم أو يرشدونهم، فإذا سقطت قيمة أهل العلم، الذين يُستأنس برأيهم، ويُستفاد بعلمهم، ومن تجاربهم، في عيون الشباب، لا من جهة هؤلاء العلمانيين، وغيرهم، ولا من جهة الغلاة، فإلى من يرجع الشباب؟ تجد كل واحدٍ منهم يقول: أبدًا لا يهمك هؤلاء، هؤلاء علماء سلاطين، هؤلاء عُبَّاد دنيا، وهؤلاء وهؤلاء، ثم يبقى الشاب يتصرف بنفسه، وبالتالي تقع هذه الكوارث، والمشاكل، فتجده إما ينحرف فكريًا سواءٌ في الغلو، أو في الإلحاد، وأمثال هذه المشارب، أو تجده ينجرف خلف الشهوات، ويتبع هوى نفسه، فلنحذر من هذا المسلك، فإن من أعظم دروس الغزوة هي هذا.
- ومنها أيضًا: أن أعظم الناس بلاءً الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأي شيءٍ أعظم أيها الإخوة أن يقف النبي -صلى الله عليه وسلم- شهرًا كاملًا، ينحبس الوحي من السماء، وهو يخطب على المنبر، ويرى في عيون بعض الناس تساؤلاتٍ، هل عائشة وقعت أو ما وقعت؟ هل العرض النبوي اختُرق؟ أو لم يُخترق؟ هذا صعبٌ جدًّا أيها الإخوة، والله صعبٌ، قسمًا بالله، لو أن أحدنا ابتُلي بشيءٍ من هذا في أحد قرابته لما أطاق أن يصعد على المنبر، فكيف برسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟
- فأعظم الناس بلاءً هم -صلوات الله وسلامه عليهم-، وأعظمهم بلاءً رسولنا -عليه الصلاة والسلام-، فصبر، ومنها دروس الإفك، وأختم به: قضية التأني، والتثبُّت مع الزوجة، أو العكس، في ما لو وصلته تهمةٌ، ما يستعجل يقول: أنتِ فعلتِ، أنتِ فعلتِ، النبي -عليه الصلاة والسلام- قال لها: **«يا عائشة، إن كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله، وإن كنتِ صادقةً، فسيبرؤكِ الله»**، ووقع الأمر، صدقتْ -رضي الله عنها-، كانت صادقةً، وبرَّأها الله من فوق سبع سماواتٍ، وأظهر الله كرامتها، وأنزل في شأن الإفك ست عشرة آيةً، جعلها الله -جلَّ وعلَا- ذمًّا ولعنةً على المنافقين، وجعلها عزَّةً وكرامةً لأهل الإيمان، ولعائشة -رضي الله عنها- بالذات، ولنبينا -صلى الله عليه وسلم-.
- ثم بعد ذلك انتقل -رحمه الله- إلى غزوة الحديبية، وهذه الغزوة وقعت في السنة السادسة من الهجرة، وموقع الحديبية اليوم معروفٌ، الذي خارج من مكة متجهٌ إلى جدة، سيجد منطقةً اسمها "الشميسي" هذه

المنطقة، على يسارك، وأنت متجهٌ إلى جدة، هذه هي منطقة الحديبية، أو المنطقة المكان الذي وقع فيه الصلح العظيم، الذي سنشير إليه -إن شاء الله تعالى- بعد قليلٍ.

- النبي -عليه الصلاة والسلام- خرج في أكثر، أو قرابة ألفٍ وأربعمائة رجلٍ من أصحابه، فجاءت المفاوضات بينه وبين قريش، يعني النبي -عليه الصلاة والسلام- لما وصل عُسفان، وهي تقريبًا ثمانين كيلو من مكة، علم بخروج قريش لتصدَّه عن البيت، وتمنعه من الدخول، فسلك النبي -عليه الصلاة والسلام- طريقًا نحو الساحل، حتى وصلوا إلى الحديبية، فأرسلت قريش خمسين فارسًا لمهاجمة المسلمين، لكنهم وقعوا في الأسر، فأطلق النبي -عليه الصلاة والسلام- سراحهم، وكما يُقال: تأكيدًا لصدقه، وأنه إنما أتى ليعتمر، لا ليقاتل، وإلا لو قتلهم، لقالت قريش: جاء يقاتل، إذن سنقاتله، لكنه -عليه الصلاة والسلام- لم يكن يقصد ذلك.
- المهم أنه لما جاء النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى ذلك الموضع، تراسل هو وجماعةٌ من المشركين، وعلى رأسهم كان من الحضور سهيل بن عمرو، وكان من شروط الصلح: أن يرجع إلى المدينة، ولا يعتمر هذا العام، انتهوا، ومن الشروط أيضًا، التي وجد المسلمون فيها غضاضةً، يعني مشقةً، ورأوا فيها أن فيها هضمًا لحقهم، ومنزلتهم، أنه من جاء من المشركين إلى المسلمين يرجعه المسلمون، ومن جاء من المسلمين إلى المشركين فإنهم لا يرجعونه.
- قال عمر -رضي الله عنه-: يا رسول الله، ألسنا المسلمين؟ قال: **«بلى»**، قال: أليسوا المشركين؟ قال: **«بلى»**، قال: فلمَ نعطي الدنية في ديننا؟ انظر العزة، نُفخت في روح عمر، نفخها الله فيه بهذا الإسلام العظيم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كلمةٌ عظيمةٌ: **«إني رسول الله ولست أعصيه»**، إذن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتصرف بوحيٍ، والعجيب ما هو؟ أن عمر -رضي الله عنه- جاء إلى أبي بكر قبل أن يأتي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: يا أبا بكر، ألسنا المسلمين، ألسنا على الحق؟ أليسوا هم المشركين؟ ونفس الأسئلة هي إجابات النبي -صلى الله عليه وسلم-، قبل أن يسمع إجابات النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا الموقف وغيره، يُسمَّى أبو بكر الصديق، توافق مواقفه وأقواله مواقف وأقوال النبي -عليه الصلاة والسلام-، فتعجب عمر -رضي الله عنه-.
- عمر -رضي الله عنه- من موقفه هذا الذي خرج مخرج العزة، والغضب لله ولرسوله، وللإسلام، قال: فعملت لذلك أعمالًا، يعني شعرت أنني أخطأتُ حينما كنت بهذه الحماسة، وانظروا بركة الرجوع إلى أهل العلم، عمر من هو؟ عمر هو عمر، ومع ذلك ما استفرد برأيه، وإنما جاء يعرض على أبي بكر؛ لأنه أكبر منه، وأعلم منه، وأفضل منه، ثم جاء يعرض على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه على الحق، وقال: يا رسول الله، ألم تعدنا أننا سنأتي البيت ونطوق؟ قال: **«هل قلت لك: إنك ستأتيه العام؟»** يعني أنا قلت لك في سنة ستة من الهجرة ستأتي إلى مكة؟ قال: لا، قال: **«أما إنك آتيه ومطوِّفٌ به»**، صدق -صلى الله عليه وسلم-، وحصل هذا في سنةٍ وتسعة شهورٍ، وجحافل المسلمين دخلت فتح مكة كما سيأتي.
- فهنا استقر وهدأت نفس عمر، وأكثر المسلمين كما أشار ابن كثير -رحمه الله-، كانوا يشعرون بأن الأمر صعبٌ عليهم، لكن نحن نرى شيئًا، ونريد شيئًا، والله -جلَّ وعلَا- يريد، ولا يمضي إلا ما يريده -جلَّ وعلَا-.

- من الشروط التي وقعت على أن يعتمر النبي -صلى الله عليه وسلم- من العام المقبل، وليس معه إلا جلبان السلاح، والمقصود بجلبان السلاح هنا: هي أشبه ما تكون بالوعاء الذي يضم السيف، جراب السيف، هو هذا، فهذا كان من شرطهم، وأيضًا إذا اعتمر أن لا يقيم أكثر من ثلاثة أيامٍ، انظروا إلى الشروط التي في ظاهرها ضيمٌ، وسبحان الله، لما انتهى الصلح، والقضية وكذا، أول ما انتهت جاء أبو جندل -رضي الله عنه- من مكة إلى الحديبية، فقال سهيل: هذا أول ما نقاضيك عليه، نطبق الآن الشروط، فأمره النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يرجع، وقال: لا أستطيع بعد ما وقَّعنا الاتفاقية، انظر هذه المبادئ لا تنخرم كما مر معنا مرارًا، لا في حربٍ، ولا في سلمٍ، مادام اتفقنا وتعاقدنا، لا نخيس بالعهد، ولا نكذب، ولا نغدر، هذا دينٌ، وليس حديثًا عن شخصٍ معينٍ.



- فقال: هذا أول ما نقاضيك عليه، يرجع إلينا أبو جندل، فردَّه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهرب أبو جندل مع أبي بصير إلى سِيف البحر في قصةٍ معروفةٍ، المهم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- طبَّق، مع مرارة هذا، وأن أجزم جزمًا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- في داخله يتقطَّع على حال هؤلاء، لكن المسألة ليست مرتبطةً بشخصٍ معينٍ، بأبي جندل، أو بأبي بصير، القضية مرتبطةٌ بالإسلام كله، وبهذا تعلم عظيم الجناية التي يقع فيها بعض الشباب الذين يتسببون في إحراج المسلمين كلهم في بلاد الإسلام، أو حتى في بلاد غير المسلمين، فتجده يفجِّر، أو يتقصَّد أماكن حيويةً كما يُقال، ويضرب، ثم بزعمه أنه قدَّم قربانًا أو نفعًا عظيمًا للإسلام، وهو يُضِر بملايين المسلمين الموجودين في تلك البلاد، فيشدد عليهم، ويعتقلون، وربما ضويقوا، فبدلًا من أنهم يؤدون الصلاة بارتياحٍ، المرأة تتحجب كما تريد، لا، الحجاب ممنوعٌ، وربما أُقفلت عددٌ من المراكز الإسلامية، وربما ضُيِّق على التبرعات، بماذا؟ بفعلِ أرعن من شابٍ لا يفقه، لا يرى أن الجنة تُدخل إلا من هذا الطريق، الذي هو رسمه لنفسه، دون أن يرجع إلى علماء، دون أن يرجع إلى أُناسٍ، يقدِّرون المصالح والمفاسد، هب أنك قتلت كافرًا أو كافرين، ماذا تصنع بملايين المسلمين الموجودين في هذا البلد؟ يُضيَّق عليهم بسبب فعلك، وهذا من شؤم الاستفراد بالرأي، وعدم النظر في المآلات والبعد عن رأي العلماء والصادقين والناصحين.
- ذكر الحافظ ابن كثير أن هذه الهدنة كانت من أكبر الفتوح، ولهذا -سبحان الله- من الأشياء التي قدَّرها الله -سبحانه وتعالى- في هذا: أنه لما انصرف -عليه الصلاة والسلام- من صلح الحديبية، أنزل الله -جلَّ وعلَا- عليه أي سورة؟

- سورة الفتح، وقال الله -جلّ وعلَا- فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [٤]، انظر كيف أكَّده -جلّ وعلَا- بأنه فتحٌ، قال: ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا﴾ أكَّده بهذا المصدر، ثم وصف هذا المصدر بأنه فتحٌ مبينٌ، لا إله إلا الله، أي فتحٍ، وأيُّ إبانةٍ عن فتحٍ في هذه الشروط التي ظاهرها هضمٌ، ولكن الله -جلّ وعلَا- يقضي، يعني أوحى إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وهو العليم الحكيم، وهو العليم بمآلات الأمور، فكان فعلًا هذا فتحًا، حتى إن ابن مسعود قال: إننا لا نسمى الفتح إلا فتح الحديبية، وإن كان هذا فتحًا، لكن لاشك أن الفتح الأصلي هو فتح مكة، ولهذا بعض العلماء يفرّق بين ما ورد في القرآن الكريم مُنَكَّرًا أنه صلح الحديبية، وما جاء مُعرَّفًا، فهو فتح مكة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [٥]، هذا فتح مكة، وفي أول سورة الفتح: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾، نكرةٌ، وإن كانت موصوفةً، لكنها دالةٌ على صلح الحديبية. هذا ما يتعلق بصلح الحديبية، وفيه تفاصيل، ذكرها الحافظ ابن كثير.
- قال -رحمه الله-: إن مدة إقامتهم في الحديبية، كانت نحوًا من عشرين ليلةً، ثم انتقل إلى الكلام على غزوة خيبر.
- الآن طوينا صفحة السنة السادسة من الهجرة، وافتتحنا صفحة السنة السابعة من الهجرة، في مفتتحها، وفي شهر محرم الحرام، على رأي جمهور أهل العلم، وقعت غزوة خيبر، وهذا هو الصحيح، أنها في شهر محرم، وعليه أكثر أهل العلم.
- وكان قصة الغزوة هذه ولاحظوا الآن خيبر، لعل المخرج الكريم يُخرج لنا الصورة الآن حتى نعرف أين موقعها، هي تقع قرابة مائةٍ وخمسةٍ وستين، مائة وسبعين كيلو شمال المدينة، وهذا موضعها الآن، لاحظوا في الخريطة، موضعها الآن باللون الأصفر، في أعلى الخارطة، وهنا المدينة، والطريق اليوم إليها سالكةٌ، لأنها إلى طريق تبوك والعلا، ستكون خيبر على يسارها، وهي محافظةٌ قائمةٌ اليوم، وهي إحدى المحافظات التابعة لإمارة منطقة المدينة المنورة.



- النبي -عليه الصلاة والسلام- خرج إليها، وحاصرها حصنًا حصنًا، حتى فتح الله -جلّ وعلَا- عليه، قال -رحمه الله-: حتى استكملها وخمَّسها، يعني الغنيمة التي ذكر الله -جلّ وعلَا- تقسيم الغنائم في سورة الأنفال، وكان جملة من كان في غزوة خيبر، هم من حضر في الحديبية.

---

(٤) سورة الفتح: آية 1.

(٥) سورة النصر: آية 1.

- يقول: واستعمل اليهود الذين كانوا فيها، بعدما سألوا ذلك عِوضًا عما كان صالحهم عليه من الجلاء على أن يعملوها، ولرسول الله -صلى الله عليه وسلم- النصف مما يخرج منها، يعني الصلح الذين قبله يهود خيبر، أن يعملوا في المزارع، ونحن نعلم أن خيبر أرضٌ زراعيةٌ، فقالوا: أبقنا فيها، ونحن نعمل في الزراعة، ونصف ما يخرج من هذه البلد لنا، ونصفه لكم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- في شروط الصلح: **«نبقيكم فيها ما شاء الله»**، فجعل الأمر إليه -صلى الله عليه وسلم-، ولم يعطهم مثلًا هدنةً مفتوحةً، وتبقون أبد الآبدين، لا؛ لأنه علم -عليه الصلاة والسلام- بتعليم الله له أن الأمور ستئول إلى طرد هؤلاء من خيبر، وتخليص هذه المنطقة كلها لتكون بلدًا إسلاميةً محضةً، والحكم فيها للإسلام، بغض النظر عن وجود ناسٍ من أهل الكتاب.
- وفي هذه القصة، أو في الغزوة، أهدت إليه المرأة التي سمَّت الشاة، وأخبر الذراع الذي أكل منه، أنه مسمومٌ، فكفَّ عن الأكل، فممن قُتل بسبب هذه الشاة المسمومة البراء بن معرور، وقد صنعت زينب بنت الحارث هذه اليهودية الشاة، فسمَّته، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«ما حملكِ على ما صنعت؟»** قالت: إن كنتَ نبيًّا فسيخبرك الله، وإن لم تكن نبيًّا استرحنا من شرك، فلما قُتل البراء بن معرور بسبب هذه الشاة قتلها بالبراء -رضي الله عنه وأرضاه-، على سبيل القصاص.
- فلما انتهت غزوة خيبر، قدِم جعفر بن أبي طالب، وقدِم أبو موسى الأشعري، وقدِم أبو هريرة -رضي الله عنه- في جملةٍ من المهاجرين الذين كانوا في الحبشة، آخر أفواج الصحابة الذين بقوا في الحبشة، جاءوا بعد الغزوة، حتى روي عنه -عليه الصلاة والسلام- أنه قال: **«لا أدري بأيهما أفرح؟ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر»**، وقد استشهد من المسلمين بخيبر نحو العشرين.
- ثم فتح "فدك"، وهي قريةٌ في الحجاز، بينها وبين المدينة قرابة خمسين كيلو تقريبًا، وهذه أيضًا مما لم يقع فيها قتالٌ، فقسمها النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث شاء؛ لأنه تقدَّم معنا أن الأرض التي تُفتح بدون قتالٍ، يقسمها الإمام كيف يشاء، بينما التي تكون بقتالٍ تُخمَّس على طريقة الغنائم، التي وضحها الله في سورة الأنفال.
- ثم تكلم على فتح وادي القرى، وادي القرى وأنت ذاهبٌ إلى العلا، سيقابلك وتجد الجبال فيه بشكلٍ عجيبٍ جدًّا، جبالٌ ضخمةٌ جدًّا، وفيها ذكر النبي -عليه الصلاة والسلام- قصة الرجل الذي جاءه سهمٌ غربٌ، يعني غادرٌ، فقتله، فقال الناس هنيئًا له الشهادة، فقال: **«كلا، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي غلَّها»** أشبه ما يكون بالرِّداء، مثل المشلح الذي يلبسه الناس عندنا **«لتلتهب عليه نارًا»** ؛ لأنه أخذها قبل أن تُقسم الغنائم.
- ثم انتقل -رحمه الله- إلى الكلام على عمرة القضاء، وهذه وقعت في شهر ذي القعدة، من السنة السابعة، لكن لماذا سميت عمرة القضاء؟ هذه تذكرون في العام الماضي قالت قريش: لا تدخل مكة إلا العام القادم، وبجلبان السلاح، فوافقوا، فجاء النبي -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: إن المقصود بهذه العمرة، يعني بعضهم يفسِّرها بهذا التفسير الذي ذكرناه، وبعضهم يقول: إنها التي قاضى عليها قريشًا، والمعنى واحدٌ، كما ذكر ابن كثير، وبعضهم يسميها عمرة القصاص، وهذا قليلٌ.

- فصار حتى بلغ مكة، فاعتمر وطاف بالبيت، وتحلل من عمرته، وتزوَّج في تلك الزيارة ميمونة بنت الحارث، بعد ما أحل، الهلالية، هذه خالة ابن عباس -رضي الله عنه-، وخالة خالد بن الوليد.
- وتمت الثلاثة أيامٍ، وهذا أحد الشروط، فقالوا: لعليٍّ قل لصاحبك يخرج من مكة؛ لأنه مازالت البلد بأيديهم، فخرج -عليه الصلاة والسلام- حتى ما أمكنوه أن يبني بميمونة، فبنى بها بِسَرِفٍ وهي بلد على مكة من مسافةٍ قريبةٍ وليست بعيدةً.
- والصواب في هذه القصة: أنه -صلى الله عليه وسلم- تزوج ميمونة حلالًا، وليس كما قال ابن عباس أنه تزوجها وهو مُحرمٌ، فإن ابن عباس كان صغيرًا، ولم يضبط القصة، والصواب أنه تزوجها وهي حلالٌ.
- وهذا الخلاف في كونها تزوجها وهي محرمةٌ أو حلالٌ، سببٌ لخلاف أهل العلم، هل يجوز عقد النكاح على المحرمة أم لا؟ مذهب أبي حنيفة أخذ بحديث ابن عباس، وجمهور أهل العلم أخذوا بحديث ميمونة، التي أخبرت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تزوجها وهي حلالٌ، وكذلك قول أبي رافع -رضي الله عنه-.
- بعد ذلك انتقل الحافظ ابن كثير إلى غزوة مؤتة، وهذه الغزوة مع أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يشهدها، إلا أنها لما كانت بأمره دخلت ضمن الغزوات النبوية، وكانت في السنة الثامنة من الهجرة أيضًا، بعثهم إلى مؤتة.
- مؤتة موقعها الآن تقريبًا جنوب الأردن، أو وسط الأردن الغربي تقريبًا، وهي في موضعٍ معروفٍ اليوم، حتى اسمها مازال موجودًا اليوم، تقع داخل المملكة الأردنية.
- سبب هذه الغزوة، أن هناك جمعٌ من المسلمين قُتلوا في تلك النواحي، فأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يثأر لقتلهم، فبعث الجيش وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، قال: **«فإن قُتل، فالأمير جعفر، فإن أُصيب، فعبد الله بن رواحة»**.
- انطلق الجيش في ثلاثة آلافٍ، ودَّعهم النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى بعض الطريق، وكان وداعه -عليه الصلاة والسلام- كما تذكر كتب السير الموسَّعة، كأنه وداع المودع إلى غير رجعةٍ، سبحان الله.
- فلما كانوا بمعان، وهي مدينةٌ معروفةٌ اليوم في الأردن أيضًا، بلغهم أن هرقل ملك الروم خرج إليهم في مائة ألفٍ، ومعه عددٌ من قبائل النصارى، النصارى العرب الذين كانوا في شمال الجزيرة، كقضاعة، وبعض بقايا بلي وغيرها من القبائل.
- فهناك المسلمون تشاوروا، هل يكتبون للنبي -صلى الله عليه وسلم- يطلبون مددًا؟ أم يقاتلونهم؟ بما معهم من العدد والعدة؟
- فقالوا: إنكم لم تخرجوا إلا دفاعًا عن دين الله، وطلبًا للشهادة، فاستقر رأيهم على أن لا يكتبوا شيئًا، فتقدَّموا، والتحم الجيشان، فقاتل زيدٌ -رضي الله عنه- وقُتل، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فتصف الرواية أن جعفر -رضي الله عنه- كان يمسك الراية بيمينه، فقطعتْ، ثم أخذها بيساره، فقطعتْ، ثم احتضنها -رضي الله تعالى عنه- حتى قُتل -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، وعمره ثلاث وثلاثون سنةً.
- ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة على الترتيب الذي ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم لما قتل هؤلاء الثلاثة، أخذ الراية خالد بن الوليد، وكان قد أسلم قريبًا، وكان كما وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم- سيفًا

من سيوف الله -جلَّ وعلَا-، وانحاز بالمسلمين، لما رأى أن الأمر الآن يقترب من استئصال المسلمين، وأنه لا طاقة للمسلمين الآن بالاستمرار في المعركة، بعد أن قُتل القواد الثلاثة؛ لأن هناك تأثرًا معنويًّا، أن يُقتل القواد الثلاثة، بهذه السرعة، أثر هذا المعنوي على المسلمين قويٌّ جدًّا، فقرر خالد بن الوليد أن ينحاز، ومن انحاز إلى فئةٍ، أو من انحاز وحيَّد المسلمين ليحقن بقية الدماء، فهذا لا يعتبر فارًّا، ولذلك الله -جلَّ وعلَا- قال: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾[٦] وخالد -رضي الله عنه- تحيّز، بل حقن ما بقي من دماء المسلمين، فسمَّى النبي -صلى الله عليه وسلم- تحيُّزه هذا فتحًا، قام -عليه الصلاة والسلام- كما في البخاري، ينعي قواد معركة مؤتة، قال: «فأخذ الراية رجلٌ فتح الله على يديه» ، مع أنه ما حصل قتالٌ، لكنه لما نجا ببقية المسلمين، سمَّى النبي -صلى الله عليه وسلم- تحييده هذا فتحًا، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- ينعيهم، والدموع تذرف على خديه الشريفين -صلوات ربي وسلامه عليه-.

- وهكذا كان يعيش -عليه الصلاة والسلام- آلام المسلمين، وكان يعيش مصائبهم، وكان ينعيهم. والنعي هنا المقصود به: الإخبار بالموت، دون أن يصحبه لطمٌ، أو شقُّ جيبٍ، أو تأوهاتٌ كتأوهات الجاهلية، لم يقل: واجعفراه، واعبد الله بن رواحاه مثلًا، أو وازيداه، كلا، لم يكن -عليه الصلاة والسلام- يفعل شيئًا من ذلك.
- يقول ابن كثير -رحمه الله-: فأخذ الراية خالد بن الوليد، فانحاز بالمسلمين، وتلطَّف حتى خلص المسلمون من العدو، ففتح الله على يديه، كما أخبر بذلك كله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أصحابه الذين بالمدينة يومئذٍ، وهو قائمٌ على المنبر، فنعى إليهم الأمراء واحدًا واحدًا، وعيناه تذرفان -صلى الله عليه وسلم-.
- يقول: وجاء الليل، فكفَّ الكفار عن القتال، ومع كثرة هذا العدو، وقلة عدد المسلمين بالنسبة إليهم، لم يقتل من المسلمين خلقٌ كثيرٌ، على ما ذكره أهل السير، فإنهم لم يذكروا إلى نحو العشرة، وهذه أيضًا من كرامات الله -جلَّ وعلَا-، وأنت لو قسمت هذا العدد، لو صحت الرواية به، أما المسلمين عددهم ثلاثة آلافٍ، لكن الروايات تقول بعضهم يقول مائة ألفٍ، أو ستين ألفًا، لو فرضنا ستين ألفًا على ثلاثة آلافٍ، معناه أن كل ستين رجلًا من الكفار يقابل رجلين، كل ثلاثين رجلًا يقابلهم رجلٌ، ولاشك أن هذه قوة في المسلمين، ولاشك أن هذا يؤيد شاهدًا من شواهد قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٧].
- قال -رحمه الله-: وكرَّ المسلمون راجعين، ووقى الله شرَّ الكفرة، وله الحمد والمنة.
- إلا أن هذه الغزوة كانت إرهاصًا، لما بعدها من غزو الروم، وإرهابًا لأعداء الله ورسوله، يشير إلى غزوة تبوك، التي سيأتي ذكرها في السنة التاسعة من الهجرة، في شهر رجب -إن شاء الله تعالى-، وهذا ما سنذكره -إن شاء الله- في الدرس القادم.
- هنا إلى شهر جمادى الآخرة، من سنة ثمانٍ تقريبًا، هذه أبرز الأحداث التي مرت في السنوات الماضية، في السنة الخامسة كما تقدَّم معنا، من غزوة الخندق، إلى هذا الموضع، غزوة الخندق مرَّت معنا، من الغزوات الكبرى والشهيرة، مرَّ معنا الإشارة أيضًا إلى عمرة القضاء، وقبلها أيضًا الكلام على غزوة الحديبية، وما وقع

---

(٦) سورة الأنفال: آية 16.

(٧) سورة البقرة: آية 249.

فيها من أحداثٍ، ثم غزوة خيبر، في السنة السابعة، في أول السنة السابعة من شهر محرم، وجاء الكلام على عمرة القضاء، ثم على بعث مؤتة، ومقتل الصحابة الكرام -رضي الله عنهم-.

- بعد هذا تبدأ صفحةٌ جديدةٌ، ونقطة تحولٍ كبرى في أحداث السيرة العظيمة، وهي غزوة فتح مكة، وهذه الغزوة لها شأنٌ طويلٌ، وكبيرٌ، -إن شاء الله تعالى- سيكون حديثنا عنها مفتتح الدرس القادم -بإذن الله تعالى-.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- وقف الحديث بنا عند فتح مكة، وما أدراك ما فتح مكة، هذا الفتح الذي أنزل الله -عزَّ وجلَّ- فيه سورةً، سميت باسم سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: 1]، فرُبط النصر بالفتح، والفتح بالنصر، ثم جعل الله -عزَّ وجلَّ- هذا الفتح علامةً فارقةً في تاريخ السيرة النبوية، وفي حياته -عليه الصلاة والسلام-. وقد أخذ العلماء هذا من أمر الله -عزَّ وجلَّ- لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بالاستغفار، فإنه لم يبق بعد هذا الفتح -صلوات ربي وسلامه عليه- إلا سنتان ونصف فقط، ولهذا أُمر بالاستغفار؛ لأن الإنسان عادةً مأمورٌ في أواخر عباداته، وفي أواخر حياته أن يُكثر من الاستغفار، في الصلاة نستغفر، إذا انتهينا من الحج ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 199]، هذا في يوم العيد، فهذه الإشارة في الآية، أو في السورة الكريمة، في قوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: 3] إشارةٌ إلى قرب أجله، كما فهم ذلك الحبر ابن عباس -رضي الله عنهما-، في حضرة أمير المؤمنين عمر، وسدده على هذا.
- هذا الفتح خلاصته: أنه في صلح الحديبية، دخلت خزاعة، وهي قبيلةٌ عربيةٌ معروفةٌ في حلفٍ مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، والأعراف العسكرية، والأعراف العربية في ذلك الوقت، أن من دخل في حلفٍ مع قومٍ، أن الاعتداء على هذا هو اعتداءٌ على من تحالف معه، وهذا ما يُسمَّى عند العرب على سبيل الأفراد بالجوار، فإذا دخل فلانٌ في جوار فلانٍ، خلاص فذمته ذمة هذا، فماذا حصل؟
- جاءت بنو بكر، ودخلت في عقدٍ مع قريش، أيضًا تحالفوا، فمن اعتدى على بني بكر، فكأنما اعتدى على قريش، فماذا حصل؟ لما ضُربت المدة، تذكرون في صلح الحديبية أشرنا إلى أنه وقع الصلح، والصلح وقِّع على أنه عشر سنواتٍ، أمن الناس بعضهم على بعضٍ، وفي تلك المدة ذهب أبو سفيان إلى هرقل، فسأله تلك الأسئلة المعروفة، وقال: نحن في هدنةٍ، أو في مدةٍ لا ندري ما الله صانع بنا.
- المهم: لما مضى من المدة سنةٌ وتسعة أشهرٍ تقريبًا، غدى نوفل بن معاوية الديلي في من أطاعه من بني بكر بن عبد مناف، فبيتوا خزاعة، يعني جاءوا لهم في الليل غارّين، يريدون أن يقتلوهم في الليل على ماءٍ لهم، فاقتتلوا هناك، فبمجرد نقض بني بكر للعهد واعتدائهم على خزاعة، حلفاء النبي -عليه الصلاة والسلام-، يعتبر الصلح انتهى، ولذلك جاء أكابر خزاعة إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- ليخبروه بما وقع، يستصرخونه ويستنصرونه، ويقولون: بينا وبينك عهدٌ، واعتُدي على جماعتنا، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-:

«أبشروا» ووعدهم بالخير، وبشَّرهم بالنصر، وأنذرهم، أن أبا سفيان سيقدم عليهم مؤكدًا العقد، وقال: انتبهوا، سيأتي إليكم أبو سفيان من مكة يا خزاعة، ويقول لكم: ترى اعتبروا هذه غلطةٌ يسيرةٌ، ومشُّوها، ولا تقفوا عندها، فانتبهوا أن تقبلوا العهد، أو تجددوا العقد، هذا القتل أصبح نقضًا للعهد، لحكمةٍ يريدها الله -عزَّ وجلَّ-.

- وبالفعل، جاء أبو سفيان، فلم يصنع شيئًا، حتى إن قريشًا ندموا على ما كان منهم، فجاء أبو سفيان، وذهب أبو سفيان إلى المدينة، ودخل على أم حبيبة، كما في القصة المشهورة، فعزلت أم حبيبة -رضي الله عنها- الفراش، كما في القصة المشهورة وقالت: أنت مشركٌ، ولا تطأنَّ فراش رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم ذهب إلى أبي بكر، إلى عمر، حاول يمينًا يسارًا أن يبحث عن واسطةٍ إلى عليٍّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-، فلم يُفلح، حتى إن عليًّا -رضي الله عنه- وهو الداهية مع شبابه، وسنه الصغير نسبيًّا، أشار عليه عليٌّ -رضي الله عنه- أن يقوم هو فيجير بين الناس، ففعل، ورجع إلى مكة، فأعلمهم بما كان منه، فقالوا: والله ما زاد عليك عليٌّ أن لعب بك، يعني خدعه عليٌّ، قال: اذهب وأجر بين الناس، كيف تجير بين الناس والهدنة الآن منقوضةٌ، ونصف من كان في تلك المنطقة هم خصومك، وأعداؤك.
- فاستعد النبي -عليه الصلاة والسلام- في التجهيز لغزو مكة، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وبالفعل استعد بقرابة عشرة آلاف مقاتلًا، وخرج في اليوم العاشر من رمضان، من السنة الثامنة من الهجرة، ومعه المهاجرون، والأنصار، وعددٌ من قبائل العرب.
- لقيه عمه العباس، وهو متجهٌ إلى ذي الحليفة، وأسلم، ورجع معه النبي -عليه الصلاة والسلام-، وبعث بثقله إلى المدينة، يعني العباس رافق النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى مكة، ولكن الثقل الذي هم الأولاد والصبيان والصغار والنساء رجعوا إلى المدينة؛ لأنها هي مدينة النبي -عليه الصلاة والسلام-، وفيها الدولة هناك.
- في الطريق أيضًا في مكانٍ يقال له "نَيْقُ العِقَاب" وهو موضعٌ قريبٌ من الجُحفة، جاءه ابن عمه، وأخوه من الرضاعة، أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية؟ أم سلمة، فأراد أن يسلما، أو يعلنا التوبة، أو كذا، فطردهما النبي -صلى الله عليه وسلم- لشدة عداوتهما، فشفعت فيهم أم سلمة -رضي الله عنها-، فقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- وأسلما وحسن إسلامهما -رضي الله عنهما وأرضاهما-، حتى إن أبا سفيان هذا هو الذي أمسك بخطام البغلة في حنين، التي ستأتي في شهر شوالٍ، بعد فتح مكة.
- فصام النبي -عليه الصلاة والسلام- في الطريق، حتى بلغ ماءً يُقال له الكُديد، فأفطر في قصةٍ معروفةٍ.
- أما قريش، فقد استجاب الله -عزَّ وجلَّ- دعاء نبيه -صلى الله عليه وسلم- بما قال: **«اللَّهمَّ عَمِّ عنها أخبارنا»**، ولم يقع في ذلك الوقت خبرٌ إلا ما فعله حاطبٌ بن أبي بلتعة -رضي الله عنه-، وقد كان من أهل بدرٍ، فماذا فعل؟ كتب كتابًا إلى أهل مكة، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء إليكم، ولم يفعله ردَّةً، ولم يفعله خيانةً لله ولرسوله، لكن أدركته شفقةٌ على أهله الموجودين في مكة، والذين لم يكونوا من قريش، فخشي إن دخلت جيوش المسلمين، أن يُستأصلوا، ولا يجدون أحدًا يؤويهم، ولذلك يقول: كنت امرؤًا في قريش، مُلصقًا فيهم ولست منهم، يعني هو عربيٌّ، لكنه ليس من قريش، القرشي في مكة، إن كان من عديٍّ ذهب إلى بني عديٍّ، وإن كان من بني أمية ذهب إلى بني أمية، وإن كان من بني هاشم، كل واحدٍ يذهب إلى جماعته على طريقة العرب.

- فلما علم النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا بإخبار الله -عزَّ وجلَّ- له، أرسل إلى المرأة التي كان معها هذا الخطاب، ومعه عليٌّ، والزبير، فأحضر الخطاب، فاستدعى حاطبًا، وقال: **«ما حملك على ما فعلت؟»** فذكر له السبب.
- أراد عمر بن الخطاب أن يقتله، فقال: **«لا، إنه من أهل بدرٍ، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم فقط غفرت لكم».**
- إذن، حاطبٌ أخطأ، وكان خطؤه يستحق القتل، لأنه نوعٌ من الخيانة، ولكنه لم يفعل ذلك بهذا القصد، فعفا عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- لسابقته بالإسلام، ومن كان من أهل بدرٍ، لا يمكن أن يكون في قلبه نفاقٌ أبدًا.
- المهم عُمِّيت الأخبار، وركب العباس بغلة النبي -عليه الصلاة والسلام-، في مقدمهم، وكانت خزاعة لما اقترب النبي -عليه الصلاة والسلام- كان هناك جماعةٌ من قبيلة خزاعة، أضرموا النيران بشكلٍ كبيرٍ جدًّا، حتى قال أبو سفيان: يقول -رحمه الله- نقرأ النص هنا، يقول: وأما قريش فعمَّى الله عليها الخبر، إلا أنهم قد خافوا وتوهَّموا من ذلك، فلما كانت تلك الليلة، ليلة الفتح يعني، خرج أبو سفيان، وبديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام، لازالوا على الكفر، يتجسسون الخبر، فلما رأوا النيران التي حول مكة، استنكروها، قال بديل: لعل هذه نار خزاعة، يعني القبيلة، قال: خزاعة أقل من ذلك، يعني الأمر مهولٌ، يعني هناك جيشٌ جرارٌ يأتي الآن يغزونا.
- وركب العباس -رضي الله عنه- ليلة إذ وخرج، انظر إلى مبادرته -رضي الله عنه-، وهذه حسنةٌ من حسناته، لعله يلقى أحدًا من أكابرهم، وبالفعل لقي أبا سفيان، وقال: ما وراءك يا أبا سفيان؟ ويحك! هذا رسول الله قادمٌ، واصباح قريش، العباس عنده شفقةٌ على قومه، أن يستأصلوا على الكفر، بعدما ذاق لذة الإسلام، وبالمناسبة هو الذي روى حديث: **«ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- نبيًّا»** ، فقال: ما الحيلة؟ قال: والله لئن ظفر بك رسول الله ليقتلنك، ولكن اركب خلفي على الناقة على الدابة وأنا أذهب بك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لتُعلن إسلامك.
- فصار في - انقطاع في الصوت - إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: **«ائتني به غدًا صباحًا»** ، فلما أصبح عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه الإسلام، تلكأ قليلًا، مازال فيه شيءٌ من أنفة الجاهلية، وأنفة العرب، الرجل سنُّه كبيرةٌ جدًّا في ذلك اليوم، ثم زلَّ لسانه -رضي الله عنه- وأسلم، وأعلن الشهادة، فالعباس كان ذكيًا وعاقلًا، يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الشرف، يعني أعطه كلمةً تشجعه قليلًا، فقال: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ»** ، انبسط أبو سفيان، مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **«من دخل داره فهو آمنٌ»** ، لكن هذا من إنزال الناس منازلهم، أبو سفيان كان رقم واحدٍ في قريش في ذلك اليوم، فأعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم- شيئًا من الدفعة المعنوية؛ لتدفعه، ولتثبته، وليكون مؤثرًا في من تحته.
- المقصود: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- سار إلى مكة، وجعل الجيش مقدمةً وميمنةً وميسرةً وقلبًا، كان على المقدمة أبو عبيدة، وعلى الميمنة خالد بن الوليد، والزبير بن العوام على الميسرة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في القلب، في تقسيمٍ يطول.

- المقصود: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- دخل مكة على ناقته، -صلى الله عليه وسلم-، وعلى رأسه المِغفر، معناه أنه لم يكن يريد أن يعتمر، والمِغفر هو الذي يتقي به المقاتل ضرب السيوف والسهام، وكان يقول -رحمه الله-: ورأسه يكاد يمس مقدمة الرحل، تعرفون الذي يركب على البعير، يكون أمامه مثل شداد هذا، بحيث يتمسك به، لا يسقط، يقول: وكان مطرقًا برأسه هكذا، تواضعًا لله -عزَّ وجلَّ-، هكذا يتواضع العظماء إذا جاء نصر الله، وهكذا يتواضع العظماء عند تجدد نعم الله -تبارك وتعالى-، وقد أَمَّنَ النبي -صلى الله عليه وسلم- الناس جميعًا، إلا مجموعةً اشتد أذاهم لله ولرسوله، فأهدر دماءهم، وقال: «اقتلوهم، ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة».
- فنجا من هؤلاء عكرمة بن أبي جهل، هرب إلى جهة اليمن، فأدركته زوجته بعد، فجاءت به، وأجارته، وعرض عليه الإسلام، فأسلم -رضي الله عنه-، وحفظ النبي -صلى الله عليه وسلم- له الجانب المعنوي، وقال: «لا تؤذوه في أبيه» ، يعني هو ابن أبي جهل الكافر المعروف، وقال: «إن سب الميت يؤذي الحي» ، انظر عظمة الخُلق النبوي -عليه الصلاة والسلام-، حتى هؤلاء مع أنهم كفارٌ، لا يريد أن يؤذيهم؛ لأن أذاهم يؤذي الأحياء؛ لأن علاقة النسب موجودةٌ، والآصرة هذه الفطرية موجودةٌ.
- فسلم منهم -كما قلت- سلم من هؤلاء الذين أُهدرت دماؤهم عكرمة، ثم صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- شكرًا لله ثماني ركعاتٍ، وهذه الثمانية اختلف العلماء، هل هي صلاة الفتح، أم هي صلاة الضحى، وقد صلاها سعد بن أبي وقاص، حينما فتح فارس، وصلاها بعض الفاتحين، ومنهم من يُذكر محمد الفاتح، لما فتح القسطنطينية، يُقال أنه صلى ثمانية، العمدة عندنا هنا على فعل الصحابة -رضي الله عنهم-.
- أيًّا ما كان، سواءٌ سميت صلاة الأمر فيه محل اجتهادٍ، لكنه -صلى الله عليه وسلم- صلاها بأربع تسليماتٍ شكرًا لله -عزَّ وجلَّ-، والله تعالى يقول: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: 13]، وقال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51]، ورأس الأعمال هي الصلاة، فمن أراد أن ينظر إلى هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وترجمته العملية للشكر، فلينظر إلى مثل هذا الموقف.
- ثم بقي النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا بالمفتاح، وقال لكفار قريش الموقف المشهور: «ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟» ، قالوا: أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ، فعلها تأسِّيًا بأخيه يوسف -عليه الصلاة والسلام-، الذي أمره الله أن يقتدي به ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: 90]، وهو الذي قال لإخوته بعدما فعلوا به ما فعلوا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: 92]، وقد جاء في بعض الطرق هنا في كتب السير وغيرها: لا أقوم لكم إلا كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92].
- وأنا أقول هنا بالمناسبة لإخواني وأخواتي: ألا ما أحوجنا في مثل هذا الموقف أن نتأسى بسيدنا ورسولنا -صلى الله عليه وسلم-، يقع بين بعض الناس وللأسف الشديد مواقف والله لا تساوي عُشر معشار ما وقع للنبي -عليه الصلاة والسلام- من الأذى الحسي والمعنوي، ومع ذلك يأبون إلا أن تكون الدنيا حاجزةً بينهم وبين إخوانهم، قد يهجر الإنسان أخاه، أو يهجر الأب ابنه، أو الابن أباه -والعياذ بالله- على لعاعةٍ من الدنيا، لا تساوي شيئًا، فأقول لكل من كبرت بينهم الدنيا، ووجدت بينهم الحواجز، وأبغض الإنسان أخاه، أو الأخت أختها لأجل دنيا، هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تأسوا به، وقولوا بلسان الحال والمقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ

﴿عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «لا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ، يلتقيان، فيُعرض هذا، ويُعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

- لو لم يكن من فتح مكة من درسٍ وعبرةٍ في حياتنا اليومية، إلا هذا الدرس لكفى، وإني والله وكل مسلمٍ يحزن ويتقطع قلبه ألمًا حينما يسمع بأسرةٍ تصدَّع بنيانها، أو بآصرة الأخوة، تصرَّمت وتقطَّعت بسبب دنيا فانيةٍ، وعلى شيءٍ يمكن التصالح والتفاهم عليه، والله المستعان.
- قال -رحمه الله-: وكان الفتح لعشرٍ بقين من رمضان، لاحظوا العشر الأولى انطلق فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى المدينة، ثم الفتح تم بعد عشرة أيامٍ، فبقي -عليه الصلاة والسلام- العشر الأواخر كلها يصلي ركعتين، وأفطر تلك الأيام، كما ذكر الحافظ ابن كثير، وخطب يوم الفتح الخطبة العظيمة، التي بيَّن فيها حرمة مكة، وشرفها، في خطبةٍ معروفةٍ، ثم بعث السرايا حول مكة، من أجل أن يكسر شأفة من يحاول أن يشوِّش من قبائل العرب، التي مازال في بعضها بقايا من الدين الجاهلي.
- ومن جملة السرايا التي بعثها النبي -صلى الله عليه وسلم-: بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، وهي منطقةٌ قرابة ثمانين كيلو جنوب مكة، جهة يلملم، وهناك دعاهم خالد بن الوليد إلى الإسلام، فأرادوا أن يقولوا: أسلمنا، فما قالوا: أسلمنا، ماذا قالوا: صبأنا، والصبأ في اللغة العربية أصله الانتقال من دينٍ إلى دينٍ، فما أحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقتلهم خالد، فلما رجع خالد إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «ماذا صنعتَ؟»، قال: قالوا كذا وكذا، فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد» ، هو لم يقل: أبرأ إليك من خالد؛ لأن البراءة هنا وقعت من الفعل، أما الفاعل فكان مجتهدًا، ولما كان مجتهدًا دفع النبي -صلى الله عليه وسلم- ديات هؤلاء، الذين قُتلوا بسبب خطأٍ من أحد القادة الذين بعثهم -عليه الصلاة والسلام-.
- ثم بعثهم إلى العُزى اليمانية، أيضًا في جنوب مكة، ودمَّرها -رضي الله عنه- تدميرًا، وهي التي كانت أيضًا مما يئس أن تُعبد في جزيرة العرب.
- ثم ، ذكر إسلام عكرمة بن أبي جهل، لما قلنا: اتجه إلى ساحل اليمن، وكذلك أيضًا صفوان بن أمية، فر إلى اليمن، فتبعه عمير بن وهب بأمانٍ من النبي -عليه الصلاة والسلام-، ثم أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه.
- بعد فتح مكة، في شهر رمضان من سنة ثمانٍ، جاءت، انتبهوا الآن، عندنا ثلاث غزواتٍ، كأنها عقدٌ منظومٌ، في أقل من شهرين، لتدركوا بركات هذا الشهر العظيم على هذه الأُمَّة، شهر جهادٍ، شهر عزَّة، ما هو شهر نومٍ وكسلٍ، لا، فجاءت غزوة حنين.
- حنين لعل المخرج الكريم يُظهر لنا الصورة، حنين، وبعضهم يسميها أوطاس، عام أوطاسٍ، وبعضهم يسميه عام حنين، كلها قريبةٌ من جهة مكة، ولها سببٌ، لكن ننظر إلى الموضع الآن، هنا مكة شرَّفها الله في الزاوية اليمنى من الأسفل، وهنا حنين، ومازالت موجودةً إلى اليوم، وهنا في هذه الجهة وادي أوطاس، والمنطقة متقاربةٌ، ولذلك إذا قرأت في كتب السير، ستجد بعضهم يسميها غزوة حنين، وبعضها يسميها غزوة أوطاس، والمعنى واحدٌ، وكلها وقعت في شوال من السنة الثامنة، بعد فتح مكة بأيامٍ، ولذلك المؤرخون يقولون: إن الذين قاتلوا في حنين، هم الذين قاتلوا في فتح مكة، لكن زاد معهم آلفان من الطلقاء، الذين أطلق النبي -صلى الله عليه وسلم- سراحهم، أو أسلموا حديثًا، وهم الذين قالوا لما ذهبوا إلى غزوة حنين، لما وجدوا

الشجر مُعلَّق عليها أنواطٌ، قالوا: اجعل لنا ذات أنواطٍ، كما لهم ذات أنواطٍ، هؤلاء الذين قالوها هم الذين أسلموا قبل أيام، فمازال عند بعضهم بقايا من دين الجاهلية، بالتبرك وغير ذلك.

- فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «قلتم والذي نفسي بيده...» إلى آخر القصة المعروفة.
- استخلف النبي -صلى الله عليه وسلم- على مكة صحابيًّا صغير السن، لكنه عظيم القدر، اسمه عتَّاب بن أسيد، وأنا أقول لإخواني الشباب والفتيات، هذا الشاب اسمه عتَّاب بن أسيد، وأنا أقرأ هذا الخبر، كنت أتساءل وأقول: يا ترى ما الصفات التي وُجدت في هذا الشاب في صغر سنه، ليستخلفه النبي -صلى الله عليه وسلم- على أخطر مدينةٍ في الدنيا، وهي مدينة مكة، التي حُرِّرت قبل قليلٍ من المشركين، يعني يتوقع أن يوضع فيها قائدٌ كبيرٌ، أليس كذلك؟ لكنه استخلف هذا الرجل، وقطعًا هو لم يُستخلف إلا لأنه كفءٌ، فأنا أتساءل أيها الشباب، فتِّشوا في سيرة عتَّاب.
- والسؤال: لو كنت أنت في ذلك الوقت، وعمرك عشرون، تتوقع يستخلفك النبي -عليه الصلاة والسلام- أم لا؟ انظر في صفاتك الآن، هل هي صفات قيادةٍ؟ صفات قوةٍ في الإدارة؟ هل عندك من القوة الدينية والإيمانية والإدارية وغير ذلك من المهارات والقوى المعنوية ما تجعلك أهلًا لأن تقود؟ أو تكون بهذه المكانة؟ والله إنني واثقٌ، أن هذا السن لا تستحيل معه هذه الصفات القوية، لكن المشكلة أن كثيرًا من الشباب والفتيات هُمِّشوا، وأصبحوا -كما يُقال- على هامش الحياة، أصبح غاية مراد هذا الشاب في هذه السن -إلا من شاء الله- ما نوع الجوال الذي يمتلكه، ما نوع السيارة التي يمتلكها، ما هي الوظيفة التي يمتلكها، كم الراتب، إلى آخره، قضايا دنيويةٌ، أنا لا أقول لا تهتم، هذه الأشياء فطريةٌ، والاهتمام بها عادي، لكن أن تطغى لتصبح هي الأصل، فهنا تكون الكارثة.
- فكِّر يا أخي، اجعل لك موضع قدمٍ في هذا الدين، بصمةٌ تُبقيها في حياتك، لعل الله -عزَّ وجلَّ- ينفع بك، ويهدي بك.
- المهم: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- نهض، فوافى حنينًا، وهذا يقول ابن كثير: وادٍ حدورٌ من أودية تهامة، وقد كمنت له فيه هوازن، هذا سبب الغزوة، هوازن بقوا هناك كما تلاحظون في الخريطة، لاحظوا الآن الوادي هنا، الذي لونه أصفر تقريبًا، وبرتقالي مخططٌ يسيرٌ، هذه الجهة لو مرينا السهم من هذه الجهة، لاتجهنا إلى الطائف، فهذه مناطق هذه القبائل هوازن. هوازن الآن لما شعرت، وجاءتها الأخبار النبي -صلى الله عليه وسلم- قدم إلى مكة أرادوا أن يكمنوا له؛ لأن عادة هؤلاء المتربصين، ينتظرون ضعف هذا الجيش؛ ليستغلوا هذه الثغرات الموجودة، الضعف والتعب لأجل أن يقبوا، ولكن حصل عكس ما يقصدون، لكن انتبهوا، أول ما دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- وادي حنين، أُعجب بعض الناس، وخصوصًا الطلقاء بكثرة هذا الجيش، فماذا قالوا: لن نُغلب اليوم من قلَّةٍ، فلما بدأت الغزوة، وكانت هوازن قد جمعت معها بعض أوباش العرب، فكاد المسلمون أن ينكسروا في أول الغزوة، وهذه من حكمة الله، وهذه ظاهرة في الآية: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: 25] لماذا؟ لأن هؤلاء وقع منهم التفاتٌ إلى سببٍ من أسباب النصر، وليس هو السبب الحقيقي، فأراد الله أن يؤدبهم، ويقول لهم: انتبهوا! ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 126]، ذاك جيشٌ أطهر ما مشى على الأرض، قائده محمدٌ -عليه الصلاة والسلام-.

والقادة الذين معه هم خير الأجناد، ولكن أراد الله -عزَّ وجلَّ- أن يؤدب هؤلاء؛ لأجل أن لا يعتمدوا على شيءٍ إلا على الله -عزَّ وجلَّ-، مع فعل الأسباب الممكنة.

- فثبت النبي -عليه الصلاة والسلام-، وثبت أكابر الصحابة، وكاد بعضهم أن يفر فنادى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم أمر العباس؛ لكون صوته قويًّا وجهوريًّا، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب كذا، يا أصحاب كذا، قال: فانعطفوا عطفة البقر على أولادها، فرجعوا، ثم كانت والحمد لله الغلبة لأهل الإيمان، وفيها ركب النبي -صلى الله عليه وسلم- بغلته التي أهداها إليه صاحب دومة، وهو يقول: **«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»**، -صلى الله عليه وسلم-.
- وهنا أيضًا حصل من هوازن، أنهم قُتلوا، وأُسر منهم من أُسر، وقُتل منهم من قُتل، ولم يأت آخر الغزوة، إلا وقد أحضر الصحابة -رضي الله عنهم- الأسارى بين يديه -صلوات الله وسلامه عليه-، وقد ألقى الله -عزَّ وجلَّ- الرعب، والخوف في قلوب هوازن، فرجعوا فلم يملكوا أنفسهم، ورماهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بقبضةٍ كانت معه، من حصباء، فلم يبقَ منهم أحدٌ إلا نالها، وبهذا حصل النصر لأهل الإسلام، وانحازت انتهوا، هنا لما تكلمنا قبل قليلٍ، وقلنا: إن بعضهم يسميها غزوة أوطاس، انحازت، يقول ابن كثير: طوائف من هوازن إلى أوطاسٍ، فبعث النبي -عليه الصلاة والسلام- إليهم أبا عامر الأشعري، واسمه عبيد، وهو عم أبي موسى الأشعري، وهو الذي قُتل واستغفر له النبي -صلى الله عليه وسلم-، أمَّا المشركون، يقول الحافظ -رحمه الله-: قُتل منهم خلقٌ كثيرٌ، أما الصحابة فلم يُقتل منهم في حنين إلا أربعةٌ.
- ثم بعد هذا جاءت غزوة الطائف، وهي أيضًا في شوالٍ، في نفس السنة، وسببها أن ملك هوازن، مالك بن عوف النصري، وهو أحد الزعماء الذين ثوَّروا الحرب في حنين، لما انهزم جيشه، دخل مع ثقيفٍ في حصن الطائف، ورجع النبي -عليه الصلاة والسلام- من حنين، فلم يدخل مكة، بل ذهب إلى الطائف، وحاصر ثقيفًا هناك، قيل: بضع وعشرين ليلةً، وقيل: بضع عشرة ليلةً، والصحيح أنهم بقوا أربعين ليلةً كما ثبت في الصحيحين من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-.
- وقد خرَّب النبي -صلى الله عليه وسلم- كثيرًا من أموالهم الظاهرة، وقطع أعنابهم وزروعهم، ولم ينل منهم كبير شيءٍ، فرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- فأتى الجعرانة، يعني القصة جاءت تفاصيلها في السنة بشكلٍ أكثر، يعني لما حاصر النبي -صلى الله عليه وسلم- لاحظوا، قال: **«إنكم ملاقوا عدوكم»**، وضربهم بالمنجنيق، يعني مما استُخدم في تلك الغزوة، مما لم يُستخدم من قبل المنجنيق، لكن رجع النبي -عليه الصلاة والسلام-، وأتى الجعرانة، وهناك أتاه وفدٌ من هوازن، لما شعروا بالكسر والهزيمة، فأسلموا قبل أن تُقسم الغنائم، فخيَّرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بين ذراريهم وأموالهم، فاختاروا الذرية، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«أما ما كان لي ولبني المطلب فهو لكم»**، وتتابع المهاجرون والأنصار، وقالوا: ما كان لنا، فهو لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-.
- ثم قسم النبي -صلى الله عليه وسلم- بقية الغنائم على المسلمين، وتألف جماعةً من سادات قريش، فصار يعطي هذا مائةً، وهذا خمسين من الإبل، وأعطى كما في صحيح مسلم من حديث الزهري، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطى صفوان بن أمية ثلاثمائةً من الإبل.

- هنا في هذه الغزوة، عتب بعض الأنصار على النبي -صلى الله عليه وسلم-، كيف إذا جاءت الحرب نُدعى، وإذا جاءت الغنائم أُعطي هؤلاء الكفار، أو الذين أسلموا حديثًا الغنائم، وتُركنا؟
- فناداهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: **« مقالةٌ بلغتني عنكم يا معشر الأنصار»** ، سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم عاتبون، وهذا من صراحتهم، يعني يقولون: نحن نتوق، ولنا حقٌّ في الغنيمة، أين حقنا؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم متفرقين فجمعكم الله بي؟»**، قالوا: بلى يا رسول الله، بلى يا رسول الله، ثم قال: **«أما والله»**، انظر رد النبي -صلى الله عليه وسلم- معنوياتهم، وأعطاهم من الدفعات المعنوية ما يساوي الدنيا كلها، قال: **«أما ترضون يا معشر الأنصار، أن يرجع الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى رحالكم؟»** فوضعوا رءوسهم، ولهم خنينٌ، بكاءٌ، ثم قال: **«يا معشر الأنصار، أما والله لو قلتم لصدقتم: ألم تكن طريدًا فآويناك؟ ألم تكن غريبًا فنصرناك»** أو كلمةً نحوها، وفي كل مرةٍ يقول الأنصار: الله ورسوله أَمَنْ، الله ورسوله أَمَنْ، فكأنما أعطاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- غنائم الدنيا كلها، وليس غنيمة حنين.
- وهذا يحتاج إلى درسٍ آخر، أو وقفاتٍ طويلةً، لكن هذه إشارةٌ عابرةٌ، إلى حرصه -عليه الصلاة والسلام- على علاج ما يقع في القلوب من عتبٍ، وأن لا يهمل المربي سواءً كان أبًا أو مشرفًا على مجموعةٍ من الشباب، ما يقع في النفوس من هذه الثغرات؛ لأنها لو بقيت لاتسعت، بل يبادر مباشرةً إلى ردمها، وإلى علاجها، حتى لا تكبر ويدخل منها الشيطان، فما أفسد، والله أقولها من واقعٍ ومعرفةٍ بالتأمل، ما أفسد قلوب كثيرٍ من الدعاة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، ولا المشتغلين بالتربية، إلا إغفال إصلاح القلوب مباشرةً، فتجد بعض الناس يبقى في نفسه على أخيه شيءٌ ويتركه، ثم يأتي موقفٌ ويتركه، حتى تكبر، ثم يتركهم وينصرف، طيب يا أخي إذا وقع في نفسك شيءٌ، أو أنت وقع في نفسك شيءٌ على أختك، اذهبي إليها، وقولي أو قل أنت أيها الرجل: والله يا أخي الموقف الفلاني حصل منك كذا وكذا وكذا، وأنا عاتبٌ، قد يبيّن لك من الملابسات ما يجعلك تعرف أنك أنت المخطئ وليس هو، أو قد يرضيك بكلمةٍ، أو قد يعتذر، وهنا يغضب الشيطان، أو يتعس الشيطان؛ لأنه لم يستطع أن ينجح في التفريق، ويرضى بذلك الرحمن.
- ثم تكلم على قسمة الغنائم، وأشار إلى قصة ذي الخويصة التميمي، الذي طعن في قسمة النبي -صلى الله عليه وسلم-، واعتمر يقول من الجعرانة، ودخل مكة، فلما قضى عمرته، ذهب إلى المدينة، وأقام على الناس يومئذٍ في الحج عتَّاب بن أسيد.
- ثم جاءت سنة تسعةٍ من الهجرة، في شهر رجب، جاءت غزوة تبوك، وهي التي سماها الله -عزَّ وجلَّ- غزوة العُسرة، سماها في سورة التوبة.
- وسبب القصة: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أعلم الصحابة والناس أن الروم سيزحفون، فتقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- مسافةً طويلةً جدًّا تتجاوز أربعمائة كيلو، لم ينتظر النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى يأتي الروم، ويتاخموا حدود بلاد المسلمين، بل تقدَّم إليهم، وهذا من الذكاء العسكري، لماذا؟ لأن التقدم يوصل رسالةً إلى العدو أني قوي، وأنني عندي جيوشٌ، وأنني أستطيع أن أغزوكم في دياركم.

- وبالفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- أعلم الناس، وهي الغزوة الوحيدة التي صرَّح للناس بأنه متَّجهٌ إلى تبوك، بعكس البقية الغزوات، كان إذا أراد غزوةً ورَّى بغيرها؛ نظرًا لطول الطريق، وشدة المؤنة، وهذا الجيش مما أكرم الله -عزَّ وجلَّ- به عثمان أن تكفَّل بتموينه، وقال: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم» ، هو الذي جهَّز جيش العُسرة، وأنفق فيه -رضي الله عنه- نفقةً عظيمةً.
- أشار إلى قصة البكائين، ثم لما بلغ تبوكًا مرَّ بطريقه بالحجر، وأمر الصحابة أن لا يدخلوا ديار الذين عُذِّبوا، وهم قوم صالح في العُلى، موجودةٌ مدائن صالح هذه، إلا أن تكونون باكين، معتبرين، لا تدخلوها وتتفرجوا، كما يفعل بعض السيَّاح اليوم، يقول: أروح أتفرج، على ماذا تتفرج؟ هذه بلادٌ عُذِّب أهلها، لا تدخلها إلا وأنت باكٍ، ما معنى باكٍ؟ ليس المعنى أن تبكي وتخرج دموعك، المقصود أن تدخل معتبرًا، تدخل ليس تتفرج وصور وكأن الأمر في زيارة حديقةٍ، أو في زيارة منطقةٍ بحريةٍ، لا، هذه منطقةٌ عُذِّب فيها قومٌ عصوا الله، وعصوا رسوله -عليه الصلاة والسلام-، وقتلوا ناقةً جعلها الله -عزَّ وجلَّ- علامةً.
- فالمقصود: حصر هناك من الآيات لكن لم يلق النبي -صلى الله عليه وسلم- عدو، سمِّيت غزوة؛ لأنه عزم فيها على القتال، وسميت أيضًا غزوةً لكون النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضًا شارك فيها، لكن المقصد الأكبر منها تحقق، وهو إرهاب العدو، وهذا أحد المقاصد الشرعية في إعداد الجيوش، وحصل في تلك القصة منها قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا، وتخلف ثمانون منافقًا، وأناس تخلفوا وهم معذورون، فالناس انقسموا إلى ثلاثةٍ، منهم معذورون، ومنهم غير معذورين، ومنهم عصاةٌ من المنافقين، ومنهم عصاةٌ من المسلمين تاب الله عليهم -عزَّ وجلَّ- بعد ذلك.
- وفي هذه القصة أيضًا، في رجوعه -عليه الصلاة والسلام- أمر بهدم مسجد الضرار، ثم أشار -رحمه الله- إلى قدوم وفد ثقيف، ثقيف هؤلاء أين كانوا؟ في الطائف، وكان قدومهم في شهر رمضان، في سنة تسعٍ من الهجرة، يعني بعد غزوة تبوك بشهرين، وفي هذه المدة، من شهر رمضان تقريبًا، وما بعده، إلى قرب وفاته -عليه الصلاة والسلام-، كثرت الوفود التي قدمت إلى المدينة لتعلن إسلامها؛ لأن أكثر الجزيرة العربية خضعت له -صلى الله عليه وسلم-، ودخلت في الإسلام، لكن بقيت بعض القبائل، فلما رأوا أن الإسلام قويت شوكته، وأن الدولة قويت، صارت القبائل تأتي لتبايع، والبيعة غالبًا تأتي من أقوامٍ، ليس بالضرورة أن تأتي كل القبيلة، يأتي سراتها، وقوادها.
- فأسلموا، الذين وفد ثقيفٍ، وكان سبب ذلك أن عروة بن مسعود -رضي الله عنه- جاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- حينما انصرف من حنين والطائف، وقبل وصوله إلى المدينة أسلم واستأذن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الرجوع إلى قومه، وبالفعل رجع، ودعاهم إلى الله -عزَّ وجلَّ-، ولم يستجيبوا له، فماذا فعلوا؟ رموه بالنَّبل وقتلوه، فندموا، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب النبي -عليه الصلاة والسلام-، فجاءوا إلى المدينة، وأسلموا، ودخلوا في دين الله تعالى، وأنزلهم في المسجد، وضرب لهم قبَّةً، كما ذكر الحافظ -رحمه الله تعالى-، وأسلموا، واشترطوا شروطًا بيَّنها هنا.
- في هذه السنة وهي السنة التاسعة من الهجرة، أمر النبي -عليه الصلاة والسلام- أبا بكرٍ أن يحج بالناس، قال -رحمه الله-: وبعث -صلى الله عليه وسلم- أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- أميرًا على الحج هذه السنة، السنة التاسعة، وأردف عليًّا، يعني لما ذهب أبو بكر، أمر عليًّا أن يلحقه، ومعه سورة براءة، والتي مفتتحها ﴿بَرَاءَةٌ

﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: 1، 2]، فأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعطيهم فرصةً، إما أن تسلموا، وإما بعد هذه المدة تنتهي المعاهدات، وتنتهي العقود.

- مما أُعلن في تلك الحجة، وهي السنة التاسعة، أنه لا يحج بعد العام مُشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريانٌ. أما لا يحج بعد العام مُشركٌ؛ لأن مكة أصبحت بلد إسلامٍ، ولذلك لم يهاجر أو لا تصح الهجرة بعد ذلك من مكة، أو لا تثبت لها صفة الهجرة؛ لأنها أصبحت بلد إسلامٍ، ولذلك قال -عليه الصلاة والسلام- في حديث ابن عباس في المتفق عليه: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ» ، لماذا؟ لأن الهجرة إنما تكون من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام.
- وأما لا يحج في البيت بعد العام عريانٌ، لأن من عادة قريش في الجاهلية أنهم إذا أرادوا الطواف بالكعبة، خلعوا ثيابهم، بزعمهم ماذا؟ أن هذه ثيابٌ عصوا الله فيها، فيريدون أن يلبسوا ثيابًا تعطيهم إياها قريش، فعجبٌ، هم الآن هذه الثياب كيف ما عصوا الله فيها، وهم يُشركون الليل والنهار؟ لكن هكذا الشرك، يُبنى على أمثال هذه الخرافات، يعني حتى الرجال والنساء، لكن في هذه المنطقة يعظِّمون الكعبة، وهم مشركون، فلا يُفكر أحدٌ أن يعتدي على امرأةٍ بالزنا، أو شيءٍ من هذا القبيل، حتى الرجال والنساء يطوفون عراةً، وفي ذلك تقول المرأة في الجاهلية:
- "اليوم يبدو بعضه أو كله" تشير إلى منطقة العورة.

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

- يعني إذا خرجت العورة ما أحل أحد يناظر، يعني تكشف، وتقول للناس لا ترون، وهذا شيءٌ مُضحكٌ.
- على كل حالٍ، نبذ النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى المشركين عهودهم، إلا من كان ذا عهدٍ مقدَّرٍ فعهده إلى مدته، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: 4].
- ثم بعد ذلك تواترت الوفود، وفي تلك السنة، بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- معاذًا إلى اليمن، وأبا موسى الأشعري، وكذلك بعث الرسل إلى أقطار الدنيا، وملوك الأرض، الذين كانوا قريبين، بعث إلى الروم، وبعث إلى مصر، وبعث إلى المقوقس حاكم مصر، وغيرها من الديار والجهات. فأسلم من أسلم، وعاهد منهم من عاهد، وكابر منهم من كابر.
- ثم انتقل -رحمه الله- إلى الكلام على حجة الوداع، وليس من شأننا هنا أن نستعرض حجة الوداع؛ لأن الجانب الفقهي فيها أكثر وأبرز، فتُطلب في مظنَّتها، لكن من الأشياء التي نشير إليها مما يتعلق بالسيرة النبوية هنا: أن المدينة جاءها عددٌ كبيرٌ جدًّا من القبائل التي حولها كلهم يريدوا أن يأتم برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويتأسى به، كما ذكر ذلك جابر -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-.
- خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم السبت ظهرًا، ثم صلى الظهر في المدينة أربعًا، وصلى في ذي الحليفة العصر ركعتين، وبقي فيها إلى الغد. ثم سار برعاية الله وعنايته حتى وصل إلى مكة، ثم أدى المناسك، وكان قارنًا -عليه الصلاة والسلام-، وكان معه الهدي، في قصةٍ معروفةٍ، وقدم عليٌّ -رضي الله عنه- ببقية البُدن من اليمن معه، والتقوا هناك في مكة، في قصةٍ معروفةٍ، ساقها المؤلف -رحمه الله- باختصارٍ شديدٍ.

- ولكن من المواضع أيضًا التي نشير إليها في هذا المقام: أنه -عليه الصلاة والسلام- خطب الناس في حجة الوداع، وكأنه يودِّعهم، ففي أول الحجة قال: «خذوا مناسككم، فإني لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا» ، وقد وقع كما قال -عليه الصلاة والسلام-، ثم في حجة الوداع، في يوم عرفة، وقال في يوم العيد أيضًا خطب يوم النحر، كما في حديث أبي بكرة في الصحيحين: «إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعةٌ حرمٌ، رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم» ، ثم قال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد، اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد، اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد.» ، يشير بأصبعه إلى الصحابة -رضي الله عنهم-، وهنا حقٌ على كل مؤمنٍ، أن يقول: اللهم إنا نُشهدك أن رسولك -صلى الله عليه وسلم- بلَّغ البلاغ المبين.
- وهنا ابن كثير -رحمه الله- علَّق بهذا التعليق، قال: فنحن نشهد أنه بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأُمَّة -صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين-.
- ثم لما انتهت الحجة، رجع -عليه الصلاة والسلام- راشدًا مؤيَّدًا إلى المدينة، وقد أكمل الله له دينه، كما في آية المائدة، وهي الآية التي قال فيها اليهودي: لو علينا معشر يهود نزلت الآية، لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا.
- ثم ختم المؤلف هذه السيرة العطرة، بفصلٍ في وفاته -صلى الله عليه وسلم-، قال: فأقام فيها، أي في المدينة بقية ذي الحجة، والمحرم، وصفر، ثم أول ربيعٍ، فابتدأ به وجعه -صلى الله عليه وسلم-، في بيت ميمونة يوم خميسٍ، وكان وجعًا في رأسه الكريم، وكان كثيرًا ما يُعاوده الصداع، ولذلك احتجم -عليه الصلاة والسلام- في حجة الوداع من صداعٍ كان يعاني منه -صلى الله عليه وسلم-.
- فجعل ينتقل في بيوت نسائه، واسمعوا أيها المعددون، كان ينتقل مع بداية المرض، مع أن القسْم لا يجب عليه، كما قال أكثر أهل العلم، فلما رأى أن التنقُّل يتعبه، استأذن من نسائه أن يُمَرَّضَ في بيت عائشة -رضي الله عنها-، فأذنَّ له، فَمُرِّضَ في بيتها، ومات بين سحرها ونحرها، ومات في حجرها -رضي الله عنها وأرضاها-.
- فيا أيها المعددون، يا من أوجب عليكم العدل في القسم، اتقوا الله تعالى في نسائكم، واعدلوا بينهن، فإن هذا أمرٌ أمركم الله به، وشرطٌ من شروط التعدد، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3]، هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يترك العدل في أقسى اللحظات التي مر بها، حينما هُزمت العافية في جسده الشريف -صلى الله عليه وسلم-، ومع ذلك، لم يترك العدل، بل استأذن زوجاته -رضي الله عنهن-.
- يقول: فمكث واجعًا اثني عشر يومًا، وقيل: أربعة عشر يومًا، وهذه كلها في بدايات ربيع، من ربيع الأول من سنة إحدى عشرة، قال: والصديق -رضي الله عنه- يصلي بالناس بنصه -صلى الله عليه وسلم- عليه، يعني هو الذي قال: «مروا أبا بكرٍ فليصلي بالناس».

- قال: فلما حصل الوجع، تربَّصوا لينظروا ما يكون من أمره -عليه الصلاة والسلام-، وقد صلى -صلى الله عليه وسلم- خلف الصديق جالسًا، بسبب المرض، وقُبض -عليه الصلاة والسلام- ضحى يوم الاثنين، من ربيع الأول، والمشهور أنه الثاني عشر منه، وبعضهم قال غير ذلك.
- المهم، مات -عليه الصلاة والسلام- وكان عمره على الصحيح في قول جماهير أهل العلم: ثلاث وستين سنةً، لما مات -عليه الصلاة والسلام- اشتدت الرزية بالصحابة -رضي الله عنهم-، وحُقَّ لهم ذلك، حتى إن عمر -رضي الله عنه- وهو عمر، في إيمانه، وقوة تصديقه، ويقينه، كان يقول: لا والله، ما مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بل ذهب إلى ربه كما ذهب موسى، وليرجعن فليقتلن وليقطعن رقاب المنافقين.
- قال أنس -رضي الله عنه- مُعبِّرًا عن هذه الرزية التي أصابتهم بموته -صلى الله عليه وسلم-، وحُقَّ لهم ذلك: قدِم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، فأضاء منها كل شيءٍ، فلما مات أظلم منها كل شيءٍ.
- والإنسان وهو يتذكر مصيبة موته -صلى الله عليه وسلم-، يحتسبها، فوالله إنها من أعظم المصائب، إذا ابتُلي الإنسان بمصيبة موت قريبٍ أبٍ، أمٍّ، أخٍ، أختٍ، ابنٍ، إلى آخره، فليتذكر مُصابه بحبيبنا وسيدنا محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، فما رُزيت الأُمَّة بمصيبة أعظم من وفاته -عليه الصلاة والسلام-.
- أبو بكر -رضي الله عنه- كان في مزرعته بالسنح، وهي مزرعةٌ قريبةٌ من المدينة جهة العوالي، كان إذا خف النبي -صلى الله عليه وسلم- وشعر بشيءٍ من العافية تسري في جسده، ذهب، فلما قُبض النبي -عليه الصلاة والسلام- طلبه الطالب، وجاء بسرعةٍ -رضي الله عنه وأرضاه-، فلما جاء وإذا هو مسجًّى، بأبي هو وأمي -صلى الله عليه وسلم-، وقد غُطِّيَ وجهه، فكشفه، فأيقن حينئذٍ أنه قد مات، فقبَّله وقال: أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها، ووالله لا يجمع الله عليك موتتين.
- ثم دخل إلى المسجد، فرأى عمر قائمًا على المنبر، يقول مقولته التي ذكرناها قبل قليلٍ، فقال: اجلس يا عمر، ثم صعد أبو بكر -رضي الله عنه-، وقال: أيها الناس، من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، عمر -رضي الله عنه- لما سمع الآية، قال: والله ما كأنها أُنزلت إلا ذلك الوقت؛ لأن الإنسان إذا جاءته المصيبة العظيمة، يطيش عنده التفكير، تذهب عنه الأدلة، فكيف إذا كانت المصيبة فقْد محمدٍ -عليه الصلاة والسلام-؟ الذي امتلأت أعينهم من رؤيته، امتلأت قلوبهم من محبته -عليه الصلاة والسلام-.
- ثم لما قُبض -صلى الله عليه وسلم-، اختلفوا أين يُدفن، فأخبر أبو بكر أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إن الأنبياء يُدفنون حيث ماتوا» ، فلما مات -عليه الصلاة والسلام- وقُبض في حجرة أمنا عائشة -رضي الله عنها- دُفن فيها، واختلفوا، هل يُغسَّل، يعني يُجرَّد من ثيابه أو لا يُجرَّد، فتقول كتب الرواية والسير: أنه أُلقي النُّعاس عليهم، وسمعوا مناديًا ينادي: أن اغسلوا رسول الله في أثيابه، طاهرٌ مطهَّرٌ -عليه الصلاة والسلام-، حتى عرقه مسكٌ، بأبي هو وأمي وما أملك -عليه الصلاة والسلام-، فغسَّلوه في ثيابه، ثم دخلوا عليه أفرادًا وأفذاذًا، ابتدأ الكبار، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم صُلِّيَ عليه -صلى الله عليه وسلم- في يوم الثلاثاء، وقيل يوم الأربعاء، في الموضع الذي توفي فيه -صلى الله عليه وسلم-.

- أيها الإخوة والأخوات، هاهنا تتلعثم الكلمات في الفم، وتنقطع الأفكار حينما يتحدث الإنسان عن هذا الموقف العظيم، موقف وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن في الوقت نفسه، يقول الإنسان مذكِّرًا نفسه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]، فيا من تحبون محمدًا -عليه الصلاة والسلام-، وتعظمون سيرته، مات بشخصه -عليه الصلاة والسلام-، وبقي دينه، وبقيت سنته، والسعيد والله كل السعادة، من كان يحرص ويجتهد أن يكون ناصرًا لدين الله -عزَّ وجلَّ- ، ولو بشطر كلمةٍ، معينًا على نشر السنة، بمظهره وبكلامه، وبسلوكه، وبعمله، بعيدًا عن البدعة التي حذَّر منها -صلى الله عليه وسلم-، حريصًا على اقتفاء سنته في ظاهره وباطنه، في خلوته وفي جلوته، ومن حرص على اتباع السنة في مثل ما ذكرنا، يُرجى له أن يُحشر معه -صلى الله عليه وسلم-، ومن ادعى محبته، فليسلك طريقته، أما من يدعي محبته، ثم تراه يخالف سنته في الظاهر، أو يخالف سنته في القول والعمل، فذاك ادعاءٌ ناقصٌ.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

